مقدمة السورة

(مقاتل - 150هـ) : سورة فاتحة الكتاب... وهي مدنية...

(الطبري - 310هـ) : سورة الفاتحة، مكِيّة.

القول في تأويل أسماء فاتحة الكتاب:

صَحَّ الخبرُ... عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: هي أمّ القرآن، وهي فاتحة الكتاب، وهي السبع المثاني. فهذه أسماءُ فاتحة الكتاب.

وسمّيت "فاتحة الكتاب"، لأنها يُفتتح بكتابتها المصاحف، ويُقرأ بها في الصلوات، فهي فَواتح لما يتلوها من سور القرآن في الكتابة والقراءة.

وسمّيت "أم القرآن "لتقدمها على سائر سور القرآن غيرها، وتأخُّر ما سواها خلفها في القراءة والكتابة. وذلك من معناها شبيهٌ بمعنى فاتحة الكتاب...

وأما تأويل اسمها أنها" السَّبْعُ"؛ فإنها سبعُ آيات، لا خلاف بين الجميع من القرَّاء والعلماء في ذلك. وإنما اختلفوا في الآي التي صارت بها سبع آيات...

وأما وصف النبي صلى الله عليه وسلم آياتها السبعَ بأنهن مَثان، فلأنها تُثْنَى قراءتها في كل صلاة تطوُّع ومكتوبة. وكذلك كان الحسن البصري يتأوّل ذلك...

(الجصاص - 370هـ) : قراءة فاتحة الكتاب... تقتضي أمر الله تعالى إيانا بفعل الحمد، وتعليم لنا كيف نحمده، وكيف الثناء عليه، وكيف الدعاء له، ودلالة على أن تقديم الحمد والثناء على الله تعالى على الدعاء أولى وأحرى بالإجابة، لأن السورة مفتتحة بذكر الحمد ثم بالثناء على الله، وهو قوله: {الحمد لله رب العالمين} إلى {مالك يوم الدين}. ثم الاعتراف بالعبادة له وإفرادها له دون غيره بقوله: {إياك نعبد}. ثم الاستعانة به في القيام بعبادته في سائر ما بنا الحاجة إليه من أمور الدنيا والدين وهو قوله: {إياك نستعين}. ثم الدعاء بالتثبيت على الهداية التي هدانا

لها؛ من وجوب الحمد له واستحقاق الثناء والعبادة، لأن قوله: {اهدنا الصراط المستقيم} هو دعاء للهداية والتثبيت عليها في المستقبل، إذ غير جائز ذلك في الماضي؛ وهو التوفيق عما ضل عنه الكفّار من معرفة الله وحمده والثناء عليه، فاستحقوا لذلك غضبه وعقابه. والدليلُ على أن قوله تعالى: {الحمد لله رب العالمين}، مع أنه تعليم لنا الحمد، هو أمرٌ لنا به، قوله: {إياك نعبد وإياك نستعين}؛ فاعلَمْ أن الأمر بقول الحمد مُضمرٌ في ابتداء السورة، وهو مع ما ذكرنا رُقْيَةٌ وعُوذةٌ وشفاء، لما روي عن أبي سعيد، قال: كنا في سريَّة فمررنا بحيّ من العرب فقالوا: سيِّدٌ لنا لدغته العقربُ، فهل فيكم راقٍ؟ قال: قلت: أنا، ولم أفعل حتى جعلوا لنا جُعْلاً، جعلوا لنا شاةً. قال: فقرأت عليه فاتحة الكتاب سبع مرات، فبرأ؛ فأخذت الشاة، ثم قلت: حتى نأتي النبي عليه السلام. فأتيناه فأخبرناه، فقال:"علمت أنها رقية حق. اضربوا لي معكم بسهم"...

(الماوردي – 450هـ) : الاستعاذة: ثبت بالكتاب والسنة أن يستعيذ القارئ لقراءة القرآن، فيقول:"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم". وهو نص الكتاب، وروى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من نفخه ونفثه وهمزه".

وفي الاستعاذة وجهان:

أحدهما: أنها الاستجارة بذي منعة.

والثاني: أنها الاستعانة عن خضوع.

وفي موضعها وجهان:

أحدهما: أنها خبر يخبر به المرء عن نفسه بأنه مستعيذ بالله.

والثاني: أنها في معنى الدعاء وإن كانت بلفظ الخبر، كأنه يقول: أعذني يا سميع يا عليم من الشيطان الرجيم.

القرطبي –671هـ:

في الاستعاذة... اثنتا عشرة مسألة:

الأولى: أمر الله تعالى بالاستعاذة عند أول كل قراءة فقال تعالى: {فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم} [النحل:98] أي إذا أردت أن تقرأ، فأَوْقَعَ الماضي موقع المستقبل...

الثانية: هذا الأمر على الندب في قول الجمهور في كل قراءة في غير الصلاة. واختلفوا فيه في الصلاة. حكى النقاش عن عطاء: أن الاستعاذة واجبة. وكان ابن سيرين والنخعي وقوم يتعوذون في الصلاة كل ركعة، ويمتثلون أمر الله في الاستعاذة على العموم، وأبو حنيفة والشافعي يتعوذان في الركعة الأولى من الصلاة ويريان قراءة الصلاة كلها قراءة واحدة، ومالِكٌ لا يرى التعوذ في الصلاة المفروضة ويراه في قيام رمضان.

الثالثة: أجمع العلماء على أن التعوذ ليس من القرآن ولا آيةً منه، وهو قول القارئ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وهذا اللفظ هو الذي عليه الجمهور من العلماء في التعوذ لأنه لفظ كتاب الله تعالى.

الرابعة: روى أبو داود وابن ماجه في سننهما عن جبير بن مطعم أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي صلاة فقال عمرو: لا أدري أي صلاة هي؟ فقال: (الله أكبر كبيراً الله أكبر كبيراً- ثلاثاً -الحمد لله كثيراً الحمد لله كثيراً- ثلاثاً -وسبحان الله بكرة وأصيلا- ثلاثاً -وأعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه). قال عمرو: همزه: المؤتة، ونفثه الشعر، ونفخه الكبر. وقال ابن ماجه: المؤتة يعني الجنون. والنفث: نفخ الرجل من فِيهِ من غير أن يخرج ريقه. والكبر: التّيه.

...

السابعة:... قال أبو بكر بن العربي: "فإن قيل: فما الفائدة في الاستعاذة من الشيطان الرجيم وقت القراءة؟ قلنا: فائدتها امتثال الأمر، وليس للشرعيات فائدة إلا القيام بحق الوفاء لها في امتثالها أمراً أو اجتنابها نهياً، وقد قيل: فائدتها امتثال الأمر بالاستعاذة من وسوسة الشيطان عند القراءة،

كما قال تعالى: "وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته "[الحج:52]...

الثامنة: في فضل التعوذ: روى مسلم عن سليمان بن صرد قال: استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم فجعل أحدهما يغضب ويحمر وجهه وتنتفخ أوداجه، فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم). فقام إلى الرجل رجل ممن سمع النبي صلى الله عليه وسلم فقال: هل تدري ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم آنفاً؟ قال: (إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم). فقال له الرجل: أمجنوناً تراني! أخرجه البخاري أيضاً.

وروى مسلم أيضاً عن عثمان بن أبي العاص الثقفي أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ذاك شيطان يقال له

خنزب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثاً) قال: ففعلت فأذهبه الله عني"...

التاسعة: معنى الاستعاذة في كلام العرب: الاستجارة والتحيز إلى الشيء، على معنى الامتناع به من المكروه، يقال: عذت بفلان واستعذت به، أي لجأت إليه.

(ابن عبد البر - 463هـ) : عن أبي هريرة قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: (أيما رجل صلى صلاة بغير قراءة أم القرآن فهي خداج، فهي خداج –غير تمام- قال: قلت: إني لأستطيع أقرأ مع الإمام، قال: اقرأ بها في نفسك، فإن الله يقول قسمت الصلاة بيني وبين عبدي، وآخرها لعبدي، وله ما سأل؛ قال: {الحمد لله رب العالمين}، قال: حمدني عبدي، قال: {الرحمان الرحيم}، قال: أثنى علي عبدي، قال: {ملك يوم الدين}، قال: مجدني عبدي، فهذا لي، قال: {إياك نعبد وإياك نستعين}، قال: أخلص العبادة لي واستعانني عليها، فهذه بيني وبين عبدي وله ما سأل، قال: {اهدنا الصراط المستقيم}، إلى قوله: {ولا

الضالين}، هذا لعبدي ولعبدي ما سأل) (التمهيد: 20/ 188).

قال أبو عمر: أما قوله –صلى الله عليه وسلم-: (من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن، فهي خداج)، فإن هذا يوجب قراءة فاتحة الكتاب في كل صلاة، وأن الصلاة إذا لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب، فهي خداج، والخداج: النقص والفساد، من ذلك قولهم: أخدجت الناقة وخدجت: إذا ولدت قبل تمام وقتها، وقبل تمام الخلق، وذلك نتاج فاسد. (التمهيد: 20/191-192).

ابن عطية -542هـ:

قال ابن عباس، وموسى بن جعفر عن أبيه، وعلي بن الحسين، وقتادة، وأبو العالية، ومحمد بن يحيي بن حبان: إنها مكية، ويؤيد هذا أن في سورة الحجر {ولقد آتيناك سبعاً من المثاني} [الحجر: 87] والحجر مكية بإجماع.

وفي حديث أُبَيّ بن كعب أنها السبع المثاني، والسبع الطُّول نزلت بعد الحجر بمدد، ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة، وما حفظ أنها كانت قط في الإسلام صلاة بغير "الحمد لله رب العالمين".

وروي عن عطاء بن يسار، وسوادة بن زياد، والزهري محمد بن مسلم، وعبد الله بن عبيد بن عمير أن سورة الحمد مدنية.

(البيضاوي – 685هـ) : وتسمى أم القرآن، لأنها مفتتحه ومبدأه، فكأنها أصله ومنشؤه، ولذلك تسمى أساسا. أو لأنها تشتمل على ما فيه من الثناء على الله سبحانه وتعالى، والتعبد بأمره ونهيه وبيان وعده ووعيده. أو على جملة معانيه من الحكم النظرية، والأحكام العملية التي هي سلوك الطريق المستقيم والاطلاع على مراتب السعداء ومنازل الأشقياء...

(ابن القيم - 751هـ) : اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال. وتضمنتها أكمل تضمُّن.

فاشتملت على التعريف بالمعبود -تبارك وتعالى- بثلاثة أسماء، مرجعُ الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارها عليها، وهي: «الله، والرب، والرحمن». وبنيت السورة على «الإلهية»، و«الربوبية»، و«الرحمة».

ف {إياك نعبد}: مبني على الإلهية، و {إياك نستعين}: على الربوبية، و«طلب الهداية إلى الصراط المستقيم» بصفة الرحمة.

و«الحمد»: يتضمن الأمور الثلاثة؛ فهو المحمود — سبحانه وتعالى -في إلهيته وربوبيته ورحمته، والثناءُ والمِجْدُ كمالان لجَدِّه.

وتضمنت إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم- حَسَنِهَا وسَيِّئِهَا -وتفرُّدَ الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق،

وكونَ حكمه بالعدل، وكل هذا تحت قوله {مالك يوم الدين}.

[إثبات النبوات في الفاتحة]

وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة:

أحدها: (كونه {رب العالمين}):

فلا يليق به – سبحانه– أن يترك عباده سُدًى هَمَلًا لا يُعرِّفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيهما. فهذا هَضْم للربوبية، ونسبةُ «الرب» تعالى إلى ما لا يليق به. وما قَدَره حق قدْره مَنْ نَسَبَه إليه.

الثاني: (أخْذُها مِن اسم «الله»):

وهو: المألوه المعبود، ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله.

الموضع الثالث: (مِن اسمه «الرحمن»):

فإن رحمته تمنع إهمالَ عباده، وعدمَ تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم. فمن أعطَى اسمَ «الرحمن» حقَّه عَرَف أنه متضمن لإرسال الرسل وإنزال الكتب، أعظمَ من تضمُّنه إنزالَ الغيث، وإنباتَ الكلأ، وإخراجَ الحَبِّ. فاقتضاء الرحمة لِما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح؛ لكنِ المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب، وأدرك منه أولو الألباب أمرًا وراء ذلك.

الموضع الرابع: (مِن ذِكر «يوم الدين»):

فإنه اليوم الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم، فيثيبهم على الخيرات؛ ويعاقبهم على المعاصي والسيئات. وما كان الله ليعذب أحدا قبل إقامة الحجة عليه. والحجة إنما قامت برسله وكتبه، وبهم استحق الثواب والعقاب، وبهم قام سوق يوم الدين، وسيق الأبرار إلى النعيم، والفجار إلى الجحيم.

الموضع الخامس: (من قوله «إياك نعبد»):

فإن ما يُعبد به الرب تعالى لا يكون إلا على ما يحبه ويرضاه، وعبادته (وهي شكره وحبه وخشيته) فطري ومعقول للعقول السليمة؛ لكن طريق التعبد وما يُعبد به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله وبيانِهم. وفي هذا بيانُ أن إرسال الرسل أمر مستقر في العقول. يستحيل تعطيل العالم عنه. كما يستحيل تعطيله عن الصانع. فمن أنكر الرسول فقد أنكر المرسِل. ولم يؤمن به. ولهذا جعل الله سبحانه الكفر برسله كفرا به.

الموضع السادس: (من قوله «اهدنا الصراط المستقيم»):

فالهداية: هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل؛ فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتَّب عليه هدايةُ التوفيق، وجعلُ الإيمان في القلب، وتحبيبُه إليه، وتزيينُه في القلب، وجعلُه مُؤْثِرا له، راضيا به، راغبا فيه.

[مراتب الهداية]

وهما هدايتان مستقلتان، لا يحصل الفلاح إلا بهما، وهما متضمنتان تعريفَ ما لم نَعْلَمْه من الحق تفصيلا وإجمالا، وإلهامَنا له، وجعْلَنا مريدين لاتباعه ظاهرا وباطنا، ثم خَلْقَ القدرة لنا على القيام بموجِب الهُدى بالقول والعمل والعزم، ثم إدامةَ ذلك لنا وتثبيتَنا عليه إلى الوفاة.

ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كُنَّا مهتدين فكيف نسأل الهداية؟

فإن المجهول لنا من الحق أضعافُ المعلوم. وما لا نريد فعله تهاونا وكسلا مثلُ ما نريده أو أكثر منه أو دونه. وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك. وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله فأَمْرٌ يفُوت الحصر. ونحن محتاجون إلى الهداية التامة؛ فمن كَمُلت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤالَ التثبيت والدوام.

وللهداية مرتبة أخرى -وهي آخر مراتبها- وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة وهو الصراط الموصل إليها؛ فمن هُدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أَرْسَل به رُسلَه وأَنزَل به كتبَه، هُدي هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه.

وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار، يكون ثبوت قَدَمه على الصراط المنصوب على مَتْن جهنم. وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون سيره على ذاك الصراط؛ فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطَّرْف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشَدِّ الركاب، ومنهم من يسعى سعيا، ومنهم من يمشي مشيا، ومنهم من يحبو حَبْوًا، ومنهم المخدوش المسلَّم، ومنهم المكردَس في النار.

فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، حذو القُذَّة بالقذة. جزاء وفاقا {هل تجزون إلا ما كنتم تعملون} [النحل: 90].

ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم؛ فإنها الكلاليب التي بجَنبتي ذاك الصراط، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه. فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك، {وما ربك بظلام للعبيد} [فصلت: 46].

فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير. والسلامة من كل شر.

الموضع السابع: (من معرفة نفس المسئول -وهو الصراط المستقيم)،

ولا تكون الطريق «صراطا» حتى تتضمن خمسة أمور:

الاستقامة، والإيصال إلى المقصود، والقرب، وسعته للمارين عليه، وتعيُّنه طريقًا للمقصود. ولا يخفى تضمُّن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة.

فوصفُه بالاستقامة يتضمن قربه؛ لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين نقطتين، وكلما تَعوَّجَ طال وبَعُد،

واستقامتُه تتضمن إيصاله إلى المقصود، ونصبُه لجميع من يمر عليه يستلزم سَعَته، وإضافتُه إلى المنعَم عليهم، ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال، يستلزم تَعَيُّنَه طريقًا.

و«الصراط» تارة يضاف إلى الله؛ إذ هو الذي شرعه ونصبه، كقوله تعالى: {وأن هذا صراطي مستقيما} [الأنعام: 153]، وقوله: {وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم، صراط الله} [الشورى: 25، 53].

وتارة يضاف إلى العباد -كما في الفاتحة- لكونهم أهل سلوكه، وهو المنسوب لهم، وهم المارون عليه.

[العالم بالحق ولا يعمل به ويتبع هواه: مغضوب عليه]

الموضع الثامن: (من ذكر المنعَم عليهم) وتمييزِهم عن طائفتي «الغضب» و«الضلال»؛ فانقسم الناس، بحسب معرفة الحق والعمل به، إلى هذه الأقسام الثلاثة؛ لأن العبد إما أن يكون عالما بالحق، أو جاهلا به. والعالم بالحق إما أن

يكون عاملا بموجبه أو مخالفا له. فهذه أقسام المكلَّفين، لا يخرجون عنها البتة.

فالعالِم بالحق العامل به هو المنعَم عليه، وهو الذي زكَّى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وهو المفلِح {قد أفلح من زكاها} [الشمس: 9].

والعالِم به المتبع هواه هو المغضوب عليه.

والجاهل بالحق هو الضال.

والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل، والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل، فكلٌّ منهما ضال مغضوب عليه؛ ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به، ومن هاهنا كان اليهود أحق به، وهو متغلظ في حقهم، كقوله تعالى في حقهم {بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب} [البقرة: 90]، وقال تعالى: {قل هل أنبئكم بشر

من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل} [المائدة: 60].

والجاهل بالحق أحق باسم الضلال، ومن هنا وُصفت النصارى به في قوله تعالى: {قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل} [المائدة: 77]. فالأُولى في سياق الخطاب مع اليهود، والثانية: في سياقه مع النصارى.

وفي «الترمذي» و«صحيح ابن حِبَّان» من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون».

ففي ذكر المنعَمِ عليهم -وهم من عَرَف الحق واتبعه-، والمغضوبِ عليهم -وهم من عرفه واتبع هواه-، والضالين -وهم من جَهله-، ما يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة؛ لأن

انقسام الناس إلى ذلك هو الواقع المشهود، وهذه القسمة إنما أوجبها ثبوت الرسالة.

[لماذا قال: المغضوب عليهم، ولم يقل:"غضِبْتَ عليهم" – ك {أنعمتَ عليهم}؟]

وأضاف النعمة إليه، وحَذَف فاعل الغضب لوجوه:

منها: أن «النعمة» هي الخير والفضل، و«الغضب» من باب الانتقام والعدل، والرحمة تغلب الغضب، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين، وأسبقهما وأقواهما.

وهذه طريقة القرآن في إسناد الخيرات والنعم إليه سبحانه، وحذفِ الفاعل في مقابلتهما، كقول مؤمني الجن {وأنَّا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا} [الجن: 10]. ومنه قول الخَضِر في شأن الجدار واليتيمين: {فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما} [الكهف: 82]، وقال في خرق السفينة {فأردت أن أعيبها} [الكهف: 79]، ثم قال بعد ذلك: {وما فعلته عن

أمري}، وتأمل قوله تعالى: {أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم} [البقرة: 187] وقوله: {حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير} [المائدة: 3] وقوله: {حرمت عليكم أمهاتكم} [النساء: 23]، ثم قال: {وأحل لكم ما رواء ذلكم} [النساء: 24].

[مطلق النعمة على المؤمن والكافر، والنعمة المطلقة للمؤمن فقط]

وفي تخصيصه لأهل «الصراط المستقيم» بالنعمة ما دل على أن النعمة المطلقة هي الموجبة للفلاح الدائم، وأما مطلق النعمة: فعلى المؤمن والكافر، فكل الخلق في نعمة،

وهذا فصل النزاع في مسألة: هل لله على الكافر من نعمة أم لا؟ فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان، ومطلق النعمة تكون للمؤمن والكافر، كما قال تعالى: {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار} [إبراهيم: 34].

و«النعمة» من جنس الإحسان؛ بل هي الإحسان. والرب تعالى إحسانُه على البَرِّ والفاجر، والمؤمن والكافر. وأما «الإحسان المطلق»: فللذين اتقوا والذين هم محسنون،

الوجه الثاني: أن الله سبحانه هو المنفرد بالنعم {وما بكم من نعمة فمن الله} [النحل: 53] فأضيف إليه ما هو منفرد به، وإن أضيف إلى غيره فلكونه طريقا ومَجْرى للنعمة.

وأما «الغضب على أعدائه»: فلا يختص به تعالى؛ بل ملائكتُه وأنبياؤه ورسلُه وأولياؤه يغضبون لغضبه، فكان في لفظة «المغضوب عليهم» بموافقة أوليائه له من الدلالة على تفرده بالإنعام، وأن النعمة المطلقة منه وحده، هو المنفرد بها -ما ليس في لفظة «المنعم عليهم».

الوجه الثالث: أن في حذف فاعل الغضب من الإشعار بإهانة المغضوب عليه، وتحقيره وتصغير شأنه ما ليس في ذكر فاعل النعمة، من إكرام المنعَم عليه والإشادة بذكره، ورفع قدره، ما ليس في حذفه.

فإذا رأيت مَنْ قد أكرمه مَلِكٌ وشرَّفه، ورفع قدرَه، فقلتَ: هذا الذي أكرمه السلطان، وخلع عليه وأعطاه ما تمناه، كان أبلغَ في الثناء والتعظيم من قولك: هذا الذي أُكرِم وخُلِع عليه وشُرِّف وأُعطِيَ.

وتأمل سرا بديعا في ذكر السبب والجزاء للطوائف الثلاثة بأوجز لفظ وأخصره، فإن الإنعام عليهم يتضمن إنعامه بالهداية، التي هي العلم النافع والعمل الصالح، وهي الهدى ودين الحق، ويتضمن كمال الإنعام بحسن الثواب والجزاء، فهذا تمام النعمة، ولفظ {أنعمت عليهم} يتضمن الأمرين.

وذِكر غضبه على {المغضوب عليهم} يتضمن أيضا أمرين: الجزاءَ بالغضب الذي موجبه غايةُ العذاب والهوان، والسببَ الذي استحقوا به غضبه سبحانه، فإنه أرحم وأرأف من أن يغضب بلا جناية منهم ولا ضلال، فكأن الغضب عليهم مستلزم لضلالهم، وذكر {الضالين} مستلزم لغضبه عليهم وعقابه لهم، فإن من ضل استحق العقوبة التي هي موجب ضلاله، وغضب الله عليه.

فاستلزم وصف كل واحد من الطوائف الثلاث للسبب والجزاء أَبْيَنَ استلزام، واقتضاه أكمل اقتضاء، في غاية الإيجاز والبيان والفصاحة، مع ذكر الفاعل في أهل السعادة، وحذفه في أهل الغضب، وإسناد الفعل إلى السبب في أهل الضلال.

[تلازم الهداية والنعمة. وتلازم الغضب والضلال]

وتأمَّل المقابلةَ بين الهداية والنعمة، والغضب والضلال، فذَكَر «المغضوب عليهم» و«الضالين» في مقابلة المهتدين المنعِم عليهم. وهذا كثير في القرآن؛ يقرن بين الضلال والشقاء، وبين الهدى والفلاح.

فالثاني كقوله: {أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون} [البقرة: 5] وقوله: {أولئك لهم الأمن وهم مهتدون} [الأنعام: 72]. والأول كقوله تعالى: {إن المجرمين في ضلال وسعر} [القمر: 47]. وقوله: {ختم

الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم} [البقرة: 7].

وقد جمع سبحانه بين الأمور الأربعة في قوله: {فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى} [طه: 123]، فهذا الهدى والسعادة. ثم قال: {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى} [طه: 123. 126] فذَكَر الضلال والشقاء.

فالهُدى والسعادة متلازمان، والضلال والشقاء متلازمان.

فصل [الطريق الموصل إلى الله طريق واحد]

وذَكَر {الصراط المستقيم} مفردا مُعَرَّفا تعريفين: تعريفا باللام، وتعريفا بالإضافة. وذلك يفيد تعيُّنه واختصاصه، وأنه صراط واحد.

وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها، كقوله: {وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله} [الأنعام: 153] فوحَّد لفظ «الصراط» و «سبيله»، وجمع «السبل» المخالفة له.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: خَطَّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطًّا، وقال: «هذا سبيل الله»، ثم خط خطوطا عن يمينه وعن يساره، وقال: «هذه سُبُلٌ، على كل سبيل شيطان يدعو إليه»، ثم قرأ قوله تعالى: {وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون} [الأنعام: 153].

وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد، وهو ما بعث به رسله، وأنزل به كتبه، لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق. ولو أتى الناس من كل طريق، واستفتحوا من كل باب فالطُّرُق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة؛ إلا من هذا الطريق الواحد، فإنه متصل بالله، موصل إلى الله.

فصل [قلة الرفيق في طريق الحق]

ولما كان طالب «الصراط المستقيم» طالِبَ أَمْرٍ أكثَرُ الناس ناكبون عنه، مريدا لسلوك طريقٍ مُرَافِقُه فيها في غاية القلة والعزة، والنفوس مجبولة على وحشة التفرد وعلى الأنس بالرفيق، نَبَّه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق، وأنهم هم {الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا} [النساء: 69]، فأضاف «الصراط» إلى الرفيق السالكين له، وهم {الذين أنعم الله عليهم}. ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه. وليعلم أن رفيقه في هذا «الصراط»: هم {الذين أنعم الله عليهم}. فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له. فإنهم هم الأقلون قدرا. وإن كانوا الأكثرين عددا. كما قال بعض السلف: «عليك بطريق الحق. ولا تستوحش لقلة السالكين. وإياك وطريق الباطل. ولا تغتر بكثرة الهالكين».

وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم، وغض الطرف عمن سواهم، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا. وإذا صاحوا بك في طريق سيرك، فلا تلتفت إليهم، فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك.

وقد ضربت لذلك مثلين. فليكونا منك على بال:

المثل الأول: رجل خرج من بيته إلى الصلاة- لا يريد غيرها -فعرض له في طريقه شيطان من شياطين الإنس. فألقى عليه كلاما يؤذيه. فوقف ورد عليه. وتماسكا. فربما كان شيطان الإنس أقوى منه. فقهره. ومنعه عن الوصول إلى المسجد. حتى فاتته الصلاة. وربما كان الرجل أقوى من شيطان الإنس. ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصف الأول. وكمال إدراك الجماعة. فإن التفت إليه أطمعه في نفسه. وربما فترت عزيمته. فإن كان له معرفة وعلم زاد في السعي والجَمْز بقدر التفاته أو أكثر. فإن أعرض عنه واشتغل بما

هو بصدده. وخاف فوت الصلاة أو الوقت: لم يبلغ عدوه منه ما شاء.

المثل الثاني: الظبي أشد سعيا من الكلب. ولكنه إذا أحس به التفت إليه فيضعف سعيه فيدركه الكلب فيأخذه.

والقصد: أن في ذكر هذا الرفيق: ما يزيل وحشة التفرد، ويحث على السير والتشمير للحاق بهم.

وهذه إحدى الفوائد في دعاء القنوت: «اللهم اهدني فيمن هديت». أي: أدخلني في هذه الزمرة، واجعلني رفيقا لهم ومعهم.

والفائدة الثانية: أنه توسل إلى الله بنعمه وإحسانه إلى من أنعم عليه بالهداية (أي قد أنعمت بالهداية على من هديت، وكان ذلك نعمة منك، فاجعل لي نصيبا من هذه النعمة، واجعلني واحدا من هؤلاء المنعم عليهم). فهو توسل إلى الله بإحسانه.

والفائدة الثالثة: كما يقول السائل للكريم: تصدق عليّ في جملة من تصدقت عليهم، وعلمني في جملة من علمته، وأحسن إليّ في جملة من شملته بإحسانك.

فصل [كيفية الدعاء المستجاب، وصيغة سؤال الله]

ولما كان سؤال الله الهداية إلى «الصراط المستقيم» أجل المطالب، ونَيْلُه أشرفَ المواهب، علَّم الله عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم، توسلٌ إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته.

وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء. ويؤيدهما الوسيلتان المذكورتان في حديثي الاسم الأعظم اللذين رواهما ابن حبان في «صحيحه» والإمام أحمد والترمذي.

أحدهما: حديث عبد الله بن بُريدة عن أبيه رضي الله عنه قال: سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو، ويقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت،

الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد. فقال صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى» قال الترمذي: حديث صحيح.

فهذا توسل إلى الله بتوحيده، وشهادة الداعي له بالوحدانية. وثبوت صفاته المدلول عليها باسم «الصمد»، وهو كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «العالم الذي كمل علمه، القادر الذي كملت قدرته». وفي رواية عنه: «هو السيد الذي قد كمل فيه جميع أنواع السؤدد». وقال أبو وائل: «هو السيد الذي انتهى سؤدده». وقال سعيد بن جبير: «هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وأقواله».

وبنفي التشبيه والتمثيل عنه بقوله: «ولم يكن له كفوا أحد»، وهذه ترجمة عقيدة أهل السنة، والتوسل بالإيمان بذلك، والشهادة به هو الاسم الأعظم.

[التوسل إلى الله بأسمائه وصفاته]

والثاني: حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يدعو: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان، بديع السماوات والأرض، ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم. فقال صلى الله عليه وسلم: «لقد سأل الله باسمه الأعظم». فهذا توسل إليه بأسمائه وصفاته.

وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين. وهما: «التوسل بالحمد والثناء عليه وتمجيده»، و«التوسل إليه بعبوديته وتوحيده». ثم جاء سؤال أهم المطالب وأنجح الرغائب- وهو الهداية -بعد الوسيلتين، فالداعي به حقيق بالإجابة.

ونظير هذا: دعاء النبي صلى الله عليه وسلم- الذي كان يدعو به إذا قام يصلي من الليل -رواه البخاري في «صحيحه» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «اللهم لك الحمد. أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن. ولك الحمد. أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن. ولك الحمد. أنت الحق. ووعدك الحق. ولقاؤك حق.

والجنة حق. والنار حق. والنبيون حق. والساعة حق. ومحمد حق. اللهم لك أسلمت. وبك آمنت. وعليك توكلت. وإليك أنبت. وبك خاصمت. وإليك حاكمت. فاغفر لي ما قدمت وما أخرت. وما أسررت وما أعلنت. أنت إلهي لا إله إلا أنت» فذكر التوسل إليه بحمده والثناء عليه وبعبوديته له. ثم سأله المغفرة.

فصل: [في اشتمال هذه السورة على أنواع التوحيد الثلاثة التي اتفقت عليها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم]

التوحيد نوعان: نوع في العلم والاعتقاد، ونوع في الإرادة والقصد.

ويسمى الأول: التوحيد العلمي، والثاني: التوحيد القصدي الإرادي، لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة، والثاني بالقصد والإرادة.

وهذا الثاني أيضا نوعان: توحيد في الربوبية، وتوحيد في الإلهية.

فهذه ثلاثة أنواع:

فأما «توحيد العلم»، فمداره إلى إثبات صفات الكمال، وعلى نفي التشبيه والمثال، والتنزيه عن العيوب والنقائص. وقد دل على هذا شيئان: مجمل، ومفصل.

أما «المجمل»: فإثبات الحمد له سبحانه. وأما «المفصل»: فذكر صفة: الإلهية، والربوبية، والرحمة، والملك. وعلى هذه الأربع مدار الأسماء والصفات.

[دلالة «الحمد لله» على توحيد الله]

فأما تضمن الحمد لذلك: فإن «الحمد» يتضمن مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله، مع محبته والرضا عنه، والخضوع له، فلا يكون حامدا من جحد صفات المحمود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له.

وكلما كانت صفات كمال المحمود أكثر، كان حمده أكمل. وكلما نقص من صفات كماله، نقص من حمده بحسبها. ولهذا كان الحمد لله حمدا لا يحصيه سواه، لكمال

صفاته وكثرتها. ولأجل هذا لا يحصى أحد من خلقه ثناء عليه، لما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال التي لا يحصيها سواه. ولهذا ذم الله تعالى آلهة الكفار وعابها بسلب أوصاف الكمال عنها، فعابها بأنها لا تسمع ولا تبصر، ولا تتكلم ولا تهدي، ولا تنفع ولا تضر.

فكل سلب في القرآن حمد الله به نفسه، فلمضادته لثبوت ضده، ولتضمنه كمال ثبوت ضده.

فعلمت أن «حقيقة الحمد» تابعة لثبوت أوصاف الكمال، وأن نفيها نفي لحمده، ونفي الحمد مستلزم لثبوت ضده. فهذا دلالة الحمد على توحيد الأسماء والصفات.

فصل [دلالة الأسماء الخمسة على توحيد الله]

وأما دلالة الأسماء الخمسة عليها — وهي: (الله. والرب. والرحمن. والرحيم. والملك) فمبني على أصلين:

أحدهما: أن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله، فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماء، وهي

أوصاف، وبذلك كانت حسنى، إذ لو كانت ألفاظا لا معاني فيها، لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال، ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان، وبالعكس، فيقال: اللهم إني ظلمت نفسي، فاغفر لي، إنك أنت المنتقم. واللهم أعطني، فإنك أنت الضار المانع، ونحو ذلك.

فصل [دلالة أسماء الله على ذاته ولوازم صفاته سبحانه]

الأصل الثاني: أن الاسم من أسمائه تبارك وتعالى كما يدل على الذات والصفة التي اشتق منها بالمطابقة، فإنه يدل عليه دلالتين أخريين بالتضمن واللزوم؛ فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن، وكذلك على الذات المجردة عن الصفة، ويدل على الصفة الأخرى باللزوم.

فإن اسم «السميع» يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة، وعلى الذات وحدها، وعلى السمع وحده بالتضمن، ويدل

على اسم «الحي» وصفة الحياة بالالتزام. وكذلك سائر أسمائه وصفاته.

فصل [اسم «الله» مستلزم لجميع الأسماء الحسنى والصفات العليا]

إذا تقرر هذان الأصلان. فاسم «الله» دال على جميع الأسماء الحسنى. والصفات العليا بالدلالات الثلاث. فإنه دال على «إلهيته» المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له. مع نفي أضدادها عنه.

وصفات الإلهية: هي صفات الكمال المنزهة عن التشبيه والمثال وعن العيوب والنقائص؛ ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى: {ولله الأسماء الحسنى} [الأعراف: 180]. ويقال: «الرحمن. والرحيم. والقدوس. والسلام. والعزيز. والحكيم» من أسماء الله، ولا يقال: «الله» من أسماء «الرحمن» ولا من أسماء «العزيز» ونحو ذلك.

فعلم أن اسمه «الله» مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى، دال عليها بالإجمال. والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية، التي اشتق منها اسم «الله»، واسم «الله» دال على كونه مألوها معبودا، تألهه الخلائق محبة وتعظيما وخضوعا، وفزعا إليه في الحوائج والنوائب. وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنين لكمال الملك والحمد. وإلهيتُه وربوبيتُه ورحمانيتُه ومُلكُه مستلزم لجميع صفات كماله؛ إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أفعاله.

وصفاتُ الجلال والجمال أخصُّ باسم «الله»، وصفاتُ الفعل والقدرة والتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع ونفوذ المشيئة وكمال القوة وتدبير أمر الخليقة أخصُّ باسم «الرب».

وصفات الإحسان، والجود والبر، والحنان والمنة، والرأفة واللطف أخصُّ باسم «الرحمن»، وكرّر إيذانا بثبوت الوصف، وحصول أثره، وتعلقه بمتعلقاته.

فـ«الرحمن»: الذي الرحمة وصْفُه. و«الرحيم»: الراحم لعباده؛ ولهذا يقول تعالى: {وكان بالمؤمنين رحيما} [الأحزاب: 43]. {إنه بهم رءوف رحيم} [التوبة: 117]. ولم يجئ «رحمان بعباده». ولا «رحمان بالمؤمنين». مع ما في اسم «الرحمن» الذي هو على وزن «فعلان» من سعة هذا الوصف وثبوت جميع معناه الموصوف به.

ألا ترى أنهم يقولون: «غضبان». للممتلئ غضبا، و«ندمان» و«حيران» و«سكران» و«لهفان» لِمَنْ مُلِئَ بذلك؛ فبناء «فعلان» للسعة والشمول.

ولهذا يقرن استواءه على العرش بهذا الاسم كثيرا. كقوله تعالى: {الرحمن على العرش استوى} [طه: 5]. {ثم استوى على العرش الرحمن} [الفرقان: 59]. فاستوى على

عرشه باسم «الرحمن»؛ لأن العرش محيط بالمخلوقات قد وسعها، والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم، كما قال تعالى: {ورحمتي وسعت كل شيء} [الأعراف: 156]. فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات؛ فلذلك وسعت رحمته كل شيء.

وفي «الصحيح» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب، فهو عنده موضوع على العرش: إن رحمتي تغلب غضبي». وفي لفظ: «فهو عنده على العرش».

وصفات العدل والقبض والبسط والخفض والرفع والعطاء والمنع والإعزاز والإذلال والقهر والحكم ونحوِها أخصُّ باسم «المِلك»، وخَصَّه بيوم الدين -وهو الجزاء بالعدل- لتفَرُّده بالحكم فيه وحده، ولأنه اليوم الحق، وما قبله كساعة، ولأنه الغايةُ وأيام الدنيا مراحلُ إليه.

فصل [الخلق والأمر نشأ من الأسماء الثلاثة]

وتأمل ارتباط «الخلق والأمر» بهذه الأسماء الثلاثة، وهي (الله والرب والرحمن) كيف نشأ عنها الخلق والأمر والثواب والعقاب، وكيف جمعت الخلق وفرقتهم؛ فلها الجمع ولها الفرق.

فاسم «الرب» له الجمع الجامع لجميع المخلوقات؛ فهو رب كل شيء وخالقه والقادر عليه، لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكل من في السماوات والأرض عبد له في قبضته وتحت قهره؛ فاجتمعوا بصفة الربوبية وافترقوا بصفة الإلهية؛ فألهه وحده السعداء وأقروا له طوعا بأنه الله الذي لا إله إلا هو الذي لا تنبغي العبادة والتوكل والرجاء والخوف والحب والإنابة والإخبات والخشية والتذلل والخضوع إِلَّا لَهُ.

وهنا افترق الناس وصاروا فريقين: فريقا مشركين في السعير، وفريقا موحدين في الجنة. فالإلهية هي التي فرقتهم كما أن الربوبية هي التي جمعتهم.

فالدين والشرع والأمر والنهي – مظهره وقيامه– من صفة الإلهية. والخلق والإيجاد والتدبير والفعل من صفة الربوبية. والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار من صفة الملك وهو ملك يوم الدين.

فأمرهم بإلهيته وأعانهم ووفّقهُم وهَدَاهم وأضلهم بربوبيته، وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله، وكل واحدة من هذه الأمور لا تنفك عن الأخرى.

وأما «الرحمة»: فهي التعلق والسبب الذي بيْن الله وبين عباده ف«التأليه» منهم له و«الربوبية» منه لهم، و«الرحمة» سبب واصل بينه وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم؛ فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة.

واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه برحمته. ف {الرحمن على العرش استوى} مطابق لقوله {رب العالمين،

الرحمن الرحيم} فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شيء عنها أقصى شمول الرحمة وسعتها، فوسع كل شيء برحمته وربوبيته مع أن في كونه ربا للعالمين ما يدل على علوه على خلقه وكونه فوق كل شيء. كما يأتي بيانه إن شاء الله.

فصل [لله تعالى جميع أقسام الكمال والحمد]

في ذكر هذه الأسماء بعد «الحمد»، وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها، ما يدل على أنه محمود في إلهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه، وأنه إله محمود، ورب محمود، ورحمان محمود، ومَلِكٌ محمود.

فله بذلك جميع أقسام الكمال: كمال من هذا الاسم بمفرده، وكمال من الآخر بمفرده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر.

مثال ذلك قوله تعالى: {والله غني حميد}، {والله عليم حكيم}، {والله قدير}، {والله غفور رحيم}:

فـ«الغِنَى» صفة كمال، و«الحمد» صفة كمال، واقتران غناه بحمده كمال أيضا.

وعلمه كمال، وحكمته كمال، واقتران العلم بالحكمة كمال أيضا.

وقدرتُه كمال، ومغفرته كمال، واقتران القدرة بالمغفرة كمال. وكذلك العفو بعد القدرة {فإن الله كان عفوا قديرا} [النساء: 149]. واقتران العلم بالحلم {والله عليم حليم} [النساء: 12].

وحملة العرش أربعة: اثنان يقولان: «سبحانك اللهم وبحمدك. لك الحمد على حلمك بعد علمك». واثنان يقولان: «سبحانك اللهم وبحمدك. لك الحمد على عفوك بعد قدرتك». فما كل من قدر عفا، ولا كل من عفا يعفو عن قدرة، ولا كل من علم يكون حليما، ولا كل حليم عالم.

فما قرن شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم، ومن عفو إلى قدرة، ومن ملك إلى حمد، ومن عزة إلى رحمة {وإن ربك لهو العزيز الرحيم} [الشعراء: 9].

ومن هاهنا كان قول المسيح عليه السلام: {إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم} [المائدة: 117] أحسن من أن يقول: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم. أي إن غفرت لهم كان مصدر مغفرتك عن عزة، وهي كمال القدرة، وعن حكمة، وهي كمال العلم؛ فمن غفر عن عجز وجهل بجرم الجاني لا يكون قادرا حكيما عليما. بل لا يكون ذلك إلا عجزا؛ فأنت لا تغفر إلا عن قدرة تامة، وعلم تام، وحكمة تضع بها الأشياء مواضعها، فهذا أحسن من ذكر «الغفور الرحيم» في هذا الموضع الدال ذكره على التعريض بطلب المغفرة في غير حينها، وقد فاتت؛ فإنه لو قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم، كان في هذا من الاستعطاف والتعريض بطلب المغفرة لمن لا يستحقها، ما ينزه عنه منصب المسيح

عليه السلام، لاسيما والموقف موقف عظمة وجلال، وموقف انتقام ممن جعل لله ولدا، واتخذه إلها من دونه؛ فذكر العزة والحكمة فيه أليق من ذكر الرحمة والمغفرة.

وهذا بخلاف قول الخليل عليه السلام: {واجنبني وبني أن نعبد الأصنام، رب إنهن أضللن كثيرا من الناس، فمن تبعني فإنه مني، ومن عصاني فإنك غفور رحيم} [إبراهيم: 35. 36]. ولم يقل: فإنك عزيز حكيم؛ لأن المقام استعطاف وتعريض بالدعاء. أي إن تغفر لهم وترحمهم. بأن توفقهم للرجوع من الشرك إلى التوحيد، ومن المعصية إلى الطاعة، كما في الحديث: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

وفي هذا أظهر الدلالة على أن أسماء الرب تعالى مشتقة من أوصاف ومعان قامت به، وأن كل اسم يناسب ما ذكر معه واقترن به من فعله وأمره، والله الموفق للصواب.

فصل: (في مراتب الهداية الخاصة والعامة. وهي عشر مراتب)

المرتبة الأولى: (مرتبة تكليم الله عز وجل لعبده يقظة بلا واسطة. بل منه إليه).

وهذه أعلى مراتبها. كما كلم موسى بن عمران. صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه. قال الله تعالى: {وكلم الله موسى تكليما} [النساء: 164]؛ فذكر في أول الآية وحيه إلى نوح والنبيين من بعده، ثم خص موسى من بينهم بالإخبار بأنه كلمه؛ وهذا يدل على أن «التكليم» الذي حصل له أخص من مطلق الوحي الذي ذكر في أول الآية. ثم أكده بالمصدر الحقيقي الذي هو مصدر «كلم» هو «التكليم» رفعاً لما يتوهمه المعطلة والجهمية والمعتزلة وغيرهم من أنه إلهام. أو إشارة. أو تعريف للمعنى النفسي بشيء غير التكليم. فأكده بالمصدر المفيد تحقيق النسبة ورفع توهم المجاز. قال الفراء: العرب تسمى ما يوصل إلى الإنسان كلاما بأي طريق وصل؛ ولكن لا تحققه بالمصدر، فإذا حققته بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام، كالإرادة، يقال:

فلان أراد إرادة، يريدون حقيقة الإرادة. ويقال: أراد الجدار، ولا يقال: إرادة لأنه مجاز غير حقيقة. هذا كلامه.

وقال تعالى: {ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك} [الأعراف: 143]. وهذا التكليم غير التكليم الأول الذي أرسله به إلى فرعون. وفي هذا «التكليم الثاني» سأل النظر، لا في الأول. وفيه أُعطي الألواح. وكان عن مواعدة من الله له. و«التكليم الأول» لم يكن عن مواعدة، وفيه قال الله له: {يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي} [الأعراف: 144]. أي: بتكليمي لك بإجماع السلف.

وقد أخبر سبحانه في كتابه أنه ناداه وناجاه؛ فالنداء من بُعد، والنجاء من قرب. تقول العرب: إذا كبرت الحلقة فهو نداء، أو نجاء. وقال له أبوه آدم – عليه السلام –في محاجته: «أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه. وخط لك التوراة بيده؟». وكذلك يقوله له أهل الموقف إذا طلبوا منه الشفاعة إلى ربه. وكذلك في حديث الإسراء في رؤية

موسى – عليه السلام– في السماء السادسة –أو السابعة– على اختلاف الرواية. قال: «وذلك بتفضيله بكلام الله».

ولو كان «التكليم» الذي حصل له من جنس ما حصل لغيره من الأنبياء لم يكن لهذا التخصيص به في هذه الأحاديث معنى. ولا كان يسمى «كليم الرحمن». وقال تعالى: {وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء} [الشورى: 51]. ففرق بين تكليم الوحي. والتكليم بإرسال الرسول. والتكليم من وراء حجاب.

فصل: (المرتبة الثانية: مرتبة الوحي المختص بالأنبياء)

قال الله تعالى: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده} [النساء: 163]. وقال: {وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب} الآية [الشورى: 51]. فجعل الوحي في هذه الآية قسما من أقسام التكليم. وجعله في آية النساء قسيما للتكليم. وذلك

باعتبارين؛ فإنه قسيم التكليم الخاص الذي هو بلا واسطة، وقسم من التكليم العام الذي هو إيصال المعنى بطرق متعددة.

و«الوحي» في اللغة: هو الإعلام السريع الخفي. ويقال في فعله: «وَحَى». و«أوحى».

... وهو أقسام. كما سنذكره.

فصل: (المرتبة الثالثة: إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري)

فيوحي إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه.

فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء. لا تكون لغيرهم.

ثم هذا الرسول الملكي قد يتمثل للرسول البشرى رجلا. يراه عيانا ويخاطبه. وقد يراه على صورته التي خلق عليها. وقد يدخل فيه الملك، ويوحي إليه ما يوحيه، ثم يَفْصِم عنه، أي يقلع. والثلاثة حصلت لنبينا صلى الله عليه وسلم.

فصل: (المرتبة الرابعة: مرتبة التحديث)

وهذه دون مرتبة الوحي الخاص، وتكون دون مرتبة الصديقين، كما كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنه كان في الأمم قبلكم مُحَدَّثُون، فإن يكن في هذه الأمة فعمر بن الخطاب».

وسمعت شيخ الإسلام –تقي الدين بن تيمية رحمه الله يقول: «جزم بأنهم كائنون في الأمم قبلنا. وعلق وجودهم في هذه الأمة ب «إن» الشرطية. مع أنها أفضل الأمم؛ لاحتياج الأمم قبلنا إليهم، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبيها ورسالته صلى الله عليه وسلم. فلم يحوج الله – سبحانه وتعالى– الأمة بعده إلى مُحدِّث ولا مُلْهَم. ولا صاحب كشف ولا منام. فهذا التعليق لكمال الأمة واستغنائها لا لنقصها.

و«المحدَّث»: هو الذي يحدَّث في سره وقلبه بالشيء. فيكون كما يحدَّث به.

قال شيخنا: «والصديق أكمل من المحدَّث؛ لأنه استغنى بكمال صديقيته ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف؛ فإنه قد سَلَّم قلبه كله وسره وظاهره وباطنه للرسول صلى الله عليه وسلم، فاستغنى به عما منه.

قال: وكان هذا المحدَّث يعرض ما يحدَّث به على ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فإن وافقه قَبِلَه، وإلا ردَّه، فعُلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث.

فصل: (المرتبة الخامسة: مرتبة الإفهام)

قال الله تعالى: {وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين، ففهمناها سليمان، وكلا آتينا حكما وعلما} [الأنبياء: 78. 79] فذكر هذين النبيين الكريمين، وأثنى عليهما بالعلم والحكم، وخص سليمان – عليه السلام- بالفهم في هذه الواقعة المعينة.

وقال على بن أبي طالب رضي الله عنه وقد سُئل: «هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء دون الناس؟» -فقال: «لا. والذي فَلَق الحبة وبرأ النَّسَمة. إلا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه، وما في هذه الصحيفة- وكان فيها العقل -وهو الديات- وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر».

وفي كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: «والفهم الفهم فيما أُدلي إليك».

فالفهم نعمة من الله على عبده، ونور يقذفه الله في قلبه، يعرف به ويدرك مالا يدركه غيره ولا يعرفه، فيفهم من النص مالا يفهمه غيره، مع استوائهما في حفظه، وفهم أصل معناه.

فالفهم عن الله ورسوله صلى الله عليها وسلم عنوان الصديقية، ومنشور الولاية النبوية، وفيه تفاوتت مراتب العلماء، حتى عُدَّ ألفٌ بواحد. فانظر إلى فهم ابن عباس

رضي الله عنهما، وقد سأله عمر رضي الله عنه ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة {إذا جاء نصر الله والفتح} . وما خص به ابن عباس من فهمه منها «أنها نَعْيُ الله سبحانه نبيه إلى نفسه، وإعلامه بحضور أجله»، وموافقة عمر رضي الله عنه له على ذلك. وخفائه عن غيرهما من الصحابة، وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سنا. وأين تجد في هذه السورة الإعلام بأجله لولا الفهم الخاص؟

ويدِق هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس، فيحتاج مع النص إلى غيره، ولا يقع الاستغناء بالنصوص في حقه. وأما في حق صاحب الفهم، فلا يحتاج مع النصوص إلى غيرها.

فصل: (المرتبة السادسة: مرتبة البيان العام)

وهو تبيين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه، بحيث يصير مشهودا للقلب كشهود العين للمرئيات.

وهذه المرتبة هي حجة الله على خلقه التي لا يعذب أحدا ولا يضله إلا بعد وصوله إليها، قال الله تعالى: {وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون} [التوبة: 115]؛ فهذا الإضلال عقوبة منه لهم حين بيَّن لهم، فلم يقبلوا ما بيَّنه لهم، ولم يعملوا به؛ فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى. وما أضل الله سبحانه أحدا قط إلا بعد هذا البيان.

وإذا عرفت هذا عرفت سر القدَر، وزالت عنك شكوك كثيرة وشبهات في هذا الباب، وعلمت حكمة الله في إضلاله من يضله من عباده.

والقرآن يصرح بهذا في غير موضع، كقوله: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم} [الصف: 5]. {وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم} [النساء: 155]؛ فالأول كفر عناد، والثاني كفر طبع. وقوله: {ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون} [الأنعام:

110]؛ فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه وتحققوه. بأن قلَّب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له.

فتأمل هذا الموضع حق التأمل. فإنه موضع عظيم.

وقال تعالى: {وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى} [فصلت: 17]. فهذا هدى بعد البيان والدلالة. وهو شرط لا موجب. فإنه إن لم يقترن به هدى آخر بعده لم يحصل به كمال الاهتداء، وهو هدى التوفيق والإلهام.

وهذا البيان نوعان: بيان بالآيات المسموعة المتلوة، وبيان بالآيات المشهودة المرئية. وكلاهما أدلة وآيات على توحيد الله وأسمائه وصفاته وكماله وصدق ما أخبرت به رسله عنه؛ ولهذا يدعو عباده بآياته المتلوة إلى التفكير في آياته المشهودة، ويحضهم على التفكر في هذه وهذه. وهذا البيان هو الذي بعثت به الرسل، وجعل إليهم وإلى العلماء بعدهم. وبعد ذلك يضل الله من يشاء، قال الله تعالى: {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله

من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم} [إبراهيم: 4]؛ فالرسل تُبيِّن، والله هو الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء بعزته وحكمته.

فصل: (المرتبة السابعة: البيان الخاص)

وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء، وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب فلا تتخلف عنه الهداية البتة.

قال تعالى في هذه المرتبة: {إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل} [النحل: 37]. وقال: {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء} [القصص: 56]؛ فالبيان الأول شرط، وهذا موجب.

فصل: (المرتبة الثامنة: مرتبة الإسماع)

قال الله تعالى: {ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون} [الأنفال: 23]. وقد قال تعالى: {وما يستوي الأعمى والبصير، ولا الظلمات ولا

النور، ولا الظل ولا الحرور، وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء، وما أنت بمسمع من في القبور، إن أنت إلا نذير} [فاطر: 19. 23].

وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجة والتبليغ؛ فإن ذلك حاصل لهم. وبه قامت الحجة عليهم؛ لكن ذاك إسماع الآذان، وهذا إسماع القلوب.

فإن الكلام له لفظ ومعنى، وله نسبة إلى الآذان والقلب وتعلق بهما؛ فسماع لفظه حظ الأذن، وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب؛ فإنه سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود والمراد الذي هو حظ القلب، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذي هو حظ الأذن في قوله تعالى: {ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون، لاهية قلوبهم} [الأنبياء: 2. 3]، وهذا السماع لا يفيد السامع إلا قيام الحجة عليه، أو تمكنه منها. وأما مقصود السماع وثمرته والمطلوب منه فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته

وإعراضه؛ بل يخرج السامع قائلا للحاضر معه: {ماذا قال آنفا. أولئك الذين طبع الله على قلوبهم} [محمد: 16].

والفرق بين هذه المرتبة ومرتبة الإفهام أن هذه المرتبة إنما تحصل بواسطة الأذن. ومرتبة الإفهام أعم؛ فهي أخص من مرتبة الفهم من هذا الوجه. ومرتبة الفهم أخص من وجه آخر. وهي أنها تتعلق بالمعنى المراد ولوازمه ومتعلقاته وإشاراته.

ومرتبة السماع مدارها على إيصال المقصود بالخطاب إلى القلب. ويترتب على هذا السماع سماع القبول.

فهو إذن ثلاث مراتب: سماع الأذن. وسماع القلب. وسماع القبول والإجابة.

فصل: (المرتبة التاسعة: مرتبة الإلهام)

قال تعالى: {ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها} [الشمس: 7. 8]. وقال النبي صلى الله عليه وسلم لحصين

بن منذر الخزاعي رضي الله عنه لما أسلم: «قل: اللهم ألهمني رشدي. وقني شر نفسي».

وقد جعل صاحب «المنازل»: «الإلهام هو مقام المحدَّثين». قال: «وهو فوق مقام الفراسة؛ لأن الفراسة ربما وقعت نادرة. واستصعبت على صاحبها وقتا. أو استعصت عليه. والإلهام لا يكون إلا في مقام عتيد».

قلت: التحديث أخص من الإلهام. فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم فكل مؤمن فقد ألهمه الله رشده الذي حصل له به الإيمان.

فأما التحديث، فالنبي صلى الله عليه وسلم قال فيه: «إن يكن في هذه الأمة أحد فعمر». يعني من المحدَّثين؛ فالتحديث إلهام خاص، وهو الوحي إلى غير الأنبياء إما من المكلفين، كقوله تعالى: {وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه} [القصص: 7] وقوله: {وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي} [المائدة: 111]، وإما من غير

المكلفين. كقوله تعالى: {وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون} [النحل: 68].

فهذا كله وحي إلهام.

وأما جعله فوق مقام الفراسة. فقد احتج عليه بأن «الفراسة» ربما وقعت نادرة كما تقدم، والنادر لا حكم له. وربما استعصت على صاحبها واستصعبت عليه فلم تطاوعه، و«الإلهام» لا يكون إلا في مقام عتيد، يعني في مقام القرب والحضور.

والتحقيق في هذا: أن كل واحد من «الفراسة» و«الإلهام» ينقسم إلى عام وخاص. وخاصُّ كل واحد منهما فوق عامِّ الآخر. وعامُّ كل واحد قد يقع كثيرا. وخاصُّه قد يقع نادرا؛ ولكن الفرق الصحيح: أن «الفراسة» قد تتعلق بنوع كسب وتحصيل، وأما «الإلهام» فموهبة مجردة. لا تنال بكسب البتة.

فصل: [درجات الإلهام]

قال: «وهو على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: نبأ يقع وحيا قاطعا مقرونا بسماع؛ إذ مطلق النبأ: الخبرُ الذي له شأن؛ فليس كل خبر نبأ، وهو نبأ خبر عن غيب معظم.

ويريد بالوحي والإلهام: الإعلام الذي يقطع من وصل إليه بموجبه، إما بواسطة سمع، أو هو الإعلام بلا واسطة.

قلت: أما حصوله بواسطة سمع، فليس ذلك إلهاما؛ بل هو من قبيل الخطاب. وهذا يستحيل حصوله لغير الأنبياء، وهو الذي خُصَّ به موسى -عليه السلام- إذ كان المخاطِبُ هو الحق عز وجل.

فصل: [عود إلى بيان درجات الإلهام]

قال «الدرجة الثانية: إلهام يقع عيانا، وعلامة صحته: أنه لا يخرق سترا، ولا يجاوز حدا، ولا يخطئ أبدا».

الفرق بين هذا وبين الإلهام في الدرجة الأولى: أن ذلك علم شبيه بالضروري الذي لا يمكن دفعه عن القلب، وهذا معاينة ومكاشفة؛ فهو فوقه في الدرجة، وأتم منه ظهورا،

ونسبته إلى القلب نسبة المرئي إلى العين، وذَكَر له ثلاث علامات:

إحداها: «أنه لا يخرق سترا»: أي صاحبه إذا كوشف بحال غير المستور عنه لا يخرق ستره ويكشفه، خيرا كان أو شرا. أو أنه لا يخرق ما ستره الله من نفسه عن الناس. بل يستر نفسه، ويستر من كوشف بحاله.

الثانية: «أنه لا يجاوز حدا»: يحتمل وجهين:

أحدهما: أنه لا يتجاوز به إلى ارتكاب المعاصي وتجاوز حدود الله، مثل الكهان وأصحاب الكشف الشيطاني.

الثاني: أنه لا يقع على خلاف الحدود الشرعية، مثل أن يتجسس به على العورات التي نهى الله عن التجسس عليها وتتبعها؛ فإذا تتبعها وقع عليها بهذا الكشف، فهو شيطاني لا رحماني.

الثالثة: «أنه لا يخطئ أبدا». بخلاف الشيطاني؛ فإن خطأه كثير، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن صائد «ما

ترى؟» قال: أرى صادقا وكاذبا. فقال صلى الله عليه وسلم: «لُبِّس عليك». فالكشف الشيطاني لابد أن يكذب. ولا يستمر صدقه البتة.

فصل [الدرجة الثالثة: جلاء الحقيقة في عين الملهم]

قال «الدرجة الثالثة: إلهام يجلو عين التحقيق صرفا، وينطق عن عين الأزل محضا، والإلهام غاية تمتنع الإشارة إليها».

عين التحقيق عنده: هي الفناء في شهود الحقيقة. بحيث يضمحل كل ما سواها في ذلك الشهود، وتعود الرسوم أعداما محضة.

فالإلهام في هذه الدرجة يجلو هذا العين للملهم صرفا، بحيث لا يمازجها شيء من إدراك العقول ولا الحواس. فإن كان هناك إدراك عقلي أو حسي لم يتمحض جلاء عين الحقيقة. والناطق عن هذا الكشف عندهم: لا يفهم عنه إلا من هو معه ومشارك له. وعند أرباب هذا الكشف أن كل الخلق عنه في حجاب، وعندهم أن العلم والعقل والحال حجب

عليه، وأن خطاب الخلق إنما يكون على لسان الحجاب، وأنهم لا يفهمون لغة ما وراء الحجاب من المعنى المحجوب؛ فلذلك تمتنع الإشارة إليه والعبارة عنه؛ فإن الإشارة والعبارة إنما يتعلقان بالمحسوس والمعقول، وهذا أمر وراء الحس والعقل.

وحاصل هذا الإلهام: أنه إلهام ترتفع معه الوسائط وتضمحل وتعدم؛ لكن في الشهود لا في الوجود. وأما الاتحادية القائلون بوحدة الوجود: فإنهم يجعلون ذلك اضمحلالا وعدما في الوجود. ويجعلون صاحب «المنازل» منهم. وهو بريء منهم عقلا ودينا وحالا ومعرفة. والله أعلم.

فصل: (المرتبة العاشرة من مراتب الهداية: الرؤيا الصادقة)

وهي من أجزاء النبوة كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة».

وقد قيل في سبب هذا التخصيص المذكور: إن أول مبتدأ الوحي كان هو الرؤيا الصادقة، وذلك نصف سنة، ثم انتقل إلى وحي اليقظة مدة ثلاث وعشرين سنة، من حين بعث إلى أن توفي صلوات الله وسلامه عليه؛ فنسبة مدة الوحي في المنام من ذلك: جزء من ستة وأربعين جزءا، وهذا حسنٌ لولا ما جاء في الرواية الأخرى الصحيحة: «إنها جزء من سبعين جزءا».

وقد قيل في الجمع بينهما: إن ذلك بحسب حال الرائي؛ فإن رؤيا الصديقين من ستة وأربعين، ورؤيا عموم المؤمنين الصادقة من سبعين. والله أعلم.

والرؤيا: مبدأ الوحي، وصدقُها بحسب صدق الرائي. و«أصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثا. وهي عند اقتراب الزمان لا تكاد تخطئ». كما قال النبي صلى الله عليه وسلم؛ وذلك لبعد العهد بالنبوة وآثارها، فيتعوض المؤمنون بالرؤيا، وأما في زمن قوة نور النبوة: ففي ظهور نورها وقوته ما يغني عن الرؤيا.

ونظير هذا: «الكرامات» التي ظهرت بعد عصر الصحابة، ولم تظهر عليهم؛ لاستغنائهم عنها بقوة إيمانهم، واحتياج من بعدهم إليها لضعف إيمانهم. وقد نص أحمد على هذا المعنى. وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في المنام». وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات». قيل: وما المبشرات. يا رسول الله؟ قال: «الرؤيا الصالحة. يراها المؤمن أو ترى له».

وإذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه لما أروا ليلة القدر في العشر الأواخر قال: «أرى رؤياكم قد تواطأت في العشر الأواخر. فمن كان منكم مُتَحَرِّيهَا فليتحرها في العشر الأواخر من رمضان».

والرؤيا كالكشف: منها رحماني. ومنها نفساني. ومنها شيطاني.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه في اليقظة فيراه في المنام».

والذي هو من أسباب الهداية: هو الرؤيا التي مِنَ الله خاصة.

ورؤيا الأنبياء وحي: فإنها معصومة من الشيطان، وهذا باتفاق الأمة؛ ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام بالرؤيا.

وأما رؤيا غيرهم فتعرض على الوحي الصريح، فإن وافقته وإلا لم يعمل بها.

فإن قيل: فما تقولون إذا كانت رؤيا صادقة. أو تواطأت؟.

قلنا: متى كانت كذلك استحال مخالفتها للوحي؛ بل لا تكون إلا مطابقة له، منبهة عليه، أو منبهة على اندراج قضية خاصة في حكمه، لم يعرف الرائي اندراجها فيه، فيتنبه بالرؤيا على ذلك.

[من تحرى الصدق في الحديث والحلال في الطعام صدقت رؤياه]

ومن أراد أن تصدق رؤياه: فليتحر الصدق، وأكل الحلال، والمحافظة على الأمر والنهي، ولْيَنَم على طهارة كاملة مستقبل القبلة، ويذكر الله حتى تغلبه عيناه؛ فإن رؤياه لا تكاد تكذب البتة.

وأصدق الرؤيا: رؤيا الأسحار، فإنه وقت النزول الإلهي، واقتراب الرحمة والمغفرة، وسكون الشياطين. وعكسه رؤيا العَتَمة، عند انتشار الشياطين والأرواح الشيطانية. وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في المنام».

وللرؤيا مَلَك موكل بها، يريها العبد في أمثال تناسبه وتشاكله، فيضربها لكل أحد بحسبه.

وقال مالك – رحمه الله تعالى–: «الرؤيا من الوحي وحي»، وزَجَر عن تفسيرها بلا علم؛ وقال: «أتتلاعب بوحي الله؟».

ولذكر الرؤيا وأحكامها وتفاصيلها وطرق تأويلها مظان مخصوصة بها، يخرجنا ذكرها عن المقصود، والله أعلم.

فصل: (في بيان اشتمال الفاتحة على الشفاءين: للقلوب والأبدان)

فأما اشتمالها على شفاء القلوب، فإنها اشتملت عليه أتم اشتمال؛ فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين: «فساد العلم» و«فساد القصد».

ويترتب عليهما داءان قاتلان، وهما الضلال والغضب؛ فالضلال نتيجة فساد العلم، والغضب نتيجة فساد القصد؛ وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها.

فهداية الصراط المستقيم تتضمن الشفاء من مرض «الضلال»، ولذلك كان سؤال هذه الهداية أفرض دعاء

على كل عبد، وأوجبه عليه كل يوم وليلة في كل صلاة، لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة، ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه.

والتحقيق ب (إياك نعبد وإياك نستعين) علما ومعرفة، وعملا وحالا: يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد، فإن «فساد القصد» يتعلق بالغايات والوسائل، فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كِلَا نوْعَيْ قصده فاسدا.

وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبه غير الله وعبوديته من المشركين ومتبعي الشهوات، الذين لا غاية لهم وراءها، وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم بأي طريق كان من حق أو باطل؛ فإذا جاء الحق معارضا في طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل، فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق، وحادوا عنه إلى طريق أخرى، وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان، فإذا لم يجدوا منه بدا أعطوه السكة

والخطبة وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ، وإن جاء الحق ناصرا لهم وكان لهم صالوا به وجالوا، وأتوا إليه مذعنين؛ لا لأنه حق، بل لموافقته غرضهم وأهواءهم، وانتصارهم به {وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون، وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين، أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله، بل أولئك هم الظالمون} [النور: 48، 50].

والمقصود: أن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم، وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها، واضمحلت وفنيت، حصلوا على أعظم الخسران والحسرات، وهم أعظم الناس ندامة وتحسرا، إذا حَقَّ الحق وبطل الباطل، وتقطعت بهم أسباب الوصل التي كانت بينهم، وتيقنوا انقطاعهم عن رَكْب الفلاح والسعادة، وهذا يظهر كثيرا في الدنيا، ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله، ويشتد ظهوره وتحققه في البرزخ، وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء، إذا حقت الحقائق، وفاز المحقون وخسر المبطلون،

وعلموا أنهم كانوا كاذبين، وكانوا مخدوعين مغرورين، فياله هناك من علم لا ينفع عالمه، ويقين لا ينجي مستيقنه.

وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأسمى، ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة له وإليه، بل توسل إليه بوسيلة ظنها موصلة إليه، وهي من أعظم القواطع عنه، فحاله أيضا كحال هذا، وكلاهما فاسد القصد، ولا شفاء من هذا المرض إلا بدواء «إياك نعبد وإياك نستعين».

[أركان علاج القلب]

فإن هذا الدواء مركب من ستة أجزاء:

عبودية الله، لا غيره، بأمره وشرعه، لا بالهوى ولا بآراء الرجال وأوضاعهم ورسومهم وأفكارهم، بالاستعانة على عبوديته به، لا بنفس العبد وقوته وحوله ولا بغيره.

فهذه هي أجزاء {إياك نعبد وإياك نستعين} فإذا ركبها الطبيب اللطيف، العالم بالمرض، واستعملها المريض، حصل

بها الشفاء التام، وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها، أو اثنين أو أكثر.

[الرياء والكبر من أشد أمراض القلب]

ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولابد، وهما «الرياء»، و«الكبر»، فدواء الرياء ب {إياك نعبد} ودواء الكبر ب {إياك نستعين}.

وكثيرا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية –قدس الله روحه – يقول: {إياك نعبد} تدفع الرياء، و {إياك نستعين} تدفع الكبرياء.

فإذا عوفي من مرض الرياء ب {إياك نعبد}، ومن مرض الكبرياء والعجب ب {إياك نستعين}، ومن مرض الضلال والجهل ب {اهدنا الصراط المستقيم} عوفي من أمراضه وأسقامه، ورفَل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة، وكان من المنعم عليهم {غير المغضوب عليهم} وهم «أهل فساد

القصد»، الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه، {والضالين} وهم «أهل فساد العلم»، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.

وحُقَّ لسورة تشتمل على هذين الشفاءين: أن يُسْتَشْفَى بها من كل مرض، ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفاءين، كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى، كما سنبينه، فلا شيء أشفى للقلوب التي عقلت عن الله وكلامه، وفهمت عنه فهما خاصا اختصها به، من معاني هذه السورة.

فصل [في الفاتحة شفاء للأبدان]

وأما تضمنها لشفاء الأبدان: فنذكر منه ما جاءت به السنة، وما شهدت به قواعد الطب، ودلت عليه التجربة.

فأما ما دلت عليه السنة: ففي «الصحيح» من حديث أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن ناسا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مروا بحيٍّ من العرب، فلم يقروهم، ولم يُضَيِّفُوهم، فُلدغ سيد الحي،

فأتوهم، فقالوا: هل عندكم من رُقية- أو هل فيكم من راق -؟ فقالوا: نعم، ولكنكم لم تقرونا، فلا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلا، فجعلوا لهم على ذلك قطيعا من الغنم، فجعل رجل منا يقرأ عليه بفاتحة الكتاب، فقام كأن لم يكن به قَلَبَة، فقلنا: لا تعجلوا حتى نأتي النبي صلى الله عليه وسلم فأتيناه، فذكرنا له ذلك، فقال: «ما يدريك أنها رقية؟ كلوا، واضربوا لي معكم بسهم».

فقد تضمن هذا الحديث: حصول شفاء هذا اللديغ بقراءة الفاتحة عليه، فأغنته عن الدواء، وربما بلغت من شفائه ما لم يبلغه الدواء.

هذا مع كون المحل غير قابل -إما لكون هؤلاء الحي غير مسلمين، أو أهل بخل ولؤم- فكيف إذا كان المحل قابلا.

فصل [تشابه نفوس بعض الناس بنفوس العقارب والحيات]

وأما شهادة قواعد الطب بذلك: فاعلم أن اللدغة تكون من ذوات الحُمات والسموم، وهي ذوات الأنفس الخبيثة

التي تتكيف بكيفية غضبية، تثير فيها سُمية نارية، يحصل بها اللدغ، وهي متفاوتة بحسب تفاوت خبث تلك النفوس وقوتها وكيفيتها. فإذا تكيَّفت أنفسها الخبيثة بتلك الكيفية الغضبية أحدث لها ذلك طبيعة سمية، تجد راحة ولذة في إلقائها إلى المحل القابل، كما يجد الشرير من الناس راحة ولذة في إيصال شره إلى من يوصله إليه.

وكثير من الناس لا يهنأ له عيش في يوم لا يؤذي فيه أحدا من بني جنسه، ويجد في نفسه تأذيا بحمل تلك السمية والشر الذي فيه، حتى يفرغه في غيره، فيبرد عند ذلك أنينه، وتسكن نفسه، ويصيبه في ذلك نظير ما يصيب من اشتدت شهوته إلى الجماع، فيسوء خلقه، وتثقل نفسه حتى يقضي وطره، هذا في قوة الشهوة، وذاك في قوة الغضب.

وقد أقام الله تعالى بحكمته السلطان وازعا لهذه النفوس الغضبية، فلولا هو لفسدت الأرض وخرجت {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين} [البقرة: 251] وأباح الله -بلطفه

ورحمته- لهذه النفوس من الأزواج وملك اليمين ما يكسر حدتها.

والمقصود أن هذه النفوس الغضبية إذا اتصلت بالمحل القابل أثرت فيه، ومنها ما يؤثر في المحل بمجرد مقابلته له، وإن لم يمسه، فمنها ما يطمس البصر، ويسقط الحبل.

[من ذلك: نفسية الحاسد وتأثيرها في جسد المحسود]

ومن هذا نظر العائن؛ فإنه إذا وقع بصره على المعيَّن حدثت في نفسه كيفية سمية أثرت في المعيَّن بحسب عدم استعداده، وكونه أعزل من السلاح، وبحسب قوة تلك النفس.

وكثير من هذه النفوس يؤثر في المعيَّن إذا وُصف له، فتتكيف نفسه وتقابله على البعد فيتأثر به، ومنكر هذا ليس معدودا من بني آدم إلا بالصورة والشكل.

فإذا قابلت النفس الزكية العلوية الشريفة التي فيها غضب وحمية للحق هذه النفوس الخبيثة السُّمِّية، وتكيفت بحقائق الفاتحة وأسرارها ومعانيها، وما تضمنته من التوحيد والتوكل،

والثناء على الله، وذكر أصول أسمائه الحسنى، وذكر اسمه الذي ما ذكر على شر إلا أزاله ومَحَقَه، ولا على خير إلا نماه وزاده، دفعت هذه النفس -بما تكيفت به من ذلك- أثرَ تلك النفس الخبيثة الشيطانية، فحصل البرء؛ فإن مبنى الشفاء والبرء على دفع الضد بضده، وحفظ الشيء بمثله؛ فالصحة تحفظ بالمثل، والمرض يدفع بالضد، أسباب ربطها بمسبباتها الحكيم العليم خَلقا وأمرا، ولا يتم هذا إلا بقوة من النفس الفاعلة وقبول من الطبيعة المنفعلة. فلو لم تنفعل نفس الملدوغ لقبول الرقية، ولم تقو نفس الراقي على التأثير، لم يحصل البرء.

فهنا أمور ثلاثة: موافقة الدواء للداء، وبذل الطبيب له، وقبول طبيعة العليل.

فمتى تخلف واحد منها لم يحصل الشفاء، وإذا اجتمعت حصل الشفاء ولا بد بإذن الله سبحانه وتعالى.

ومن عرف هذا كما ينبغي تبين له أسرار الرُّقَى، وميز بين النافع منها وغيره، ورقى الداء بما يناسبه من الرُّقَى، وتبين له أن الرقية براقيها وقبول المحل، كما أن السيف بضاربه مع قبول المحل للقطع، وهذه إشارة مطلعة على ما وراءها لمن دق نظره، وحسن تأمله، والله أعلم.

[شواهد الواقع والتجارب على تأثير الفاتحة وعلاجها]

وأما شهادة التجارب بذلك: فهي أكثر من أن تذكر، وذلك في كل زمان.

وقد جربت أنا من ذلك في نفسي وفي غيري أمورا عجيبة، ولاسيما مدة المقام بمكة، فإنه كان يعرض لي آلام مزعجة، بحيث تكاد تقطع الحركة مني- وذلك في أثناء الطواف وغيره -فأبادر إلى قراءة الفاتحة، وأمسح بها على محل الألم فكأنه حصاة تسقط، جربت ذلك مرارا عديدة، وكنت آخذ قدحا من ماء زمزم فأقرأ عليه الفاتحة مرارا، فأشربه فأجد به من النفع والقوة ما لم أعهد مثله في الدواء، والأمر

أعظم من ذلك؛ ولكن بحسب قوة الإيمان، وصحة اليقين، والله المستعان.

[بيان اشتمال الفاتحة على معرفة طرق الضلال على الإجمال]

أما المجمل: فهو أن «الصراط المستقيم» متضمن معرفة الحق، وإيثاره، وتقديمه على غيره، ومحبته والانقياد له، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه بحسب الإمكان.

والحق هو ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وما جاء به علما وعملا في باب صفات الرب سبحانه، وأسمائه وتوحيده، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وفي حقائق الإيمان، التي هي «منازل السائرين إلى الله تعالى»، وكل ذلك مسلَّم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، دون آراء الرجال وأوضاعهم وأفكارهم واصطلاحاتهم.

فكل علم أو عمل أو حقيقة، أو حال أو مقام خرج من مشكاة نبوته، وعليه السكة المحمدية، بحيث يكون من ضرب المدينة، فهو من «الصراط المستقيم»، وما لم يكن كذلك فهو من صراط أهل الغضب والضلال، فما ثَمَّ خروج عن هذه الطرق الثلاث:

(طريق الرسول) صلى الله عليه وسلم وما جاء به.

و (طريق أهل الغضب)، وهي طريق من عرف الحق وعانده.

و (طريق أهل الضلال): وهي طريق من أضله الله عنه.

ولهذا قال عبد الله ابن عباس وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم: «الصراط المستقيم: هو الإسلام»، وقال عبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما: «هو القرآن»، وفيه حديث مرفوع في الترمذي وغيره، وقال سهل بن عبد الله: «طريق السنة والجماعة»، وقال بكر بن عبد الله المزني: «طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم».

ولا ريب أن ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه علما وعملا- وهو معرفة الحق وتقديمه، وإيثاره على غيره -فهو الصراط المستقيم. وكل هذه الأقوال المتقدمة دالة عليه جامعة له. فبهذا الطريق المجمل يعلم أن كل ما خالفه فباطل، وهو من صراط الأمتين: الأمة الغضبية، وأمة أهل الضلال.

فصل [بيان اشتمال الفاتحة على معرفة طرق الضلال تفصيلا]

وأما المفصل: فبمعرفة المذاهب الباطلة، واشتمال كلمات الفاتحة على إبطالها، فنقول: الناس قسمان: مقر بالحق تعالى، وجاحد له.

فتضمنت الفاتحة: إثبات الخالق تعالى، والرد على من جحده، بإثبات ربوبيته تعالى للعالمين.

وتأمل حال العالم كله، علويه وسفليه، بجميع أجزائه: تجده شاهدا بإثبات صانعه وفاطره ومليكه، فإنكار صانعه

وجحده في العقول والفطر بمنزلة إنكار العلم وجحده، لا فرق بينهما، بل دلالة الخالق، على المخلوق والفعال على الفعل، والصانع على أحوال المصنوع عند العقول الزكية المشرقة العلوية، والفطر الصحيحة أظهرُ من العكس.

[طرق الاستدلال على الله وبالله]

فالعارفون أرباب البصائر يستدلون بالله على أفعاله وصنعه، إذا استدل الناس بصنعه وأفعاله عليه، ولا ريب أنهما طريقان صحيحان- كل منهما حق -والقرآن مشتمل عليهما.

فأما الاستدلال بالصنعة فكثير، وأما الاستدلال بالصانع فله شأن، وهو الذي أشارت إليه الرسل بقولهم لأممهم {أفي الله شك} [إبراهيم: 10] أي: أيشك في الله حتى يطلب إقامة الدليل على وجوده؟ وأي دليل أصح وأظهر من هذا المدلول؟ فكيف يستدل على الأظهر بالأخفى؟ ثم نبهوا على الدليل بقولهم: {فاطر السماوات والأرض}.

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية- قدس الله روحه – يقول: «كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء؟»، وكان كثيرا – رحمه الله تعالى –ما يتمثل بهذا البيت:

وليس يصح في الأذهان شيء...

...

...

إذا احتاج النهار إلى دليل

ومعلوم أن وجود الرب تعالى أظهر للعقول والِفطَر من وجود النهار، ومن لم ير ذلك في عقله وفطرته فليتهمها.

فصل: [مدار العبودية والتوحيد على: إياك نعبد وإياك نستعين]

وسر الخلق والأمر والكتب والشرائع والثواب والعقاب انتهى إلى هاتين الكلمتين، وعليهما مدار العبودية والتوحيد، حتى

قيل: أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب، جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن، وجمع معاني القرآن في المفصل، وجمع معاني المفصل في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في {إياك نعبد وإياك نستعين}.

وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين، فنصفهما له تعالى وهو: {إياك نعبد}، ونصفهما لعبده؛ وهو: {إياك نستعين}. وسيأتي سر هذا ومعناه إن شاء الله في موضعه.

[معنى العبودية]

والعبادة تجمع أصلين: غاية الحب، بغاية الذل والخضوع. والعرب تقول: «طريق معبد» أي مذلل، والتعبد التذلل والخضوع.

فمن أحببته ولم تكن خاضعا له، لم تكن عابدا له، ومن خضعت له بلا محبة، لم تكن عابدا له حتى تكون محبا خاضعا.

ومن هاهنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية، والمنكرون لكونه محبوبا لهم بل هو غاية مطلوبهم، ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم، منكرين لكونه إلها، وإن أقروا بكونه ربا للعالمين وخالقا لهم؛ فهذا غاية توحيدهم- وهو توحيد الربوبية -الذي اعترف به مشركو العرب، ولم يخرجوا به عن الشرك، كما قال تعالى: {ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله} [الزخرف: 87]، وقال تعالى: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله} [الزمر: 38]، وقال: {قل لمن الأرض ومن فيها... إلى قوله- سيقولون لله قل فأنى تسحرون} [المؤمنون: 84- 89]، ولهذا يحتج عليهم به على توحيد إلهيته، وأنه لا ينبغي أن يعبد غيره، كما أنه لا خالق غيره، ولا رب سواه.

[معنى الاستعانة]

والاستعانة تجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد عليه.

فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره -مع ثقته به- لاستغنائه عنه، وقد يعتمد عليه -مع عدم ثقته به- لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلى اعتماده عليه، مع أنه غير واثق به.

[معنى التوكل ومواضعه في القرآن]

و«التوكل» معنى يلتئم من أصلين: من الثقة والاعتماد.

وهو حقيقة {إياك نعبد وإياك نستعين} وهذان الأصلان -وهما التوكل والعبادة- قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع قرن بينهما فيها، هذا أحدها.

الثاني: قول شعيب: {وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب} [هود: 88]. الثالث: قوله تعالى: {ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه} [هود: 123]. الرابع: قوله تعالى حكاية عن المؤمنين: {ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير} [الممتحنة: 4]. الخامس: قوله تعالى: {واذكر اسم ربك

وتبتل إليه تبتيلا، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا} [المزمل: 8، 9]. السادس: قوله تعالى: {قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب} [الرعد: 30].

فهذه ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين، وهما: {إياك نعبد وإياك نستعين}.

[أسرار تقديم العبادة على الاستعانة]

وتقديم «العبادة» على «الاستعانة» في الفاتحة: من باب تقديم الغايات على الوسائل؛ إذ «العبادة» غاية العباد التي خلقوا لها، والاستعانة وسيلة إليها.

ولأن {إياك نعبد} متعلق بألوهيته واسمه «الله»، و {إياك نستعين} متعلق بربوبيته واسمه «الرب»، فقدم {إياك نعبد} على {إياك نستعين} كما قدم اسم «الله» على «الرب» في أول السورة.

ولأن {إياك نعبد} قسم الرب، فكان من الشطر الأول، الذي هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به، و {إياك

نستعين} قسم العبد، فكان من الشطر الذي «له»، وهو {اهدنا الصراط المستقيم} إلى آخر السورة.

ولأن «العبادة المطلقة»: تتضمن «الاستعانة» من غير عكس.

فكل عابد لله عبودية تامة: مستعين به ولا ينعكس؛ لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته، فكانت العبادة أكمل وأتم، ولهذا كانت «قسم الرب».

ولأن «الاستعانة» جزء من «العبادة» من غير عكس.

ولأن «الاستعانة» طلب منه، و«العبادة» طلب له.

ولأن «العبادة» لا تكون إلا من مخلص، و«الاستعانة» تكون من مخلص ومن غير مخلص.

ولأن «العبادة» حقه الذي أوجبه عليك، و«الاستعانة» طلب العون على العبادة، وهو بيان صَدَقته التي تصدَّق بها عليك، وأداء حقه أهم من التعرض لصدقته.

ولأن «العبادة» شكر نعمته عليك، والله يحب أن يشكر، و«الإعانة» فعله بك وتوفيقه لك، فإذا التزمت عبوديته، ودخلت تحت رِقّها أعانك عليها، فكان التزامها والدخول تحت رقها سببا لنيل الإعانة، وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم.

و«العبودية» محفوفة بإعانتين: إعانة قبلها على التزامها والقيام بها، وإعانة بعدها على عبودية أخرى، وهكذا أبدا، حتى يقضي العبد نَحْبه.

ولأن ﴿إياك نعبد﴾ له، و ﴿إياك نستعين﴾ به، وما «له» مقدم على ما «به»؛ لأن ما «له» متعلق بمحبته ورضاه، وما «به» متعلق بمشيئته.

وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته، فإن الكون كله متعلق بمشيئته، والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار، والطاعات والمعاصي. والمتعلق بمحبته: طاعاتُهم وإيمانُهم، فالكفار أهل مشيئته، والمؤمنون أهل محبته، ولهذا

لا يستقر في النار شيء لله أبدا، وكل ما فيها فإنه به تعالى وبمشيئته.

فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم {إياك نعبد} على {إياك نستعين}.

وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين، ففيه أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم، وفيه الاهتمام وشدة العناية به، وفيه الإيذان بالاختصاص المسمى بالحصْر، فهو في قوة لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك، والحاكم في ذلك ذوق العربية والفقه فيها، واستقراء موارد استعمال ذلك مقدما، وسيبويه نص على الاهتمام، ولم ينف غيره.

ولأنه يقبح من القائل أن يعتق عشرة أعبد مثلا، ثم يقول لأحدهم: إياك أعتقت، ومن سمعه أنكر ذلك عليه، وقال: وغيره أيضا أعتقت، ولولا فهم الاختصاص لما قبح هذا الكلام، ولا حسن إنكاره.

وتأمل قوله تعالى: {وإياي فارهبون} [البقرة: 40]، {وإياي فاتقون} [البقرة: 41] كيف تجده في قوة: لا ترهبوا غيري، لا تتقوا سواي؟

وكذلك {إياك نعبد وإياك نستعين} هو في قوة: لا نعبد غيرك، ولا نستعين بسواك، وكل ذي ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من علة السياق.

ولا عبرة بجدل من قلَّ فهمه، وفتح عليه باب الشك والتشكيك، فهؤلاء هم آفة العلوم، وبلية الأذهان والفهوم.

مع أن في ضمير «إياك» من الإشارة إلى نفس الذات والحقيقة ما ليس في الضمير المتصل، ففي: «إياك قصدت وأحببت»: من الدلالة على معنى: حقيقتك وذاتك قصدي، ما ليس في قولك: قصدتك وأحببتك، و«إياك أعني»، فيه معنى: نفسك وذاتك وحقيقتك أعني.

ومن هاهنا قال من قال من النحاة: إن «إيّا» اسم ظاهر مضاف إلى الضمير المتصل، ولم يردَّ عليه بردٍّ شاف.

ولولا أنَّا في شأن وراء هذا لأشبعنا الكلام في هذه المسألة، وذكرنا مذاهب النحاة فيها، ونصرنا الراجح، ولعلنا أن نعطف على ذلك بعون الله.

وفي إعادة «إياك» مرة أخرى دلالة على تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين.

ففي إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ما ليس في حذفه، فإذا قلت لمِلك مثلا: إياك أحب وإياك أخاف، كان فيه من اختصاص الحب والخوف بذاته، والاهتمام بذكره ما ليس في قولك: إياك أحب وأخاف.

فصل: [أقسام الناس في العبادة والاستعانة]

إذا عرفت هذا؛ فالناس في هذين الأصلين -وهما العبادة والاستعانة- أربعة أقسام: أجلها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها.

فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها، ويوفقهم للقيام بها، ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الرب

تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته، وهو الذي عَلَّمه النبيُّ صلى الله عليه وسلم لِحِبِّه معاذ بن جبل رضي الله عنه، فقال صلى الله عليه وسلم: «يا معاذ، والله إني لأحبك، فلا تنس أن تقول دُبُر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»؛ فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته، وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب، وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه، فتأملها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية –قدس الله روحه –: «تأملت أنفع الدعاء: فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في {إياك نعبد وإياك نستعين}.

ومقابل هؤلاء: القسم الثاني: وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادة ولا استعانة؛ بل إن سأله أحدهم واستعان به، فعلى حظوظه وشهواته، لا على مرضاة ربه وحقوقه؛ فإنه سبحانه يسأله من في السماوات والأرض، يسأله أولياؤه وأعداؤه، ويمُدُّ هؤلاء وهؤلاء.

وأبغض خلقه: عدوه إبليس، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها، ومتعه بها، ولكن لما لم تكن عونا له على مرضاته، كانت زيادة له في شقوته وبعده عن الله وطرده عنه، وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه، ولم يكن عونا على طاعته، كان مبعدا له عن مرضاته، قاطعا له عنه ولابد.

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه، وسقوطه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له، فيمنعه حماية وصيانة وحفظا، لا بخلا، وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته، ويعامله بلطفه، فيظن – بجهله- أن الله لا يحبه ولا يكرمه، ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنه بربه، وهذا حشو قلبه ولا يشعر به، والمعصوم من عصمه الله، والإنسان على نفسه بصيرة،

وعلامة هذا: حمله على الأقدار، وعتابه الباطن لها، كما قيل:

وعاجز الرأي مضياع لفرصته ...

... حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه، وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، ولكن ما حيلتي، والأمر ليس إلي؟ والعاقل خصم نفسه، والجاهل خصم أقدار ربه.

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئا معينا خيرته وعاقبته مغيبة عنك، وإذا لم تجد من سؤاله بدا، فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة، وقدِّم بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة؛ بل استخارة من لا علم له بمصالحه، ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها، ولا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا، بل إن وُكِل إلى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره.

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال: تسأله أن يجعله عونا لك على طاعته وبلاغا إلى مرضاته، ولا يجعله قاطعا لك عنه، ولا مبعدا عن مرضاته.

ولا تظن أن عطاءه كلَّ ما أعطى لكرامة عبده عليه، ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه، ولكن عطاؤه ومنعه ابتلاء وامتحان، يمتحن بهما عباده، قال الله تعالى: {فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن، كلا} [الفجر: 15، 17] أي ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته عليّ، ولكنه ابتلاء مني، وامتحان له: أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه، وأخَوِّل فيه غيره؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه، وجعلته بقدر لا يفضل عنه، فذلك من هوانه عليّ، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له: أيصبر، فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سَعة الرزق، أم يتسخط، فيكون حظه السخط.

فرد الله سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام، وأن الفقر إهانة، فقال: لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته علي، ولم أبتله بالفقر لهوانه علي، فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره، فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته، ويُقَتِّر على المؤمن لا لإهانته؛ إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته، فله الحمد على هذا، وعلى هذا، وهو الغني الحميد.

فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى {إياك نعبد وإياك نستعين}.

القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة، وهؤلاء نوعان:

أحدهما: (القدرية)، القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل، فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها، وتعريف

الطريق، وإرسال الرسل، وتمكينه من الفعل، فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها، بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة، فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء، ولكن أولياءه اختاروا لنفوسهم الإيمان، وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر، من غير أن يكون الله سبحانه وفق هؤلاء بتوفيق زائد، أوجب لهم الإيمان، وخذل هؤلاء بأمر آخر، أوجب لهم الكفر، فهؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة، لا استعانة معه، فهم موكولون إلى أنفسهم، مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده.

النوع الثاني: من لهم عبادات وأوراد، ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر، وتلاشيها في ضمنه، وقيامها به، وأنها بدون القدر كالموات الذي لا تأثير له، بل كالعدم الذي لا وجود له، وأن القدر كالروح المحرك لها، والمعول على المحرك الأول.

فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك، ومن السبب إلى المسبب، ومن الآلة إلى الفاعل، فضعفت عزائمهم وقصرت هممهم، فقل نصيبهم من {إياك نستعين} ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف.

فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير، بحسب استعانتهم وتوكلهم، ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم، ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه -وكان مأمورا بإزالته – لأزاله.

فإن قلت: فما معنى التوكل والاستعانة؟.

قلت: هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله، والإيمان بتفرده بالخلق، والتدبير والضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس، فيوجب له هذا اعتمادا عليه وتفويضا إليه

وطمأنينة به وثقة به ويقينا بكفايته لما توكل عليه فيه، وأنه مَلِيٌّ به، ولا يكون إلا بمشيئته، شاءه الناس أم أبوه.

فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينوبه من رغبة ورهبة هما مَلِيَّان بهما، فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه، وحبس هَمِّه على إنزال ما ينوبه بهما، فهذه حال المتوكل، ومن كان هكذا مع الله، فالله كافيه ولا بد، قال الله تعالى: {ومن يتوكل على الله فهو حسبه} [الطلاق: 3] أي كافيه، و«الحسب» الكافي، فإن كان- مع هذا - من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة، وإن لم يكن من أهل التقوى فهو:

القسم الرابع: وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضر، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولم يَدُر مع ما يحبه ويرضاه، فتوكل عليه، واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه وطلبها منه وأنزلها به، فقضيت له وأسعف بها، سواء كانت أموالا أو رياسة أو جاها عند الخلق، أو أحوالا من كشف وتأثير وقوة وتمكين، ولكن لا عاقبة له، فإنها من جنس

الملك الظاهر والأموال، لا تستلزم الإسلام، فضلا عن الولاية والقرب من الله.

فإن الملك والجاه والمال والحال معطاة للبر والفاجر والمؤمن والكافر، فمن استدل بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه، وأنه من أوليائه المقربين، فهو من أجهل الجاهلين، وأبعدهم عن معرفة الله ومعرفة دينه، والتمييز بين ما يحبه ويرضاه، ويكرهه ويسخطه، فالحال من الدنيا، فهو كالملك والمال، إن أعان صاحبه على طاعة الله ومرضاته، وتنفيذ أوامره: ألحقه بالملوك العادلين البررة، وإلا فهو وبال على صاحبه، ومُبْعِدٌ له عن الله، ومُلْحِقٌ له بالملوك الظلمة والأغنياء الفجرة.

فصل: [لا تصح العبادة إلا بالإخلاص والمتابعة]

إذا عرف هذا: فلا يكون العبد متحققا ب {إياك نعبد} إلا بأصلين عظيمين:

أحدهما: متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم. والثاني: الإخلاص للمعبود، فهذا تحقيق «إياك نعبد».

والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضا إلى أربعة أقسام:

أحدها: أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة، وهم أهل «إياك نعبد» حقيقة، فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله، فمعاملتهم ظاهرا وباطنا لوجه الله وحده، لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكورا، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة، والمنزلة في قلوبهم، ولا هربا من ذمهم، بل قد عَدُّوا الناس بمنزلة أصحاب القبور، لا يملكون لهم ضرًا ولا نفعًا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فالعمل لأجل الناس، وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجائهم للضر والنفع منهم لا يكون من عارف بهم البتة، بل من جاهل بشأنهم، وجاهل بربه.

فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم، ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله، وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه، ولا يعامل أحدٌ الخلقَ دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم.

وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله مِنْ عامِلٍ سواه، وهو الذي بَلاَ عباده بالموت والحياة لأجله، قال الله تعالى: {الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا} [الملك: 2] وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملا.

قال الفضيل بن عياض: العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل، حتى يكون خالصا صوابا، و«الخالص» ما كان لله، و«الصواب» ما كان على السنة. وهذا هو المذكور في قوله تعالى: {فمن كان يرجو لقاء ربه

فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا} [الكهف: 110]، وفي قوله: {ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن} [النساء: 125]، فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه، على متابعة أمره، وما عدا ذلك فهو مردود على عامله، يُرَد عليه- أحوج ما هو إليه -هباء منثورا، وفي «الصحيح» من حديث عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم: «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد»، وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعدا، فإن الله تعالى إنما يعبد بأمره لا بالآراء والأهواء.

الضرب الثاني: من لا إخلاص له ولا متابعة؛ فليس عمله موافقا لشرع، وليس هو خالصا للمعبود، كأعمال المتزينين للناس، المرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء شرار الخلق، وأمقتهم إلى الله عز وجل، ولهم أوفر نصيب من قوله: {لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم} [آل عمران: 188]... وهذا

الضرب يكثر فيمن انحرف- من المنتسبين إلى العلم والفقر والعبادة -عن الصراط المستقيم، فإنهم يرتكبون البدع والضلالات، والرياء والسمعة ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه من الاتباع والإخلاص والعلم، فهم أهل الغضب والضلال.

الضرب الثالث: من هو مخلص في أعماله، لكنها على غير متابعة الأمر:

كجهال العبَّاد، والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر، وكل من عبد الله بغير أمره واعتقد عبادته هذه قربة إلى الله فهذا حاله، كمن يظن أن سماع المكاء والتصدية قربة، وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة، وأمثال ذلك.

الضرب الرابع: من أعماله على متابعة الأمر، لكنها لغير الله: كطاعة المرائين، وكالرجل يقاتل رياء وحَمِيَّة وشجاعة، ويحج ليقال، ويقرأ القرآن ليقال، فهؤلاء أعمالهم ظاهرها

أعمال صالحة مأمور بها، لكنها غير صالحة، فلا تقبل {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين} [البينة: 5] فكل أحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمر، والإخلاص له في العبادة، وهم أهل {إياك نعبد وإياك نستعين}.

فصل [أنواع العبادة وأصناف الناس فيها]

ثم أهل مقام «إياك نعبد» لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربع طرق، فهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها: أشقها على النفوس وأصعبها.

قالوا: لأنه أبعد الأشياء عن هواها، وهو حقيقة التعبد.

قالوا: والأجر على قدر المشقة، ورووا حديثا لا أصل له: «أفضل الأعمال أحمزها» أي أصعبها وأشقها، وهؤلاء: هم أهل المجاهدات والجور على النفوس.

قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك، إذ طبعها الكسل والمهانة، والإخلاد إلى الأرض، فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

الصنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات التجرد والزهد في الدنيا، والتقلل منها غاية الإمكان، واطّراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها.

ثم هؤلاء قسمان:

فعوامهم ظنوا أن هذا غاية، فشمروا إليه وعملوا عليه، ودعوا الناس إليه، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة، فرأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها.

وخواصهم: رأوا هذا مقصودا لغيره، وأن المقصود به عكوف القلب على الله، وجمع الهمة عليه، وتفريغ القلب لمحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والاشتغال بمرضاته، فرأوا أن أفضل العبادات في الجمعية على الله، ودوام ذكره بالقلب

واللسان، والاشتغال بمراقبته، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له.

ثم هؤلاء قسمان:

فالعارفون المتبعون منهم: إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه ولو فَرَّقهم وأذهب جمعيتهم.

والمنحرفون منهم يقولون: المقصود من العبادة جمعية القلب على الله، فإذا جاء ما يفرقه عن الله لم يلتفت إليه، وربما يقول قائلهم:

يطالب بالأوراد من كان غافلا ...

... فكيف بقلب كل أوقاته ورد؟

ثم هؤلاء أيضا قسمان:

منهم: من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته.

ومنهم: من يقوم بها ويترك السنن والنوافل، وتعلم العلم النافع لجمعيته.

وسأل بعض هؤلاء شيخا عارفا، فقال: إذا أذن المؤذن وأنا في جمعيتي على الله، فإن قمت وخرجت تفرقت، وإن بقيت على حالي بقيت على جمعيتي، فما الأفضل في حقي؟ فقال: إذا أذن المؤذن وأنت تحت العرش فقم، وأجب داعي الله، ثم عد إلى موضعك، وهذا لأن الجمعية على الله حظ الروح والقلب، وإجابة الداعي حق الرب، ومن آثر حظ روحه على حق ربه فليس من أهل «إياك نعبد».

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيه نفع متعد:

فرأوه أفضل من ذي النفع القاصر، فرأوا خدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل، فتصدوا له وعملوا عليه واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله» رواه أبو يعلى.

واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه، وعمل النفّاع متعد إلى الغير، وأين أحدهما من الآخر؟

قالوا: ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب.

قالوا: وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم»، وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدي.

واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم: «من دعا إلى هُدًى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء»، واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير»، وبقوله صلى الله عليه وسلم: «إن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، حتى الحيتان في البحر، والنملة في جحرها».

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النفع لا ينقطع عمله، ما دام نفعه الذي نسب إليه.

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم، ونفعهم في معاشهم ومعادهم، لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب، ولهذا أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد، وترك مخالطة الناس، ورأى هؤلاء «التفرق» في أمر الله، ونفع عباده، والإحسان إليهم، أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك.

الصنف الرابع: قالوا: إن أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته.

فأفضل العبادات في وقت الجهاد الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضيف – مثلا: القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل.

والأفضل في أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب وتعليم الجاهل، الإقبالُ على تعليمه والاشتغال به.

والأفضل في أوقات الأذان تركُ ما هو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن، والأفضل في أوقات الصلوات الخمس الجدُّ والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروجُ إلى الجامع، وإن بَعُدَ كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه أو البدن أو المال الاشتغالُ بمساعدته وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك.

والأفضل في وقت قراءة القرآن جمعيةُ القلب والهمة على تدبره وتفهمه، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة الاجتهادُ في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضْعِف عن ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة الإكثارُ من التعبد، لاسيما التكبير والتهليل والتحميد، فهو أفضل من الجهاد غير المتعين.

والأفضل في العشر الأخير من رمضان لزومُ المسجد فيه، والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم وإقرائهم القرآن عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته عيادتُه، وحضور جنازته وتشييعه، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك أداءُ واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم، فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه، والأفضل خلطتهم في الخير، فهي خير من اعتزالهم فيه، واعتزالهم في الشر، فهو أفضل من خلطتهم فيه، فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل في كل وقت وحال إيثارُ مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

[صفة أهل التعبد المطلق]

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق، والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد، فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته، فهو يعبد الله على وجه واحد، وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت، فمدار تعبده عليها، فهو لا يزال متنقلا في منازل العبودية، كلما رفعت له منزلة عمل عَلاَ سيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى، فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره، فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العُبَّاد رأيته معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم.

فهذا هو العبد المطلق، الذي لم تملكه الرسوم، ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه وما فيه لذتها وراحتها من العبادات؛ بل هو على مراد ربه، ولو كانت راحة نفسه

ولذتها في سواه، فهذا هو المتحقق ب {إياك نعبد وإياك نستعين} حقا، القائم بهما صدقا، مَلْبَسه ما تهيأ، ومأكله ما تيسر، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خاليا، لا تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد، ولا يستولي عليه رسم، حر مجرد، دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين الآمر أنى توجهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلت مضاربه، يأنس به كل محق، ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها، وكلها منفعة حتى شوكها، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله، فهو لله وبالله ومع الله، قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناس بلا نفس، بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين، وتخلى عنهم، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها، فواهًا له! ما أغْرَبَهُ بين الناس! وما أشد وحشته منهم! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه!! والله المستعان، وعليه التكلان.

[الغاية من العبودية وحكمتها]

فاعلم أن سر العبودية، وغايتها وحكمتها: إنما يطلع عليها من عرف صفات الرب عز وجل، ولم يعطلها، وعرف معنى الإلهية وحقيقتها، ومعنى كونه إلها، بل هو الإله الحق، وكل إله سواه فباطل، بل أبطل الباطل، وأن حقيقة الإلهية لا تنبغي إلا له، وأن العبادة موجب إلهيته وأثرها ومقتضاها، وارتباطها بها كارتباط متعلق الصفات بالصفات، وكارتباط المعلوم بالعلم، والمقدور بالقدرة، والأصوات بالسمع، والإحسان بالرحمة والعطاء بالجود.

فمن أنكر حقيقة الإلهية ولم يعرفها كيف يستقيم له معرفة حكمة العبادات وغاياتها ومقاصدها وما شرعت لأجله؟! وكيف يستقيم له العلم بأنها هي الغاية المقصودة بالخلق، والتي لها خلقوا، ولها أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، ولأجلها خلقت الجنة والنار؟! وأن فرض تعطيل الخليقة عنها: نسبة لله إلى ما لا يليق به، ويتعالى عنه مَنْ خلق السماوات والأرض بالحق، ولم يخلقهما باطلا، ولم يخلق

الإنسان عبثا ولم يتركه سدى مهملا، قال تعالى: {أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون} [المؤمنون: 115]، أي لغير شيء ولا حكمة، ولا لعبادتي ومجازاتي لكم، وقد صرح تعالى بهذا في قوله: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} [الذاريات: 56].

فالعبادة: هي الغاية التي خلق لها الجن والإنس والخلائق كلها، قال الله تعالى: {أيحسب الإنسان أن يترك سدى} [القيامة: 36] أي مهملا، قال الشافعي: لا يؤمر ولا ينهى، وقال غيره: لا يثاب ولا يعاقب.

والصحيح: الأمران؛ فإن الثواب والعقاب مترتبان على الأمر والنهي، والأمر والنهي طلب العبادة وإرادتها، وحقيقة العبادة امتثالهما، وقال تعالى: {ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار} [آل عمران: 191]، وقال: {وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق} [الحجر:

85]، وقال: {وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت} [الجاثية: 22].

فأخبر أنه خلق السماوات والأرض بالحق، المتضمن أمره ونهيه، وثوابه وعقابه، فإذا كانت السماوات والأرض وما بينهما خلقت لهذا، وهو غاية الخلق، فكيف يقال: إنه لا علة له، ولا حكمة مقصودة هي غايته؟ أو إن ذلك لمجرد استئجار العباد حتى لا ينكد عليهم الثواب بالمنة، أو لمجرد استعداد النفوس للمعارف العقلية، وارتياضها بمخالفة العوائد؟

فأصل العبادة: محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله، فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه، فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه كمحبة من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحبه.

[من علامات محبة الله: اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم]

وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها، فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة، ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله عَلَما عليها، وشاهدا لمن ادعاها، فقال تعالى: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} [آل عمران: 31] فجعل اتباع رسوله مشروطا بمحبتهم لله، وشرطا لمحبة الله لهم، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه وتحققه بتحققه فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة، فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله صلى الله عليه وسلم، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم، فيستحيل إذا ثبوت محبتهم لله، وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله.

ودل على أن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم: هي حب الله ورسوله، وطاعة أمره صلى الله عليه وسلم، ولا يكفي ذلك في العبودية، حتى يكون الله ورسوله صلى الله عليه وسلم أحبَّ إلى العبد مما سواهما، فلا يكون عنده شيء أحب إليه من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ومتى

كان عنده شيء أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله لصاحبه البتة، ولا يهديه الله، قال الله تعالى: {قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين} [التوبة: 24].

فكل من قدّم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه، أو معاملة أحدهم على معاملة الله: فهو ممن ليس الله ورسوله صلى الله عليه وسلم أحب إليه مما سواهما، وإن قاله بلسانه فهو كذب منه، وإخبار بخلاف ما هو عليه، وكذلك من قدم حكم أحد على حكم الله ورسوله، فذلك

المقدَّم عنده أحبُّ إليه من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، لكن قد يشتبه الأمر على من يقدم قول أحد أو حكمه، أو طاعته أو مرضاته، ظنا منه أنه لا يأمر ولا يحكم ولا يقول إلا ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم، فيطيعه، ويحاكم إليه، ويتلقى أقواله كذلك، فهذا معذور إذا لم يقدر على غير ذلك، وأما إذا قدر على الوصول إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وعرف أن غير من اتبعه هو أولى به مطلقا، أو في بعض الأمور، ولم يلتفت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ولا إلى من هو أولى به، فهذا الذي يخاف عليه، وهو داخل تحت الوعيد، فإن استحل عقوبة من خالفه وأذله، ولم يوافقه على اتباع شيخه، فهو من الظلمة المعتدين، وقد جعل الله لكل شيء قدرا.

فصل [مراتب العبودية وقواعدها]

وبنى {إياك نعبد} على أربع قواعد: التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه صلى الله عليه وسلم، من قول اللسان والقلب، وعمل القلب الجوارح.

فالعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع، فأصحاب {إياك نعبد} حقا هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله- سبحانه -به عن نفسه، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والذب عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره وعن نواهيه وعلى أقداره، والرضى به وعنه، والموالاة فيه والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح، ومستحبها أحب إلى الله من

مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك.

ف {إياك نعبد} التزام لأحكام هذه الأربعة، وإقرار بها. و {إياك نستعين} طلب للإعانة عليها والتوفيق لها. و {اهدنا الصراط المستقيم} متضمن للتعريف بالأمرين على التفصيل، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين إلى الله بهما.

فصل [دعوة الرسل جميعا إلى عبودية الله وتوحيده]

وجميع الرسل إنما دعوا إلى {إياك نعبد وإياك نستعين} فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته، من أولهم إلى آخرهم.

فقال نوح – عليه السلام – لقومه: {اعبدوا الله مالكم من إله غيره} [الأعراف: 59]، وكذلك قال هود وصالح وشعيب وإبراهيم – عليهم السلام- قال الله تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} [النحل: 36]، وقال: {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} [الأنبياء: 25]، وقال تعالى: {يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم، وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون} [المؤمنون: 51، 52].

فصل [العبودية صفة أكمل الخلق]

والله تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه، وأقربهم إليه، فقال: {لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا} [النساء: 172]، وقال: {إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون} [الأعراف: 206].

وهذا يبين أن الوقف التام في قوله في سورة الأنبياء: {وله من في السماوات والأرض} [الأنبياء: 19] هاهنا، ثم يبتدئ {ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون} [الأنبياء: 19، 20] فهما جملتان تامتان مستقلتان، أي: إن له من في السماوات ومن في الأرض عبيدا وملكا، ثم استأنف جملة أخرى فقال: {ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته} يعني: أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته، يعني: لا يأنفون عنها، ولا يتعاظمون ولا يستحسرون، فيعيون وينقطعون – يقال: حَسَر واستحسر، إذا تعب وأعيا –بل عبادتهم وتسبيحهم كالنفس لبني آدم، فالأول: وصف لعبيد ربوبيته، والثاني: وصف لعبيد إلهيته.

وقال تعالى: {وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا} [الفرقان: 63] إلى آخر السورة، وقال: {عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} [الإنسان: 6]، وقال: {واذكر عبدنا داود} وقال: {واذكر عبدنا أيوب}

[ص: 41]، وقال: {واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب} [ص: 45]، وقال عن سليمان- عليه السلام -: {نعم العبد إنه أواب} [ص: 30]، وقال عن المسيح - عليه السلام -: {إن هو إلا عبد أنعمنا عليه} [الزخرف: 59]، فجعل غايته العبودية لا الإلهية، كما يقول أعداؤه النصارى، ووصف أكرم خلقه عليه، وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية (سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم) في أشرف مقاماته، فقال تعالى: {وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا} [البقرة: 23]، وقال تبارك وتعالى: {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده} [الفرقان: 1]، وقال: {الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب} [الكهف: 1]، فذكره بالعبودية في مقام إنزال الكتاب عليه، وفي مقام التحدي بأن يأتوا بمثله، وقال: {وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا} [الجن: 19]، فذكره بالعبودية في مقام الدعوة إليه، وقال: {سبحان الذي

أسرى بعبده ليلا} [الإسراء 1] فذكره بالعبودية في مقام الإسراء.

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله»، وفي الحديث: «أنا عبد، آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد»، وفي «صحيح البخاري» عن عبد الله بن عمرو قال: «قرأت في التوراة صفة محمد صلى الله عليه وسلم: محمد رسول الله، عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صَخّاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر».

وجعل الله سبحانه البشارة المطلقة لعباده، فقال تعالى: {فبشر عباد، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه} [الزمر: 17، 18]، وجعل الأمن المطلق لهم، فقال تعالى: {يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون، الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين} [الزخرف: 28، 29]، وعَزَلَ الشيطانَ عن سلطانه عليهم خاصة، وجعل سلطانه على

من تولاه وأشرك به، فقال: {إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين} [الحجر: 42]، وقال: {إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون} [النحل: 99، 100].

وجعل النبي صلى الله عليه وسلم إحسان العبودية أعلى مراتب الدين، وهو «الإحسان»، فقال في حديث جبريل – عليه السلام – وقد سأله عن الإحسان –: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

فصل: (في لزوم {إياك نعبد} لكل عبد إلى الموت)

قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: {واعبد ربك حتى يأتيك اليقين} [الحجر: 99]، وقال أهل النار: {وكنا نكذب بيوم الدين، حتى أتانا اليقين} [المدثر: 46، 47]، واليقين هاهنا: هو «الموت» بإجماع أهل التفسير، وفي «الصحيح» –في قصة موت عثمان بن مظعون رضي

الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه» أي: الموت وما فيه.

فلا ينفك العبد من العبودية ما دام في دار التكليف، بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لما يسأله الملكان «من كان يعبد؟ وما يقول في رسول الله صلى الله عليه وسلم؟» ويلتمسان منه الجواب.

وعليه عبودية أخرى يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود، فيسجد المؤمنون، ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود، فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحا مقرونا بأنفاسهم لا يجدون له تعبا ولا نصبا.

ومن زعم أنه يصل إلى «مقام» يسقط عنه فيه التعبد، فهو زنديق كافر بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله، والانسلاخ من دينه، بل كلما تمكن العبد في «منازل العبودية» كانت عبوديته أعظم، والواجب

عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه، ولهذا كان الواجب على رسول الله صلى الله عليه وسلم- بل على جميع الرسل -أعظم من الواجب على أممهم، والواجب على أولي العزم أعظم من الواجب على من دونهم، والواجب على أولي العلم أعظم من الواجب على من دونهم، وكل أحد بحسب مرتبته.

فصل: (في انقسام العبودية إلى عامة وخاصة)

العبودية نوعان: عامة وخاصة.

فالعبودية العامة: عبودية أهل السماوات والأرض كلهم لله: بَرِّهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم، فهذه (عبودية القهر والملك)، قال تعالى: {وقالوا اتخذ الرحمن ولدا، لقد جئتم شيئا إدا، تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا، أن دعوا للرحمن ولدا، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا، إن كل من في السماوات والأرض إلا آتى

الرحمن عبدا} [مريم: 88، 93] فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

وقال تعالى: {ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء} [الفرقان: 17] فسماهم عباده مع ضلالهم، لكن تسمية مقيدة بالإشارة، وأما المطلقة: فلم تجئ إلا لأهل النوع الثاني، كما سيأتي بيانه إن شاء الله، وقال تعالى: {قل اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون} [الزمر: 46] وقال: {وما الله يريد ظلما للعباد} [غافر: 31] وقال: {إن الله قد حكم بين العباد} [غافر: 48]، فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة.

وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر.

قال تعالى: {يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون} [الزخرف: 68]، وقال: {فبشر عباد، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه} [الزمر: 17، 18]،

وقال: {وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما} [الفرقان: 63]، وقال تعالى عن إبليس: {لأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين} [الحجر: 39، 40]، فقال تعالى عنهم: {إن عبادي ليس لك عليهم سلطان} [الحجر: 42].

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته، وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيته. ولا يجيء في القرآن إضافة العباد إليه مطلقا إلا لهؤلاء. وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية فلا يأتي إلا على أحد خمسة أوجه:

الأول: إما منكرا، كقوله: {إن كل من في السماوات والأرض إلا آت الرحمن عبدا} [مريم: 93].

والثاني: معرفا باللام، كقوله: {وما الله يريد ظلما للعباد} [غافر: 31]، {إن الله قد حكم بين العباد} [غافر: 48].

الثالث: مقيدا بالإشارة أو نحوها، كقوله: {أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء} [الفرقان: 17].

الرابع: أن يذكروا في عموم عباده، فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر.

الخامس: أن يذكروا موصوفين بفعلهم، كقوله: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقطنوا من رحمة الله} [الزمر: 53].

وقد يقال: إنما سماهم «عباده» إذ لم يقنطوا من رحمته، وأنابوا إليه، واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم، فيكونون من عبيد الإلهية والطاعة.

وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة؛ لأن أصل معنى اللفظة: الذل والخضوع، يقال «طريق مُعَبَّد» إذا كان مُذَلَّلا بوطء الأقدام، و«فلان عَبَّده الحب» إذا ذلَّله، لكن أولياؤه خضعوا له وَذَلُّوا طوعا واختيارا، وانقيادا لأمره ونهيه، وأعداؤه خضعوا له قهرا ورغما.

[والقنوت والسجود فيه خاص وعام]

ونظير انقسام العبودية إلى خاصة وعامة: انقسام «القنوت» إلى خاص وعام، و«السجود» كذلك.

قال تعالى في «القنوت الخاص»: {أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه} [الزمر: 9] وقال في حق مريم – عليها السلام –: {وكانت من القانتين} [التحريم: 12]، وهو كثير في القرآن. وقال في «القنوت العام»: {وله من في السماوات والأرض كل له قانتون} [الروم: 26] أي خاضعون أذلاء.

وقال في «السجود الخاص»: {إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون} [الأعراف: 206]، وقال: {إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا} [مريم: 58]، وهو كثير في القرآن. وقال في «السجود العام»: {ولله يسجد من في السماوات

والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال} [الرعد: 15].

ولهذا كان هذا السجود الكَرْه غير السجود المذكور في قوله: {ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس} [الحج: 18]، فخص بالسجود هنا كثيرا من الناس وعمهم بالسجود في سورة النحل: {ولله يسجد ما في السماوات والأرض من دابة والملائكة} [النحل: 49]، وهو سجود الذل والقهر والخضوع، فكل أحد خاضع لربوبيته، ذليل لعزته، مقهور تحت سلطانه تعالى.

فصل: (في مراتب {إياك نعبد} علما وعملا)

للعبودية مراتب، بحسب العلم والعمل.

فأما مراتبها العلمية فمرتبتان:

إحداهما: العلم بالله.

والثانية: العلم بدينه.

فأما العلم به سبحانه، فخمس مراتب:

العلم بذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وتنزيهه عما لا يليق به.

والعلم بدينه، مرتبتان:

إحداهما: دينه الأمري الشرعي، وهو الصراط المستقيم الموصل إليه، والثانية: دينه الجزائي، المتضمن ثوابه وعقابه، وقد دخل في هذا العلم العلمُ بملائكته وكتبه ورسله.

وأما مراتبها العلمية، فمرتبتان: مرتبة لأصحاب اليمين، ومرتبة للسابقين المقربين، فأما مرتبة أصحاب اليمين: فأداء الواجبات، وترك المحرمات، مع ارتكاب المباحات، وبعض المكروهات، وترك بعض المستحبات.

وأما مرتبة المقربين: فالقيام بالواجبات والمندوبات، وترك المحرمات والمكروهات، زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم، متورعين عما يخافون ضرره.

وخاصتهم: قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقربات بالنية فليس في حقهم مباح متساوي الطرفين، بل كل أعمالهم راجحة، ومَنْ دونهم يترك المباحات مشتغلا عنها بالعبادات، وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات، ولأهل هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلا الله.

فصل [قواعد العبودية وأحكامها]

ورحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة، مَنْ كَمَّلها كمل مراتب العبودية. وبيانُها: أن العبودية منقسمة على القلب واللسان والجوارح، وعلى كل منها عبودية تخصه.

والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب ومستحب وحرام ومكروه ومباح.

وهي لكل واحد من: القلب واللسان والجوارح.

[عبوديات القلب]

فواجب القلب: منه متفق على وجوبه، ومختلف فيه:

فالمتفق على وجوبه: كالإخلاص والتوكل والمحبة والصبر والإنابة والخوف والرجاء، والتصديق الجازم، والنية في العبادة. وهذه قدر زائد على الإخلاص.

فإن «الإخلاص» هو إفراد المعبود عن غيره.

ونية العبادة لها مرتبتان: إحداهما: تمييز العبادة عن العادة.

والثانية: تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض.

والأقسام الثلاثة واجبة، وكذلك الصدق.

[الفرق بين الصدق والإخلاص]

والفرق بينه وبين الإخلاص أن للعبد مطلوبا وطلبا. فالإخلاص توحيد مطلوبه، والصدق توحيد طلبه.

فالإخلاص أن لا يكون المطلوب منقسما، والصدق أن لا يكون الطلب منقسما، فالصدق بذل الجهد، والإخلاص إفراد المطلوب.

واتفقت الأمة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة.

وكذلك النصح في العبودية ومدار الدين عليه، وهو بذل الجهد في إيقاع العبودية على الوجه المحبوب للرب المرضي له، وأصل هذا واجب، وكماله مرتبة المقربين.

وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان: واجب مستحق وهو مرتبة أصحاب اليمين، وكمال مستحب وهو مرتبة المقربين.

وكذلك الصبرُ، واجبٌ باتفاق الأمة، قال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين موضعا من القرآن، أو بضعا وتسعين. وله طرفان أيضا: واجب مستحق، وكمال مستحب.

وأما المختلف فيه: فكالرضا، فإن في وجوبه قولين للفقهاء والصوفية. والقولان لأصحاب أحمد، فمن أوجبه قال: السخط حرام، ولا خلاص عنه إلا بالرضا، وما لا خلاص عن الحرام إلا به فهو واجب. واحتجوا بأثر: «من لم يصبر على بلائي، ولم يرض بقضائي، فليتخذ ربا سواي».

ومن قال هو مستحب، قال: لم يجئ الأمر به في القرآن ولا في السنة، بخلاف الصبر، فإن الله أمر به في مواضع كثيرة من كتابه.

وكذلك التوكل: قال: {إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين} [يونس: 84]، وأمر بالإنابة: فقال: {وأنيبوا إلى ربكم} [الزمر: 54].

وأمر بالإخلاص: كقوله {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين} [البينة: 5].

وكذلك الخوف: كقوله {فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين} [آل عمران: 175]، وقوله {فلا تخشوهم

واخشون} [المائدة: 3]، وقوله {وإياي فارهبون} [البقرة: 40].

وكذلك الصدق: قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين} [التوبة: 119].

وكذلك المحبة: وهي أفرض الواجبات، إذ هي قلب العبادة المأمور بها، ومُخُّهَا وروحها.

وأما الرضا: فإنما جاء في القرآن مدح أهله، والثناء عليهم، لا الأمر به.

قالوا: وأما الأثر المذكور فإسرائيلي، لا يحتج به.

قالوا: وفي الحديث المعروف عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن استطعت أن تعمل الرضا مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع، فإن في الصبر على ما تكره النفس خيرا كثيرا» وهو في بعض «السنن».

قالوا: وأما قولكم «لا خلاص عن السخط إلا به» فليس بلازم؛ فإن مراتب الناس في المقدور ثلاثة: الرضا، وهو أعلاها، والسخط، وهو أسفلها، والصبر عليه بدون الرضا به، وهو أوسطها.

فالأولى للمقربين السابقين، والثالثة للمقتصدين، والثانية للظالمين، وكثير من الناس يصبر على المقدور فلا يسخط، وهو غير راض به، فالرضا أمر آخر.

وقد أشكل على بعض الناس اجتماع الرضا مع التألم، وظن أنهما متباينان، وليس كما ظنه، فالمريض الشارب للدواء الكريه متألم به، راض به والصائم في شهر رمضان في شدة الحر متألم بصومه راض به، والبخيل متألم بإخراج زكاة ماله راض بها، فالتألم كما لا ينافي الصبر لا ينافي الرضا به.

وهذا الخلاف بينهم، إنما هو في الرضا بقضائه الكوني، وأما الرضا به ربا وإلها، والرضا بأمره الديني، فمتفق على فرضيته،

بل لا يصير العبد مسلما إلا بهذا الرضا: أن يرضى بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا.

[هل تعاد الصلاة إذا غلبت عليها الوسوسة]

ومن هذا أيضا اختلافهم في الخشوع في الصلاة، وفيه قولان للفقهاء، وهما في مذهب أحمد – رحمه الله – وغيره.

وعلى القولين: اختلافهم في وجوب الإعادة على من غلب عليه الوسواس في صلاته، فأوجبها ابن حامد من أصحاب أحمد، وأبو حامد الغزالي في «إحيائه»، ولم يوجبها أكثر الفقهاء.

واحتجوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر من سها في صلاته بسجدتي السهو ولم يأمره بالإعادة مع قوله: «إن الشيطان يأتي أحدكم في صلاته، فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا- لما لم يكن يذكر -حتى يضل الرجل أن يدري كم صلى».

ولكن لا نزاع أن هذه الصلاة لا يثاب على شيء منها إلا بقدر حضور قلبه وخضوعه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن العبد لينصرف من الصلاة ولم يكتب له إلا نصفها، ثلثها، ربعها- حتى بلغ عشرها»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها»، فليست صحيحة باعتبار ترتب كمال مقصودها عليها، وإن سميت صحيحة باعتبار أنا لا نأمره بالإعادة ولا ينبغي أن يعلق لفظ الصحة عليها، فيقال «صلاة صحيحة» مع أنه لا يثاب عليها فاعلها.

والقصد: أن هذه الأعمال -واجبها ومستحبها- هي عبودية القلب، فمن عطلها فقد عطل عبودية الملك، وإن قام بعبودية رعيته من الجوارح.

والمقصود: أن يكون ملك الأعضاء -وهو القلب- قائما بعبوديته لله سبحانه، هو ورعيته.

[أنواع المعاصي من عمل القلب]

وأما المحرمات التي عليه: فالكبر والرياء والعجب والحسد والغفلة والنفاق.

وهي نوعان: كفر، ومعصية.

فالكفر: كالشك والنفاق والشرك وتوابعها.

والمعصية نوعان: كبائر، وصغائر.

فالكبائر: كالرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والفرح والسرور بأذى المسلمين، والشماتة بمصيبتهم، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، وتمني زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريما من الزنا وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة، ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها والتوبة منها، وإلا فهو قلب فاسد، وإذا فسد القلب فسد البدن.

وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب وترك القيام بها.

فوظيفة {إياك نعبد} على القلب قبل الجوارح، فإذا جهلها وترك القيام بها، امتلأ بأضدادها ولا بد، وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها.

وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر في حقه، وقد تكون كبائر، بحسب قوتها وغلظها، وخفتها ودقتها.

ومن الصغائر أيضا: شهوة المحرمات وتمنيها، وتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر بحسب تفاوت درجات المشتهَى، فشهوة الكفر والشرك كفر، وشهوة البدعة فسق، وشهوة الكبائر معصية؛ فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب، وإن تركها عجزا بعد بذله مقدوره في تحصيلها، استحق عقوبة الفاعل، لتنزيله منزلته في أحكام الثواب والعقاب، وإن لم ينزل منزلته في أحكام الشرع، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار»، قالوا: هذا القاتل، يا رسول الله، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصا على قتل صاحبه»

فنزله منزلة القاتل، لحرصه على قتل صاحبه في الإثم دون الحكم، وله نظائر كثيرة في الثواب والعقاب.

وقد علم بهذا مستحب القلب ومباحه.

فصل (وأما عبوديات اللسان الخمس)

فواجبها النطق بالشهادتين، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن، وهو ما تتوقف صحة صلاته عليه، وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها ورسوله صلى الله عليه وسلم، كما أمر بالتسبيح في الركوع والسجود، وأمر بقول «ربنا ولك الحمد» بعد الاعتدال، وأمر بالتشهد، وأمر بالتكبير.

ومن واجبه رد السلام، وفي ابتدائه قولان.

ومن واجبه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال، وأداء الشهادة المتعينة، وصدق الحديث.

وأما مستحبه: فتلاوة القرآن، ودوام ذكر الله، والمذاكرة في العلم النافع وتوابع ذلك.

وأما محرمه فهو النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم، والدعاء إليها، وتحسينها وتقويتها، وكالقذف وسب المسلم، وأذاه بكل قول، والكذب، وشهادة الزور، والقول على الله بلا علم، وهو أشدها تحريما.

ومكروهه التكلم بما تَرْكُه خير من الكلام به، مع عدم العقوبة عليه.

وقد اختلف السلف هل في حقه كلام مباح، متساوي الطرفين؟ على قولين، ذكرهما ابن المنذر وغيره، أحدهما: أنه لا يخلو كل ما يتكلم به: إما أن يكون له أو عليه، وليس في حقه شيء لا له ولا عليه.

واحتجوا بالحديث المشهور، وهو: «كل كلام ابن آدم عليه، لا له، إلا ما كان من ذكر الله وما والاه».

واحتجوا بأنه يكتب عليه كلامه كله، ولا يكتب إلا الخير والشر.

وقالت طائفة: بل هذا الكلام مباح، لا له ولا عليه، كما في حركات الجوارح.

قالوا: لأن كثيرا من الكلام لا يتعلق به أمر ولا نهي، وهذا شأن المباح.

والتحقيق: أن حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين، بل إما راجحة وإما مرجوحة؛ لأن للسان شأنا ليس لسائر الجوارح، و«إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول: اتق الله، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»، وأكثر ما يُكِبُّ الناس على مناخرهم في النار حصائد ألسنتهم، وكل ما يتلفظ به اللسان فإما أن يكون مما يرضي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم أو لا، فإن كان كذلك فهو الراجح، وإن لم يكن كذلك فهو المرجوح، وهذا بخلاف سائر

الجوارح، فإن صاحبها ينتفع بتحريكها في المباح المستوي الطرفين، لما له في ذلك من الراحة والمنفعة، فأبيح له استعمالها فيما فيه منفعة له، ولا مضرة عليه فيه في الآخرة، وأما حركة اللسان بما لا ينتفع به فلا يكون إلا مضرة، فتأمله.

فإن قيل: فقد يتحرك بما فيه منفعة دنيوية مباحة مستوية الطرفين، فيكون حكم حركته حكم ذلك الفعل. قيل: حركته بها عند الحاجة إليها راجحة، وعند عدم الحاجة إليها مرجوحة لا تفيده، فتكون عليه لا له.

فإن قيل: فإذا كان الفعل متساوي الطرفين، كانت حركة اللسان التي هي الوسيلة إليه كذلك، إذ الوسائل تابعة للمقصود في الحكم. قيل: لا يلزم ذلك، فقد يكون الشيء مباحا، بل واجبا، ووسيلته مكروهة -كالوفاء بالطاعة المنذورة- هو واجب، مع أن وسيلته -وهو النذر- مكروه منهي عنه.

وكذلك الحلف المكروه مرجوح، مع وجوب الوفاء به أو الكفارة، وكذلك سؤال الخلق عند الحاجة مكروه، ويباح له الانتفاع بما أخرجته له المسألة، وهذا كثير جدا، فقد تكون الوسيلة متضمنة مفسدة تكره أو تحرم لأجلها، وما جعلت وسيلة إليه ليس بحرام ولا مكروه.

فصل (وأما العبوديات الخمس على الجوارح)

فعلى خمس وعشرين مرتبة أيضا، إذ الحواس خمسة وعلى كل حاسة خمس عبوديات.

فعلى السمع وجوب الإنصات والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه، من استماع الإسلام والإيمان وفروضهما، وكذلك استماع القراءة في الصلاة إذا جهر بها الإمام، واستماع الخطبة للجمعة، في أصح قولي العلماء.

ويحرم عليه استماع الكفر والبدع؛ إلا حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة من ردّه، أو الشهادة على قائله، أو زيادة قوة الإيمان والسنة بمعرفة ضدهما من الكفر والبدعة

ونحو ذلك، وكاستماع أسرار من يهرب عنك بسره، ولا يجب أن يطلعك عليه، ما لم يكن متضمنا لحق لله يجب القيام به، أو لأذى مسلم يتعين نصحه وتحذيره منه.

وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب التي تُخْشَى الفتنة بأصواتهن، إذا لم تدع إليه حاجة من شهادة أو معاملة أو استفتاء أو محاكمة أو مداواة ونحوها.

وكذلك استماع المعازف وآلات الطرب واللهو، كالعود والطنبور واليراع ونحوها.

ولا يجب عليه سَدُّ أذنه إذا سمع الصوت وهو لا يريد استماعه، إلا إذا خاف السكون إليه والإنصات، فحينئذ يجب تجنب سماعها وجوب سد الذرائع.

ونظير هذا المحرِمُ، لا يجوز له تعمد شم الطيب، وإذا حملت الريح رائحته وألقتها في مشامِّه لم يجب عليه سد أنفه.

ونظير هذا نظرةُ الفجاءة لا تحرم على الناظر، وتحرم عليه النظرة الثانية إذا تعمدها.

وأما السمع المستحب فكاستماع المستحب من العلم، وقراءة القرآن، وذكر الله، واستماع كل ما يحبه الله، وليس بفرض.

والمكروه: عكسه، وهو استماع كل ما يكره ولا يعاقب عليه.

والمباح: ظاهر.

وأما النظر الواجب فالنظر في المصحف، وكتب العلم عند تعين تعلم الواجب منها، والنظر إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها أو ينفقها أو يستمتع بها، والأمانات التي يؤديها إلى أربابها ليميز بينها، ونحو ذلك.

والنظر الحرامُ النظرُ إلى الأجنبيات بشهوة مطلقا، وبغيرها إلا لحاجة، كنظر الخاطب والمستام والمعامل والشاهد والحاكم والطبيب وذي المحرم.

والمستحبُّ النظرُ في كتب العلم والدين التي يزداد بها الرجل إيمانا وعلما، والنظر في المصحف، ووجوه العلماء الصالحين

والوالدين، والنظر في آيات الله المشهودة، ليستدل بها على توحيده – سبحانه –ومعرفته وحكمته.

والمكروهُ فضولُ النظر الذي لا مصلحة فيه، فإن له فضولا كما للسان فضولا، وكم قاد فضولها إلى فضول عَزَّ التخلص منها، وأعيي دواؤها.

وقال بعض السلف: كانوا يكرهون فضول النظر، كما يكرهون فضول الكلام.

والمباحُ النظرُ الذي لا مضرة فيه في العاجل والآجل ولا منفعة.

ومن النظر الحرام النظرُ إلى العورات، وهي قسمان:

عورة وراء الثياب، وعورة وراء الأبواب.

ولو نظر في العورة التي وراء الأبواب فرماه صاحب العورة، ففقأ عينه، لم يكن عليه شيء، وذهبت هَدَرًا، بنص رسول

الله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته، وإن ضعفه بعض الفقهاء، لكونه لم يبلغه النص، أو تأوله.

وهذا إذا لم يكن للناظر سبب يباح النظر لأجله، كعورة له هناك ينظرها، أو ريبة هو مأمور- أو مأذون له -في الاطلاع عليها.

وأما الذوق الواجب فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه، وخوف الموت، فإن تركه حتى مات ماتَ عاصيا قاتلا لنفسه. قال الإمام أحمد وطاووس – رحمهما الله –: من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات، دخل النار.

ومن هذا تناولُ الدواء إذا تيقن النجاة به من الهلاك، على أصح القولين. وإن ظن الشفاء به، فهل هو مستحب مباح أو الأفضل تركه؟ فيه نزاع معروف بين السلف والخلف.

والذوق الحرام كذوق الخمر، والسموم القاتلة، والذوق الممنوع منه للصوم الواجب.

وأما المكروه فكذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة، وذوق الطعام الفجاءة، وهو الطعام الذي تفجأ آكله، ولم يُرد أن يدعوك إليه، وكأكل أطعمة المرائين في الولائم والدعوات ونحوها، وفي «السنن» أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نهى عن طعام المتبارين»، وذوق طعام من يطعمك حياء منك لا بطيبة نفس.

والذوق المستحب أكل ما يعينك على طاعة الله عز وجل، مما أذن الله فيه. والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل، فينال منه غرضه، والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب.

وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها، للأمر به عن الشارع.

والذوق المباحُ ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان.

وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشم، فالشمُّ الواجبُ كلُّ شم تعين طريقا للتمييز بين الحلال والحرام، كالشم

الذي تعلم به هذه العين هل هي خبيثة أو طيبة؟ وهل هي سم قاتل أو لا مضرة فيه؟ أو يميز به بين ما يملك الانتفاع به، وما لا يملك؟

ومن هذا شمُّ المقوِّم ورب الخبرة عند الحكم بالتقويم، وشمُّ العبيد ونحو ذلك.

وأما الشم الحرام فالتعمد لشم الطيب في الإحرام، وشم الطيب المغصوب والمسروق، وتعمد شم الطيب من النساء الأجنبيات خشية الافتتان بما وراءه.

وأما الشمُّ المستحب فشم ما يعينك على طاعة الله، ويقوي الحواس، ويبسط النفس للعلم والعمل.

ومن هذا هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك، ففي «صحيح مسلم» عن النبي من صلى الله عليه وسلم: «من عرض عليه ريحان فلا يرده، فإنه طيب الريح، خفيف المحمل».

والمكروه كشم طيب الظَّلَمة وأصحاب الشبهات ونحو ذلك.

والمباح ما لا منع فيه من الله ولا تَبِعَة ولا فيه مصلحة دينية، ولا تعلق له بالشرع.

وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس، فاللمس الواجب، كلمس الزوجة حين يجب جماعها، والأمة الواجب إعفافها.

والحرام لمس ما لا يحل من الأجنبيات.

والمستحب إذا كان فيه غض بصره، وكف نفسه عن الحرام، وإعفاف أهله.

والمكروه لمس الزوجة في الإحرام للذة، وكذلك في الاعتكاف، وفي الصيام، إذا لم يأمن على نفسه.

ومن هذا لمس بدن الميت– لغير غاسله –لأن بدنه قد صار بمنزلة عورة الحي تكريما له، ولهذا يستحب ستره عن العيون، وتغسيله في قميصه– في أحد القولين.

ولمس فخذ الرجل، إذا قلنا هي عورة.

والمباح ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية.

وهذه المراتب أيضا مرتبة على البطش باليد، والمشي بالرجل، وأمثلتها لا تخفى.

فالتكسب المقدور للنفقة على نفسه وأهله وعياله واجبٌ. وفي وجوبه لقضاء دينه خلاف. والصحيح وجوبُه ليمكنه من أداء دينه، ولا يجب لإخراج الزكاة. وفي وجوبه لأداء فريضة الحج نظر.

والأقوى في الدليل وجوبُه لدخوله في الاستطاعة، وتمكنه بذلك من أداء النسك، والمشهور عدم وجوبه.

ومن البطش الواجب إعانة المضطر، ورمي الجمار، ومباشرة الوضوء والتيمم.

والحرام كقتل النفس التي حرم الله قتلها، ونهب المال المعصوم، وضرب من لا يحل ضربه، ونحو ذلك، وكأنواع

اللعب المحرم بالنص كالنّرد، أو ما هو أشد تحريما منه عند أهل المدينة، كالشطرنج، أو مثله عند فقهاء الحديث كأحمد وغيره، أو دونه عند بعضهم، ونحو كتابة البدع المخالفة للسنة تصنيفا أو نسخا، إلا مقرونا بردها ونقضها، وكتابة الزور والظلم، والحكم الجائر، والقذف والتشبيب بالنساء الأجانب، وكتابة ما فيه مضرة على المسلمين في دينهم أو دنياهم، ولاسيما إن كسبت عليه مالا {فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون} [البقرة: 79]، وكذلك كتابة المفتي على الفتوى ما يخالف حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، إلا أن يكون مجتهدا مخطئا، فالإثم موضوع عنه.

وأما المكروه فكالعبث واللعب الذي ليس بحرام، وكتابة ما لا فائدة في كتابته، ولا منفعة فيه في الدنيا والآخرة.

والمستحب كتابة كل ما فيه منفعة في الدين، أو مصلحة لمسلم، والإحسان بيده بأن يعين صانعا، أو يصنع لأخرق، أو يُفرغ من دَلْوه في دلو المستسقي، أو يحمل له على دابته،

أو يمسكها حتى يحمل عليها، أو يعاونه بيده فيما يحتاج له ونحو ذلك.

ومنه لمس الركن بيده في الطواف، وفي تقبيلها بعد اللمس قولان.

والمباح ما لا مضرة فيه ولا ثواب.

وأما المشي الواجب فالمشي إلى الجمعات والجماعات، في أصح القولين، لبضعة وعشرين دليلا، مذكورة في غير هذا الموضع، والمشي حول البيت للطواف الواجب، والمشي بين الصفا والمروة بنفسه أو بمركوبه، والمشي إلى حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم إذا دعي إليه، والمشي إلى صلة رحمه وبر والديه، والمشي إلى مجالس العلم الواجب طلبه وتعلمه، والمشي إلى الحج إذا قربت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر.

والحرام المشيُ إلى معصية الله، وهو من «رَجْلِ الشيطان»، قال تعالى: {وأجلب عليهم بخيلك ورجلك} [الإسراء:

64]. قال مقاتل: استعن عليهم بركبان جندك ومُشاتهم، فكل راكب وماش في معصية الله فهو من جند إبليس.

وكذلك تتعلق هذه الأحكام الخمسة بالركوب أيضا.

فواجبه في الركوب في الغزو، والجهاد، الحج الواجب.

ومستحبه في الركوب المستحب من ذلك، ولطلب العلم، وصلة الرحم، وبر الوالدين، وفي الوقوف بعرفة نزاعٌ، هل الركوب فيه أفضل، أم على الأرض؟

والتحقيق أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة، من تعليم للمناسك، واقتداء به، وكان أعون على الدعاء، ولم يكن فيه ضرر على الدابة.

وحرامه الركوب في معصية الله عز وجل.

ومكروهه الركوب للهو واللعب، وكل ما تركُه خير من فعله.

ومباحه الركوب لما لم يتضمن فوت أجر، ولا تحصيل وزر.

فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء: القلب واللسان والسمع والبصر والأنف والفم واليد والرجل والفرج والاستواء على ظهر الدابة.

(ابن كثير - 774هـ) : من لطائف الاستعاذة أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث، وتطييب له، وتهيؤ لتلاوة كلام الله. وهي استعانة بالله واعتراف له بالقدرة، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه، ولا يقبل مصانعة، ولا يدارى بالإحسان، بخلاف العدو من نوع الإنسان كما دلت على ذلك آيات القرآن في ثلاث من المثاني، وقال تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ، وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلا} [الإسراء: 65]، وقد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشري يوم بدر، ومن قتله العدو البشري كان شهيدًا، ومن قتله العدو الباطني كان طرِيدًا، ومن غلبه العدو الظاهر كان مأجورًا، ومن قهره العدو الباطن كان مفتونا أو موزورًا. ولما كان الشيطان يرى

الإنسان من حيث لا يراه، استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان...

ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أي: أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنياي، أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه؛ فإن الشيطان لا يكفُّه عن الإنسان إلا الله؛ ولهذا أمر الله تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه، ليرده طبعه عمَّا هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل؛ لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه، وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة، قوله في الأعراف: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِين} [الأعراف: 199]، فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر، ثم قال: {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأعراف: 200]، وقال تعالى...: {ادفع بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ وَقُلْ

رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ} [المؤمنون: 96 -98]، وقال تعالى في سورة "حم السجدة ": {وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [فصلت: 34- 36]...

(البقاعي - 885هـ) : الغرض الذي سيقت له الفاتحة هو إثبات استحقاق الله تعالى لجميع المحامد وصفات الكمال، واختصاصه بملك الدنيا والآخرة، وباستحقاق العبادة والاستعانة، بالسؤال في المن بإلزام صراط الفائزين والإنقاذ من طريق الهالكين مختصا بذلك كله، ومدار ذلك كله مراقبة العباد لربهم، لإفراده بالعبادة، فهو مقصود الفاتحة بالذات، وغيره وَسَائلُ إليه، فإنه لا بد في ذلك من إثبات إحاطته تعالى بكل شيء، ولن يثبت حتى يعلم أنه المختص بأنه الخالق الملك المالك، لأن المقصود من إرسال الرسل

وإنزال الكتب نصب الشرائع، والمقصود من نصب الشرائع جمع الخلق على الحق، والمقصود من جمعهم تعريفهم المِلِكَ وبما يرضيه، وهو مقصود القرآن الذي انتظمته الفاتحة بالقصد الأول، ولن يكون ذلك إلا بما ذكر علما وعملا...

(سيد قطب - 1387هـ) : يردد المسلم هذه السورة القصيرة ذات الآيات السبع، سبع عشرة مرة في كل يوم وليلة على الحد الأدنى؛ وأكثر من ضعف ذلك إذا هو صلى السنن؛ وإلى غير حد إذا هو رغب في أن يقف بين يدي ربه متنفلا، غير الفرائض والسنن. ولا تقوم صلاة بغير هذه السورة لما ورد في الصحيحين عن رسول الله [ص] من حديث عبادة بن الصامت:"لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب". إن في هذه السورة من كليات العقيدة الإسلامية، وكليات التصور الإسلامي، وكليات المشاعر والتوجيهات، ما يشير إلى طرف من حكمة اختيارها للتكرار في كل ركعة، وحكمة بطلان كل صلاة لا تذكر فيها...

.

(ابن عاشور – 1393هـ) : تشتمل محتوياتها على أنواع مقاصد القرآن، وهي ثلاثة أنواع:

الثناء على الله ثناء جامعا لوصفه بجميع المحامد وتنزيهه من جميع النقائص، ولإثبات تفرده بالإلهية وإثبات البعث والجزاء وذلك من قوله {الحمد لله} إلى قوله {ملك يوم الدين}.

والأوامر والنواهي من قوله {إياك نعبد}.

والوعد والوعيد من قوله {صراط الذين} إلى آخرها.

فهذه هي أنواع مقاصد القرآن كله، وغيرها تكميلات لها، لأن القصد من القرآن إبلاغ مقاصده الأصلية وهي صلاح الدارين وذلك يحصل بالأوامر والنواهي، ولما توقفت الأوامر والنواهي على معرفة الآمر، وأنه الله الواجب وجوده خالق الخلق، لزم تحقيق معنى الصفات، ولما توقف تمام الامتثال

على الرجاء في الثواب والخوف من العقاب، لزم تحقق الوعد والوعيد.

والفاتحة مشتملة على هذه الأنواع؛ فإن قوله {الحمد لله} إلى قوله {يوم الدين} حمد وثناء. وقوله {إياك نعبد} إلى قوله {المستقيم} من نوع الأوامر والنواهي. وقوله {صراط الذين} إلى آخرها من نوع الوعد والوعيد، مع أن ذكر المغضوب عليهم والضالين يشير أيضا إلى نوع قصص القرآن.

وقد يؤيد هذا الوجه بما ورد في الصحيح في {قل هو الله أحد} أنها تعدل ثلث القرآن لأن ألفاظها كلها ثناء على الله تعالى...

تشتمل معانيها على جملة معاني القرآن من الحكم النظرية والأحكام العملية؛ فإن معاني القرآن إما علوم تقصد معرفتها، وإما أحكام يقصد منها العمل بها. فالعلوم كالتوحيد والصفات والنبوءات والمواعظ والأمثال والحكم

والقصص، وإما عمل الجوارح وهو العبادات والمعاملات، وإما عمل القلوب أي العقول وهو تهذيب الأخلاق وآداب الشريعة، وكلها تشتمل عليها معاني الفاتحة بدلالة المطابقة أو التضمن أو الالتزام.

ف {الحمد لله} يشمل سائر صفات الكمال التي استحق الله لأجلها حصر الحمد له تعالى بناء على ما تدل عليه جملة {الحمد لله} من اختصاص جنس الحمد به تعالى واستحقاقه لذلك الاختصاص كما سيأتي.

و {رب العالمين} يشمل سائر صفات الأفعال والتكوين عند من أثبتها.

و {الرحمن الرحيم} يشمل أصول التشريع الراجعة للرحمة بالمكلفين.

و {ملك يوم الدين} يشمل أحوال القيامة.

و {إياك نعبد} يجمع معنى الديانة والشريعة.

و {إياك نستعين} يجمع معنى الإخلاص لله في الأعمال.

و {اهدنا الصراط المستقيم} يشمل الأحوال الإنسانية وأحكامها من عبادات ومعاملات وآداب.

و {صراط الذين أنعمت عليهم} يشير إلى أحوال الأمم والأفراد الماضية الفاضلة.

وقوله {غير المغضوب عليهم ولا الضالين} يشمل سائر قصص الأمم الضالة، ويشير إلى تفاصيل ضلالاتهم المحكية عنهم في القرآن، فلا جرم يحصل من معاني الفاتحة–تصريحا وتضمنا–علم إجمالي بما حواه القرآن من الأغراض. وذلك يدعو نفس قارئها إلى تطلب التفصيل على حسب التمكن والقابلية. ولأجل هذا فرضت قراءة الفاتحة في كل ركعة من الصلاة حرصا على التذكر لما في مطاويها.

(حسين فضل الله – 1431هـ) : لعلّ قيمة هذه السورة تكمن في أنها تقدّم، في آياتها، تصوراً شاملاً لعلاقة الله بالإنسان وعلاقة الإنسان به من خلال صفاته ذات الصلة

الوثيقة بهذه العلاقة المتبادلة، ليكون ذلك بمثابة الثقافة السريعة، والوعي المتحرّك في الوجدان الإنساني، كلما أراد تمثّل تصوّره العقيدي لله، لتتوازن تصوّراته، ولتستقيم خطواته في هذا الاتجاه؛

فهناك الإطلالة بالفكر على كلّ آفاق الحمد في صفات الله وأفعاله، مما يتحسسه الإنسان في سرّ وجوده وحركته وعناصر شخصيته وامتداد حياته، مما يتمثّل فيه عظمة الخلق، وروعة النعمة، فيكون الحمد بكلّ إيحاءاته الفكرية والشعورية هو التعبير الصارخ لكلّ ما يحمله الإنسان من انفتاحٍ على مواقع الحمد لله.

وهناك الربوبية الشاملة للعالمين التي يتطلع فيها الإنسان إلى الله في آفاق ألوهيته التي لا حدود لها، ليجده في مواقع الكون كلّه، في عوالمه التي لا حصر لها، فيتحسس موقعه كإنسان من بين هذه العوالم، ليجد التربية الإلهية تتعهده بالرعاية الكاملة من موقع القدرة المطلقة المنفتحة على آفاق الألوهية، وليشعر بالوحدة الوجودية في ظلال الربوبية مع

كلّ العالمين، فلا يحس بأيّ انفصال عن حركة الكون من حوله.

وإذا كانت الكلمتان [الله] و [رَبِّ الْعَلَمِينَ] تختزنان إيحاء قوّة العظمة، فإنَّ كلمتي [الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ] توحيان بالرحمة التي تلامس قلب الإنسان وروحه وكذلك كلّ حياته، لتنساب فيها محبةً وخيراً وطمأنينةً وسلاماً، فترتاح مشاعره لإيحاءات الرحمة في الوقت الذي تسمو فيه أفكاره إلى معاني العظمة،

ثُمَّ تنقله الأجواء الإيمانية إلى عالم آخر، هو عالم الآخرة الذي يواجه فيه الجزاء العادل على أعماله الصالحة أو غير الصالحة في يوم الدين الذي يملكه الله، فله وحده السيطرة المطلقة فيه، في كلّ ما يتعلّق بالثواب والعقاب، والجنّة والنّار.. وبذلك تندفع مشاعر المسؤولية في كيان الإنسان لينطلق تصوّره لله من خلال هذا الأفق الواسع الذي يثير في داخله الرقابة الإلهية الشاملة لتتوازن خطواته في المواقع التي تتوازن فيها أعماله.

وهكذا يكون التصوّر لله في هذه الصفات الثلاث أساساً لحركة العقيدة بالله في تفاصيلها الإيحائية التي تتحرّك في حياة الإنسان لتوجهه إلى عبادة الله، مِمّا تفرضه الربوبية الشاملة والرحمة الواسعة والمالكية المطلقة للمصير كلّه، وفيما هي الهيمنة كلّها على الكون كلّه، فيتوجه إليه ليعبّر عن خضوعه لعبادته بالمستوى الذي ينفتح فيه على توحيد العبادة، فلا يعبد غيره، ولا تكون المسألة مسألةً تقريريةً، بل هي مسألةٌ إقراريةٌ، لأنه يسجل على نفسه الاعتراف الحاسم بذلك بقوله: [إِيَّاكَ نَعْبُدُ]. ثُمَّ يتطلّع إلى الوجود كلّه ليجد أنَّ الله هو القادر على كلّ شيء فيه، لأنه الخالق لكلّ الوجود، فكلّ مخلوق محتاجٌ إليه بفعل ارتباط وجوده به الذي يمثّل الفقر كلّه، ما يجعله عاجزاً عن إدارة شؤون نفسه، أو إدارة شؤون غيره إلاّ بإذنه، فهو المستعان، فلا يملك أحدٌ أن يحصل على العون إلاَّ بإرادته، وهو الكافي الذي يكفي من كلّ شيءٍ ولا يكفي منه شيء.

وهكذا ينطلق الفقر الإنساني في حاجاته الوجوديّة، ليصرخ، من موقع العقيدة المنفتحة على قدرة الله على كلّ شيء، بقوله: [وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ]، ما يوحي بالتوحيد في الاستعانة، فلا استعانة للعبد إلاّ بربه الواحد في عمق المعنى، لأنَّ ما يقدّمه الآخرون من معونةٍ، فهو مستمدٌّ من اللّه. وإذا كان الله هو المعين، فهو الهادي إلى سواء السبيل، لأن الهداية جزءٌ من معونته، يفتح بها قلب الإنسان وعقله على الحقّ، ويوجه حركته الاتّجاه السليم، في ما يوجهه إليه من رسالاته، ويلطف به من فيوضات ألطافه، ليهتدي بذلك كلّه إلى الطريق المستقيم...في الدعاء له بأن يهديه [الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ] الذي يحصل من خلاله على محبته ورضاه وهداه. وبذلك نجد في السورة الإطلالة الواسعة على الأجواء القرآنية الرحبة التي تضع هذه المبادئ عنواناً لها في الواجهة، لتكون آيات القرآن بمثابة التفاصيل لكلّ مفرداتها، ولذلك سميت ب «أمّ الكتاب». وربما أمكننا أن نختصر خطّها العام بتأكيدها على العقيدة والعمل اللذين

تندرج تحتهما كلّ المفاهيم القرآنية في حركة الفكر والواقع في تفاصيل الآيات القرآنية المتصلة بالحياة الإنسانية في الواقع كلّه...

(الأمثل – ...ه) : سورة الحمد... وتتميز بالخصائص التالية:

1- سياق السّورة: تختلف سورة الحمد عن سائر سور القرآن في لحنها وسياقها، فسياق السور الأُخرى يعبّر عن كلام الله، وسياق هذه السّورة يعبّر عن كلام عباد الله. وبعبارة أُخرى: شاء الله في هذه السّورة أن يعلّم عباده طريقة خطابهم له ومناجاتهم إيّاه.

تبدأ هذه السّورة بحمد الله والثناء عليه، وتستمر في إقرار الإِيمان بالمبدأ والمعاد «بالله ويوم القيامة» وتنتهي بالتضرع والطلب.

الإِنسان الواعي المتيقّظ يحسّ وهو يقرأ هذه السّورة بأنّه يعرج على أجنحة الملائكة، ويسمو في عالم الروح والمعنوية، ويدنو باستمرار من ربّ العالمين.

هذه السّورة تعبّر عن اتجاه الإِسلام في رفض الوسطاء بين الله والإِنسان... هؤلاء الوسطاء الذين افتعلتهم المذاهب الزائفة المنحرفة، وتُعلّم البشر أن يرتبطوا بالله مباشرة دونما واسطة

فالإنسان لا يرى في مضامين آيات السّورة سوى الله... يخاطبه... يناجيه... يتضرّع إليه... دونما واسطة حتى وإن كانت الواسطة نبيّاً مرسلا أو ملكاً مقرّباً.

ومن العجيب أن يحتلّ هذا الارتباط المستقيم بين الخالق والمخلوق مكان الصدارة في كتاب الله العزيز!.

محتوى السّورة: كلّ واحدة من الآيات السبع في هذه السّورة تشير إلى حقيقة هامّة:

(بِسْمِ اللهِ...) بداية لكلّ عمل، وتعلّمنا الاستمداد من الباري تعالى لدى البدء بأي عمل.

(اَلْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) درس في عودة كلّ نعمة ورعاية إلى الله تعالى، وإلفات إلى حقيقة انطلاق كلّ هذه المواهب من ذات الله تعالى.

(اَلرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) تبيّن هذه الحقيقة، وهي: أنّ خلق الله ورعايته وحاكميته تقوم على أساس الرّحمة والرّحمانية، وهذا المبدأ يشكّل المحور الأساس لنظام رعاية العالم.

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) استحضار للمعاد ويوم الجزاء، ولحاكمية الله على تلك المحكمة الكبرى.

(إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) تبيّن التوحيد في العبادة، والتوحيد في الاستعانة بالأسباب.

(اهْدِنَا الْصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) توضّح حاجة العباد ورغبتهم الشديدة للهداية، وتؤكّد حقيقة أن كل ألوان الهداية إنما تصدر منه تعالى. وآخر آية من هذه السّورة ترسم معالم

(الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) وتميّز بين صراط الذين أنعم الله عليهم، وصراط الذين ضلّوا والذين استحقّوا غضب الله عليهم.

2- ويمكن تقسيم هذه السّورة، من منظار آخر إلى قسمين: قسم يختصّ بحمد الله والثناء عليه، وقسم يتضمّن حاجات العبد...

(بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) (الآية 1)

(مالك بن أنس – 179هـ) : قال مالك: ليست البسملة في أوائل السور بآية، وإنما هي استفتاح ليعلم مبدأها، قال مالك: ولا بأس أن يقرأ بها في النافلة، ومن يعرض القرآن عرضا.

(الشافعي – 204هـ) : قال الشافعي: {بِسْمِ اِللَّهِ اِلرَّحْمانِ اِلرَّحِيمِ} الآية السابعة، فإن تركها، أو بعضها، لم تجزه الركعة التي تركها فيها.

(الطبري – 310هـ) : إن الله تعالى ذكره وتقدست أسماؤه، أدّب نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بتعليمه تقديم ذكر

أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله، وتقدم إليه في وصفه بها قبل جميع مهماته، وجعل ما أدبه به من ذلك وعلَّمه إياه منه لجميع خلقه سُنةً يستنون بها، وسبيلاً يتبعونه عليها، في افتتاح أوائل منطقهم وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم، حتى أغنت دلالة ما ظهر من قول القائل «بسم الله»، على ما بطن من مراده الذي هو محذوف.

"بسم الله" : وذلك أن الباء من «بسم الله» مقتضيةٌ فعلاً يكون لها جالبا، ولا فعل معها ظاهر، فأغنت سامع القائل «بسم الله» معرفته بمراد قائله من إظهار قائل ذلك مراده قولاً، إذ كان كل ناطق به عند افتتاحه أمرا قد أحضر منطقه به، إما معه وإما قبله بلا فصل، ما قد أغنى سامعه من دلالة شاهدة على الذي من أجله افتتح قِيلُه به... وكذلك قوله: «بسم الله» عند نهوضه للقيام أو عند قعوده وسائر أفعاله، ينبئ عن معنى مراده بقوله «بسم الله»، وأنه أراد بِقِيلِه «بسم الله»: أَقُوم بسم الله، وأقعد بسم الله، وكذلك سائر الأفعال...

وأما تأويل قول الله: «الله»، فإنه على معنى ما رُوي لنا عن عبد الله بن عباس: هو الذي يَأْلَهُه كل شيء، ويعبده كل خلق...

"الرّحْمنِ الرّحِيمِ": أما الرحمن: فهو «فعلان»، من رحم. والرحيم: فعيل منه.

فإن قال قائل: فإذا كان الرحمَن والرحيم اسمين مشتقين من الرحمة، فما وجه تكرير ذلك، وأحدهما مؤّد عن معنى الآخر؟ قيل له: ليس الأمر في ذلك على ما ظننت، بل لكل كلمة منهما معنى لا تؤَدي الأخرى منهما عنها.

فإن قال: وما المعنى الذي انفردت به كل واحدة منهما، فصارت إحداهما غير مؤدية المعنى عن الأخرى؟ قيل: أما من جهة العربية، فلا تمانع بين أهل المعرفة بلغات العرب أن قول القائل: «الرحمن» عن أبنية الأسماء من «فَعِلَ يَفْعَل» أشد عدولاً من قوله: «الرحيم»، ولا خلاف مع ذلك بينهم أن كل اسم كان له أصل في «فَعِلَ يَفْعَل»، ثم

كان عن أصله من فعل ويفعل أشدّ عدولاً، أن الموصوف به مفضل على الموصوف بالاسم المبني على أصله من «فَعِلَ يَفْعل» إذا كانت التسمية به مدحا أو ذما. فهذا ما في قول القائل «الرحمَن» من زيادة المعنى على قوله: «الرحيم» في اللغة...

وأما من جهة الأثر والخبر... [ف] عن عبد الله بن عباس، قال: الرحمن: الفعلان من الرحمة، وهو من كلام العرب. قال: الرحمن الرحيم: الرقيق الرفيق بمن أحبّ أن يرحمه، والبعيد الشديد على من أحبّ أن يعنف عليه، وكذلك أسماؤه كلها...

(الجصاص - 370هـ) : الأحكام التي يتضمنها قوله "بسم الله الرحمن الرحيم": الأمرُ باستفتاح الأمور للتبرك بذلك، والتعظيمُ لله عز وجل به، وذكرُها على الذبيحة شعارٌ وعَلَم من أعلام الدين، وطردُ الشيطان، وفيه إظهار مُخالفة المشركين الذين يفتتحون أمورهم بذكر الأصنام أو غيرها من المخلوقين الذين كانوا يعبدونهم، وهو مفزعٌ للخائف، ودلالةٌ

من قائله على انقطاعه إلى الله تعالى ولجوئه إليه، وأنسٌ للسامع، وإقرارٌ بالألوهية، واعترافٌ بالنعمة، واستعانةٌ بالله تعالى، وعياذةٌ به، وفيه اسمان من أسماء الله تعالى المخصوصةِ به، لا يسمَّى بهما غيره وهما الله والرحمن.

(أبو حامد الغزالي - 505هـ) : قوله تعالى: {الرحمان الرحيم}: نبأٌ عن صفة من صفات خاصة، وخاصيتها أنها تستدعي سائر الصفات من العلم والقدرة وغيرهما، ثم تتعلق بالخلق- وهم المرحومون- تعلقا يؤنسهم به، ويشوقهم إليه ويرغبهم في طاعته، لا كوصف الغضب لو ذَكَره بدلا عن الرحمة، فإن ذلك يحزن ويخوف ويقبض القلب ولا يشرحه...

(الزمخشري - 538هـ) : إن قلت: بم تعلقت الباء؟ قلت: بمحذوف تقديره: بسم الله أقرأ أو أتلو؛ لأنّ الذي يتلو التسمية مقروء، كما أنّ المسافر إذا حلّ أو ارتحل فقال: بسم الله، كان المعنى: بسم الله أحل وبسم الله أرتحل؛

وكذلك الذابح وكل فاعل يبدأ في فعله؛ ب «بسم الله» كان مضمراً ما جعل التسمية مبدأ له.

فإن قلت: لم قدّرت المحذوف متأخراً؟ قلت: لأنّ الأهم من الفعل والمتعلق به هو المتعلق به؛ لأنهم كانوا يبدؤون بأسماء آلهتهم فيقولون: باسم اللات، باسم العزى، فوجب أن يقصد الموحد معنى اختصاص اسم الله عزّ وجلّ بالابتداء، وذلك بتقديمه وتأخير الفعل كما فعل في قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}، حيث صرح بتقديم الاسم إرادة للاختصاص، والدليل عليه قوله: {بِسْمِ اللّه مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا} [هود: 41].

فإن قلت: فقد قال: {اقرأ باسم رَبّكَ} [العلق: 1]، فقدّم الفعل، قلت: هناك تقديم الفعل أوقع لأنها أوّل سورة نزلت فكان الأمر بالقراءة أهم.

ومعناه تعليم عباده كيف يتبركون باسمه، وكيف يحمدونه ويمجدونه ويعظمونه.

(ابن العربي – 543هـ) : ... قِرَاءَةَ الْفَاتِحَةِ شَرْطٌ فِي صِحَّةِ الصَّلَاةِ عِنْدَنَا، وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ، خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ حَيْثُ يَقُولُ: إِنَّهَا مُسْتَحَبَّةٌ، فَتَدْخُلُ {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} فِي الْوُجُوبِ عِنْدَ مَنْ يَرَاهُ، أَوْ فِي الِاسْتِحْبَابِ كَذَلِكَ. وَيَكْفِيك أَنَّهَا لَيْسَتْ بِقُرْآنٍ لِلِاخْتِلَافِ فِيهَا، وَالْقُرْآنُ لَا يُخْتَلَفُ فِيهِ، فَإِنَّ إنْكَارَ الْقُرْآنِ كُفْرٌ. ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسّمت الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. يَقُولُ الْعَبْدُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي. يَقُولُ الْعَبْدُ: الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي. يَقُولُ الْعَبْدُ: مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ يَقُولُ تَعَالَى: مَجَّدَنِي عَبْدِي. يَقُولُ الْعَبْدُ: إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: فَهَذِهِ الْآيَةُ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. يَقُولُ الْعَبْدُ: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ. يَقُولُ اللَّهُ: فَهَؤُلَاءِ لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ».

فَقَدْ تَوَلَّى سُبْحَانَهُ قِسْمَةَ الْقُرْآنِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَبْدِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، فَلَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ. وَهَذَا دَلِيلٌ قَوِيٌّ، مَعَ أَنَّهُ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ». وَثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ فَهِيَ خِدَاجٌ ثَلَاثًا غَيْرَ تَمَامٍ».

(الفخر الرازي - 606هـ) : ومن اللطائف أن قوله {أعوذ بالله} إشارة إلى نفي ما لا ينبغي من العقائد والأعمال، وقوله {بسم الله} إشارة إلى ما ينبغي من الاعتقادات والعمليات، فقوله {بسم الله} لا يصير معلوما إلا بعد الوقوف على جميع العقائد الحقة، والأعمال الصافية، وهذا هو الترتيب الذي يشهد بصحته العقل الصحيح، والحق الصريح.

(البقاعي - 885هـ) : لما كان المقصود من جمعهم [الناس] على الله تعالى معرفته لأجل عباداته، وكان التزام اسمه تعالى في كل حركة وسكون قائدا إلى مراقبته وداعيا إلى مخافته،

واعتقاد أن مصادر الأمور ومواردها منه وإليه، شرعت التسمية أول كل شيء، فصُدِّرت بها الفاتحة. وقُدِّم التعوذ الذي هو من درء المفاسد، تعظيما للقرآن بالإشارة إلى أن يتعين لتاليه أن يجتهد في تصفية سره وجمع متفرق أمره، لينال سؤله ومراده مما أودعه من خزائن السعادة بإعراضه عن العدو الحسود وإقباله على الوالي الودود؛ ومن هنا تعرف مناسبة المعوذتين بالفاتحة.

(رشيد رضا - 1354هـ) : قال الأستاذ الإمام: القرآن إمامنا وقدوتنا، فافتتاحه بهذه الكلمة إرشاد لنا بأن نفتتح أعمالنا بها... وحاصل المعنى أنني أعمل عملي متبرئا من أن يكون باسمي، بل هو باسمه تعالى، لأنني أستمد القوة والعناية منه وأرجو إحسانه عليه، فلولاه لم أقدر عليه ولم أعمله، بل وما كنت عاملا له على تقدير القدرة عليه لولا أمره ورجاء فضله، فلفظ الاسم معناه مراد، ومعنى لفظ الجلالة مراد أيضا، وكذلك كل من لفظ الرحمان الرحيم. وهذا الاستعمال معروف مألوف في كل اللغات، وأقربه

إليكم اليوم ما ترونه في المحاكم النظامية حيث يبتدئون الأحكام قولا وكتابة باسم السلطان فلان [ولله المثل الأعلى.]

ومعنى البسملة في الفاتحة أن جميع ما يقرر في القرآن من الأحكام والآيات وغيرها هو لله ومنه، ليس لأحد غير الله فيه شيء. ا هـ...

أقول: وهاهنا نظر آخر فيه، وهو أن القرآن كان وحيا يلقيه الروح الأمين في قلب النبي صلى الله عليه وسلم، وكل سورة منه مبتدأة ببسملة، فمتعلق البسملة من ملك الوحي تعلم من أول آية نزل بها وهي قوله تعالى {اقرأ باسم ربك}.

فمعنى البسملة الذي كان يفهمه النبي صلى الله عليه وسلم من روح الوحي: اقرأ يا محمد هذه السورة باسم الله الرحمان الرحيم على عباده، أي اقرأها على أنها منه تعالى لا منك، فإنه برحمته بهم أنزلها عليك لتهديهم بها إلى ما فيه الخير لهم في الدنيا والآخرة، وعلى هذا كان يقصد النبي صلى الله

عليه وسلم من متعلق البسملة: إنني أقرأ السورة عليكم أيها الناس باسم الله لا باسمي، وعلى أنها منه لا مني، فإنما أنا مبلغ عنه عز وجل {وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن} [النمل، 91-92]...

[الرحمن الرحيم] قال الأستاذ الإمام: والذي أقول: إن صيغة فعلان تدل على وصف فعلي فيه معنى المبالغة كفعال، وهو في استعمال اللغة للصفات العارضة كعطشان... وأما صيغة فعيل فإنها تدل في الاستعمال على المعاني الثابتة كالأخلاق والسجايا في الناس؛ كعليم وحكيم وحليم وجميل، والقرآن لا يخرج عن الأسلوب العربي البليغ في الحكاية عن صفات الله عز وجل التي تعلو عن مماثلة صفات المخلوقين.

فلفظ الرحمان يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل، وهي إفاضة النعم والإحسان، ولفظ الرحيم يدل على منشأ هذه الرحمة والإحسان، وعلى أنها من الصفات الثابتة والواجبة. وبهذا المعنى لا يُستغنى بأحد الوصفين عن الآخر،

ولا يكون الثاني مؤكدا للأول، فإذا سمع العربي وصف الله جل ثناؤه بالرحمان وفهم منه أنه المفيض للنعم فعلا لا يعتقد منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائما، لأن الفعل قد ينقطع إذا لم يكن عن صفة لازمة ثابتة وإن كان كثيرا، فعندما يسمع لفظ الرحيم يكمل اعتقاده على الوجه الذي يليق بالله تعالى ويرضيه سبحانه، ويعلم أن لله صفة ثابتة هي الرحمة التي عنها يكون أثرها، وإن كانت تلك الصفة على غير مثال صفات المخلوقين، ويكون ذكرها بعد الرحمان كذكر الدليل بعد المدلول ليقوم برهانا عليه...

(سيد قطب - 1387هـ) : وإذا كان البدء باسم الله وما ينطوي عليه من توحيد الله وأدب معه يمثل الكلية الأولى في التصور الإسلامي، فإن استغراق معاني الرحمة وحالاتها ومجالاتها في صفتي الرحمن الرحيم يمثل الكلية الثانية في هذا التصور، ويقرر حقيقة العلاقة بين الله والعباد...

(أبو زهرة - 1394هـ) : {بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ} : إن الله سبحانه وتعالى يأمرنا أن نتلو القرآن مبتدئين تالين لآياته

باسمه الأقدس؛ نتبرك به ونتيمن ونسبح باسمه، وهو الله، الإله المتفرد بالخلق والتكوين والتدبير، والمتفرد بالعبودية وحده جل جلاله، لأنه بديع السماوات والأرض والوجود كله، وهو (الرحمن) ذو الرحمة الواسعة التي تعم الوجود كله في السماوات والأرض، والدنيا والآخرة، المدبر للوجود برحمته. وهو (الرحيم) بعباده يغفر لهم ويتوب عليهم، ويشرع لهم من الشرائع ما يكون خيرا لهم في معادهم ومعاشهم، وهو بكل شيء عليم...

(الشعراوي – 1419هـ) : القرآن الكريم منذ اللحظة التي نزل فيها، نزل مقرونا بسم الله سبحانه وتعالى، ولذلك حينما نتلوه فإننا نبدأ البداية نفسها التي أرادها الله تبارك وتعالى، وهي أن تكون البداية بسم الله. وأول الكلمات التي نطق بها الوحي لمحمد صلى الله عليه وسلم كانت {اقرأ بسم ربك الذي خلق}. وهكذا كانت بداية نزول القرآن الكريم ليمارس مهمته في الكون هي: بسم الله.

على أننا نبدأ أيضا تلاوة القرآن بسم الله، لأن الله تبارك وتعالى هو الذي أنزله لنا، ويسر لنا أن نعرفه ونتلوه، فالأمر لله علما وقدرة ومعرفة. واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: {قُل لَّوْ شَاءَ اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} (سورة يونس 16) لذلك أنت تقرأ القرآن بسم الله، لأنه جل جلاله هو الذي يسره لك كلاما وتنزيلا وقراءة.

ولكن هل نحن مطالبون أن نبدأ فقط تلاوة القرآن بسم الله؟ إننا مطالبون أن نبدأ كل عمل بسم الله، لأننا لابد أن نحترم عطاء الله في كونه، فحين نزرع الأرض مثلا، لابد أن نبدأ بسم الله، لأننا لم نخلق الأرض التي نحرثها، ولا خلقنا البذرة التي نبذرها، ولا أنزلنا الماء من السماء لينمو الزرع.

إن الفلاّح الذي يمسك الفأس ويرمي البذرة قد يكون أجهل الناس بعناصر الأرض ومحتويات البذرة وما يفعله الماء في التربة لينمو الزرع.. إن كل ما يفعله الإنسان هو أنه يعمل فكره المخلوق من الله في المادة المخلوقة من الله

بالطاقة التي أوجدها الله في أجسادنا ليتم الزرع. والإنسان لا قدرة له على إرغام الأرض لتعطيه الثمار، ولا قدرة له على خلق الحبة لتنمو وتصبح شجرة، ولا سلطان له على إنزال الماء من السماء، فكأنه حين يبدأ العمل بسم الله، يبدأه بسم الله الذي سخر له الأرض، وسخر له الحَبّ، وسخر له الماء، وكلها لا قدرة له عليها، ولا تدخل في طاقته ولا في استطاعته، فكأنه يعلن أنه يدخل على هذه الأشياء جميعا باسم من سخرها له، والله تبارك وتعالى سخر لنا الكون جميعا وأعطانا الدليل على ذلك، فلا تعتقد أن لك قدرة أو ذاتية في هذا الكون، ولا تعتقد أن الأسباب والقوانين في الكون لها ذاتية، بل هي تعمل بقدرة خالقها، الذي إن شاء أجراها وإن شاء أوقفها...

كل شيء في هذا الكون بسم الله.. يتم بسم الله و بإذن من الله.. الكون تحكمه الأسباب نعم؛ ولكن إرادة الله فوق كل الأسباب.

أنت حين تبدأ كل شيء بسم الله، كأنك تجعل الله في جانبك يعينك، ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه علمنا أن نبدأ كل شيء بسم الله، لأن الله هو الاسم الجامع لصفات الكمال سبحانه وتعالى، والفعل عادة يحتاج إلى صفات متعددة، فأنت حين تبدأ عملا تحتاج إلى قدرة الله وإلى عونه وإلى رحمته، فلو أن الله سبحانه وتعالى لم يخبرنا بالاسم الجامع لكل الصفات، كان علينا أن نحدد الصفات التي نحتاج إليها.. كأن نقول بسم الله القوي، وبسم الله الرازق، وبسم الله المجيب، وبسم الله القادر، وبسم الله النافع... إلى غير ذلك من الأسماء والصفات التي نريد أن نستعين بها، ولكن الله تبارك وتعالى جعلنا نقول: بسم الله... بسم الله الجامع لكل هذه الصفات.

على أننا لابد أن نقف هنا عند الذين لا يبدؤون أعمالهم بسم الله، وإنما يريدون الجزاء المادي وحده. إنسان غير مؤمن لا يبدأ عمله بسم الله، وإنسان مؤمن يبدأ كل عمل وفي باله الله، كلاهما يأخذ من الدنيا لأن الله رب للجميع،

له عطاء ربوبية لكل خلقه الذين استدعاهم للحياة، ولكن الدنيا ليست هي الحياة الحقيقية للإنسان، بل الحياة الحقيقية هي الآخرة. الذي في باله الدنيا وحدها يأخذ بقدر عطاء الربوبية.. بقدر عطاء الله في الدنيا، والذي في باله الله يأخذ بقدر عطاء الله في الدنيا والآخرة.. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى: {الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير} (سورة سبأ: 1)؛ لأن المؤمن يحمد الله على نعمه في الدنيا، ثم يحمده عندما ينجيه من النار والعذاب ويدخله الجنة في الآخرة، فلله الحمد في الدنيا والآخرة. ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع"، ومعنى أقطع أي: مقطوع الذنب أو الذيل، أي عمل ناقص، فيه شيء ضائع؛ لأنك حين لا تبدأ العمل بسم الله قد يصادفك الغرور والطغيان بأنك أنت الذي سخّرت ما في الكون ليخدمك وينفعل لك، وحين لا تبدأ العمل باسم الله، فليس لك عليه جزاء

في الآخرة، فتكون قد أخذت عطاءه في الدنيا وبترت أو قطعت عطاءه في الآخرة. فإذا كنت تريد عطاء الدنيا والآخرة، فأقبل على كل عمل باسم الله؛ قبل أن تأكل قل: باسم الله، لأنه هو الذي خلق لك هذا الطعام ورزقك به. عندما تدخل الامتحان قل: بسم الله، فيعينك على النجاح. عندما تدخل إلى بيتك قل: بسم الله، لأنه هو الذي يسر لك هذا البيت. عندما تتزوج قل بسم الله: لأنه هو الذي خلق هذه الزوجة وأباحها لك... في كل عمل تفعله ابدأه باسم الله، لأنها تمنعك من أي عمل يغضب الله سبحانه وتعالى؛ فأنت لا تستطيع أن تبدأ عملا يغضب الله باسم الله، إذا أردت أن تسرق أو أن تشرب الخمر أو أن تفعل عملا يغضب الله، وتذكرت بسم الله، فإنك ستمتنع عنه، ستستحي أن تبدأ عملا بسم الله يغضب الله، وهكذا ستكون أعمالك كلها فيما أباحه الله.

الله تبارك وتعالى حين نبدأ قراءة كلامه بسم الله، فنحن نقرأ هذا الكلام لأنه من الله، والله هو الإله المعبود في كونه،

ومعنى معبود أنه يطاع فيما يأمر به، ولا نقدم على ما نهى عنه، فكأنك تستقبل القرآن الكريم بعطاء الله في العبادة، وبطاعته في افعل ولا تفعل. وهذا هو المقصود أن تبدأ قراءة القرآن بسم الله الذي آمنت به ربا وإلها، والذي عاهدته على أن تطيعه فيما أمر وفيما ينهى، والذي بموجب عبادتك لله سبحانه وتعالى تقرأ كتابه لتعمل بما فيه، والذي خلق وأوجد، ويحيي ويميت، وله الأمر في الدنيا والآخرة، والذي ستقف أمامه يوم القيامة ليحاسبك أحسنت أم أسأت، فالبداية من الله، والنهاية إلى الله سبحانه وتعالى.

بعض الناس يتساءل كيف أبدأ بسم الله، وقد عصيت وقد خالفت؟ نقول إياك أن تستحي أن تقرأ القرآن، وأن تبدأ بسم الله إذا كنت قد عصيت، ولذلك أعطانا الله سبحانه وتعالى الحيثية التي نبدأ بها قراءة القرآن فجعلنا نبدأه بسم الله الرحمن الرحيم. فالله سبحانه وتعالى لا يتخلى عن العاصي، بل يفتح له باب التوبة، ويحثه عليها، ويطلب منه أن يتوب وأن يعود إلى الله، فيغفر له ذنبه، لأن الله رحمن

رحيم... يطلب من كل عاص أن يعود إلى حظيرة الإيمان وهو رحمن رحيم...فرحمة الله تسع كل ذنوب خلقه، وهو سبحانه وتعالى الذي يغفر الذنوب جميعا. والرحمة والرحمن والرحيم، مشتق منها الرحم الذي هو مكان الجنين في بطن أمه، هذا المكان الذي يأتيه فيه الرزق بلا حول ولا قوة، ويجد فيه كل ما يحتاج إليه نموه ميسراً، رزقا من الله سبحانه وتعالى بلا تعب ولا مقابل، انظر إلى حنو الأم على ابنها وحنانها عليه، وتجاوزها عن سيئاته و [فرحتها] بعودته إليها، ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى في حديث قدسي: "أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته". الله سبحانه وتعالى يريد أن نتذكر دائما أنه يحنو ويرزقنا، ويفتح لنا أبواب التوبة بابا بعد آخر. ونعصي، فلا يأخذنا بذنوبنا ولا يحرمنا من نعمه، ولا يهلكنا بما فعلنا. ولذلك فنحن نبدأ تلاوة القرآن الكريم بسم الله الرحمن الرحيم، لنتذكر دائما أبواب الرحمة المفتوحة لنا، نرفع أيدينا إلى السماء ونقول: يا رب رحمتك، تجاوز

عن ذنوبنا وسيئاتنا، وبذلك يظل قارئ القرآن متصلا بأبواب رحمة الله، كلما ابتعد عن المنهج أسرع ليعود إليه، فمادام الله رحمانا ورحيما لا تغلق أبواب الرحمة أبدا.

على أننا نلاحظ أن الرحمن الرحيم من صيغ المبالغة، يقال: راحم ورحمن ورحيم... والله سبحانه وتعالى رحمن الدنيا ورحيم الآخرة.. صفات الله سبحانه وتعالى لا تتأرجح بين القوة والضعف، وإياكم أن تفهموا أن الله تأتيه الصفات مرة قليلة ومرة كثيرة، بل هي صفات الكمال المطلق، ولكن الذي يتغير هو متعلقات هذه الصفات، اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: {إن الله لا يظلم مثقال ذرةٍ} (سورة النساء 40) هذه الآية الكريمة نفت الظلم عن الله سبحانه وتعالى، ثم تأتي الآية الكريمة بقول الله جل جلاله: {وما ربك بظلامٍ للعبيد} (سورة فصلت 46) نلاحظ هنا استخدام صيغة المبالغة "ظلام "أي شديد الظلم.. وقول الحق سبحانه وتعالى: {ليس بظلام}.. لا تنفي الظلم ولكنها تنفي المبالغة في الظلم، تنفي أن يظلم ولو مثقال

ذرة.. نقول إنك لم تفهم المعنى.. إن الله لا يظلم أحدا.. الآية الأولى نفت الظلم عن الحق تبارك وتعالى ولو مثقال ذرة بالنسبة للعبد.. والآية الثانية لم تقل للعبد ولكنها قالت للعبيد.. والعبيد هم كل خلق الله.. فلو أصاب كل واحد منهم أقل من ذرة من الظلم مع هذه الأعداد الهائلة.. فإن الظلم يكون كثيراً جداً، ولو أنه قليل في كميته لأن عدد من سيصاب به هائل.. ولذلك فإن الآية الأولى نفت الظلم عن الله سبحانه وتعالى. والآية الثانية نفت الظلم أيضا عن الله تبارك وتعالى.. ولكن صيغة المبالغة استخدمت لكثرة عدد الذين تنطبق عليهم الآية الكريمة.

نأتي بعد ذلك إلى رحمن ورحيم؛ رحمن في الدنيا لكثرة عدد الذين يشملهم الله سبحانه وتعالى برحمته، فرحمة الله في الدنيا تشمل المؤمن والعاصي والكافر؛ يعطيهم الله مقومات حياتهم ولا يؤاخذهم بذنوبهم، يرزق من آمن به ومن لم يؤمن به، ويعفو عن كثير. إذن عدد الذين تشملهم رحمة الله في الدنيا هم كل خلقه، بصرف النظر عن إيمانهم أو عدم

إيمانهم، ولكن في الآخرة الله رحيم بالمؤمنين فقط، فالكفار والمشركون مطرودون من رحمة الله، إذن الذين تشملهم رحمة الله في الآخرة أقل عددا من الذين تشملهم رحمة الله في الدنيا، فمن أين تأتي المبالغة؟ تأتي المبالغة في العطاء وفي الخلود في العطاء، فنعم الله في الآخرة أكبر كثيراً منها في الدنيا. المبالغة هنا بكثرة النعم وخلودها، فكأن المبالغة في الدنيا بعمومية العطاء، والمبالغة في الآخرة بخصوصية العطاء للمؤمن وكثرة النعم والخلود فيها...

[و] نلاحظ أن هناك ثلاثة أسماء لله قد تكررت في بسم الله الرحمن الرحيم، وفي فاتحة الكتاب، وهذه الأسماء هي: الله والرحمن والرحيم. نقول إنه ليس هناك تكرار في القرآن الكريم، وإذا تكرر اللفظ يكون معناه في كل مرة مختلفا عن معناه في المرة السابقة، لأن المتكلم هو الله سبحانه وتعالى، ولذلك فهو يضع اللفظ في مكانه الصحيح، وفي معناه الصحيح. قولنا: {بسم الله الرحمن الرحيم} هو استعانة بقدرة الله حين نبدأ فعل الأشياء، إذن فلفظ الجلالة "الله"

في بسم الله، معناه الاستعانة بقدرات الله سبحانه وتعالى وصفاته، لتكون عونا لنا على ما نفعل. ولكن إذا قلنا: الحمد لله، فهي شكر لله على ما فعل لنا؛ ذلك أننا لا نستطيع أن نقدم الشكر لله إلا إذا استخدمنا لفظ الجلالة الجامع لكل صفات الله تعالى؛ لأننا نحمده على كل صفاته ورحمته بنا حتى لا نقول باسم القهار وباسم الوهاب وباسم الكريم وباسم الرحمن.. نقول الحمد لله على كمال صفاته، فيشمل الحمد كمال الصفات كلها. وهناك فرق بين "بسم الله" الذي نستعين به على ما لا قدرة لنا عليه. لأن الله هو الذي سخر كل ما في هذا الكون، وجعله يخدمنا، وبين "الحمد لله" فإن لفظ الجلالة إنما جاء هنا لنحمد الله على ما فعل لنا، فكأن "بسم الله" في البسملة طلب العون من الله بكل كمال صفاته، وكأن "الحمد لله" في الفاتحة تقديم الشكر لله بكل كمال صفاته.

و {الرحمن الرحيم} في البسملة لها معنى غير {الرحمن الرحيم} في الفاتحة، ففي البسملة هي تذكرنا برحمة الله

سبحانه وتعالى وغفرانه حتى لا نستحي ولا نهاب أن نستعين بسم الله إن كنا قد فعلنا معصية، فالله سبحانه وتعالى يريدنا أن نستعين باسمه دائما في كل أعمالنا، فإذا سقط واحد منا في معصية، قال كيف أستعين بسم الله وقد عصيته؟ نقول له: ادخل عليه سبحانك وتعالى من باب الرحمة، فيغفر لك، وتستعين به فيجيبك... ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى ألا تمنعنا المعصية عن أن ندخل إلى كل عمل باسم الله، فعلمنا أن نقول: {بسم الله الرحمن الرحيم} لكي نعرف أن الباب مفتوح للاستعانة بالله، وأن المعصية لا تمنعنا من الاستعانة في كل عمل بسم الله.. لأنه رحمن رحيم، فيكون الله قد أزال وحشتك من المعصية في الاستعانة به سبحانه وتعالى. ولكن الرحمن الرحيم في الفاتحة مقترنة برب العالمين، الذي أوجدك من عدم، وأمدك بنعم لا تعد ولا تحصى. أنت تحمده على هذه النعم التي أخذتها برحمة الله سبحانه وتعالى في ربوبيته، ذلك أن الربوبية ليس فيها من القسوة بقدر ما فيها من رحمة، والله سبحانه وتعالى

رب للمؤمن والكافر، فهو الذي استدعاهم جميعا إلى الوجود، ولذلك فإنه يعطيهم من النعم برحمته، وليس بما يستحقون.. فالشمس تشرق على المؤمن والكافر، ولا تحجب أشعتها عن الكافر وتعطيها للمؤمن فقط، والمطر ينزل على من يعبدون الله ومن يعبدون أوثانا من دون الله، والهواء يتنفسه من قال لا إله إلا الله ومن لم يقلها، وكل النعم التي هي من عطاء الربوبية لله هي في الدنيا لخلقه جميعا، وهذه رحمة، فالله رب الجميع، من أطاعه ومن عصاه، وهذه رحمة، والله قابل للتوبة، وهذه رحمة.. إذن ففي الفاتحة تأتي {الرحمن الرحيم} بمعنى رحمة الله في ربوبيته لخلقه، فهو يمهل العاصي ويفتح أبواب التوبة لكل من يلجأ إليه، وقد جعل الله رحمته تسبق غضبه، وهذه رحمة تستوجب الشكر. فمعنى" الرحمن الرحيم "في البسملة يختلف عنها في الفاتحة...

(ابن عثيمين - 1421هـ) : {بسم الله الرحمن الرحيم}:
الجار والمجرور متعلق بمحذوف؛ وهذا المحذوف يقَدَّر فعلاً متأخراً مناسباً؛ ... وقدرناه متأخراً لفائدتين:

الفائدة الأولى: التبرك بتقديم اسم الله عزّ وجل.

والفائدة الثانية: الحصر؛ لأن تأخير العامل يفيد الحصر، كأنك تقول: لا آكل باسم أحد متبركاً به ومستعيناً به، إلا باسم الله عزّ وجلّ... ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم:"من لم يذبح فليذبح باسم الله"1.

(حسين فضل الله - 1431هـ) : البداية عندما تكون [بسْمِ اللّه]، فإنها تفتح وعي الإنسان على كلام الله النازل من خلال وحيه... على أساس ما يرمز إليه اسم الله من الذات المقدسة المطلقة التي يرجع إليها الأمر كلّه، فتكون بداية كلّ شيء منه ونهايته إليه.

وكلمة الجلالة «الله» لا تدل إلاَّ على ذاته سبحانه، بالوضع، أو لغلبة الاستعمال، وذلك من خلال التبادر

الذي يوحي بذلك... ولذلك كانت كلمة التوحيد: «لا إله إلاّ الله» تعني الالتزام بالوحدانية من دون حاجةٍ إلى أيّ لفظ آخر يكمل المعنى، لتعيّن المعنى التوحيدي من خلال الكلمة.

الرحمن الرحيم: هاتان الكلمتان الدالّتان على وصف واحد هو الرحمة، التي تمثّل في مدلولها الإنساني، حالة انفعالٍ إيجابيٍّ، تصيب القلب بفعل احتضانه لآلام الآخرين وآمالهم ومشاكلهم، في رعاية محبَّبةٍ، وعناية ودودةٍ، وحنانٍ دافقٍ، وتنفذ إلى عمق حاجتهم،... إلى الحنان الظامئ وإلى الحبّ المتحرّك نحو احتواء الموقف كلّه.

أمّا في الجانب الإلهي، فهي لا تقترب من مشاعر الانفعال الممتنع على الله، لأنه من حالات الجسد المادّي، ولكنها تنطلق في النتائج العملية المنفتحة على وجود الإنسان الذي يمثّل وجهاً من وجوه حركة الرحمة الإلهية لديه، وعلى كلّ تفاصيل حياته في النعم التي يغدقها الله عليه، وعلى كلّ مواقع خطاياه التي يغفرها الله له، وعلى كلّ مجالات حركته

العامة أو الخاصة في آلامه ومشاكله ليخفّفها عنه أو ليبعدها عن حياته، وعلى كلّ تطلعاته في أحلامه ليحقّقها له، وعلى كلّ مصيره في الدنيا والآخرة ليجعل السعادة له في دائرة رضوانه في ذلك كلّه...

إنَّ الوجود كلّه هو مظهر الرحمة الإلهية التي هي صفة من صفات الكمال لله في ما تعبّر عنه من الموقع الرحيم الذي يطل به الله على الوجود وعلى الإنسان في كلّ مواقعه في داخل طبيعة الوجود وفي عمق حركته، وهذا ما يريد الله في الإنسان أن يتصوّره به، ليشعر دائماً بقربه إليه من خلال حركة الرحمة التي وسعت كلّ شيء، باعتبار أنها تلاحق الإنسان لتضمّد له جراحه، ولتفتح قلبه على الأمل كلّه والخير كلّه، ولتَعِدَه بمستقبل مشرق كبير. وهذا هو ما يوحي به الدعاء المأثور: «اللّهم إن لم أكن أهلاً أن أبلغ رحمتك فإنَّ رحمتك أهلٌ أن تبلغني وتسعني لأنها وسعت كلّ شيء». ولعلّ هذا هو الأسلوب التربوي الذي يعمل على تأكيد التصوّر الإنساني لله من موقع الرحمة، ليبقى قريباً منه

في مواقع حاجته إليه، من حيث الأفق الواسع المليء بالعطف واللطف والحنان والرضوان.

ولعلّ هذا الأسلوب أيضاً، هو الذي أوجب التعبير عن الرحمة بكلمتين، ليزداد تأكيد هذا المضمون في الوعي الشعوري للإنسان تجاه ربه. وإذا كان التأكيد يمثّل لوناً من التكرار للفكرة، فإنَّ الحاجة إليه لا تقتصر على دفع احتمال الاشتباه، كما يقرر النحويون، بل قد تكون المسألة فيه هي الحاجة إلى تعميق المعنى الذي تتضمنه الكلمة بشكلٍ عميقٍ واسعٍ، مما لا يحصل الإنسان عليه بالكلمة الواحدة، فلا ينافي ذلك بلاغة القرآن، لأنَّ التأكيد في مدلوله التصويري التعميقي لا يكرّر المعنى بشكلٍ جامدٍ، بل يعمقه بشكل حيٍّ متحرّكٍ...

وقد أفاض المفسّرون في توضيح الفرق بين الكلمتين، فذهب بعضٌ منهم إلى أن [الرَّحْمَنِ] هو المنعم بجلائل النعم، وأنَّ [الرَّحِيمِ] هو المنعم بدقائقها، وذهب آخرون إلى أنَّ [الرَّحمَن] هو المنعم على جميع الخلق، وأنَّ [الرَّحِيمِ] هو

المنعم على المؤمنين خاصة... وذهب رأي ثالث إلى أنَّ الوصفين بمعنى واحد، وأنَّ الثاني تأكيدٌ للأول.

وذكر بعض المفسّرين أنَّ صيغة الرحمن مبالغةٌ في الرحمة.

(ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ) (الآية 2)

(مقاتل - 150هـ) : {الحمد لله} يعني: الشكر لله. {رب العالمين}، يعني: الجن والإنس، مثل قوله: {ليكون للعالمين نذيرا} [الفرقان: 1]...

(الطبري - 310هـ) : "الحَمْدُ لِلّهِ": الشكر خالصا لله جل ثناؤه دون سائر ما يُعْبَد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد ولا يحيط بعددها غيره أحد، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغذاهم به من نعيم العيش من غير استحقاق منهم لذلك عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار

المقام في النعيم المقيم. فلربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخرا...

إن لدخول الألف واللام في "الحمد "معنى لا يؤديه قول القائل «حمدا»، بإسقاط الألف واللام، وذلك أن دخولهما في "الحمد "منبئ على أن معناه: جميع المحامد والشكر الكامل لله، ولو أُسقطتا منه، لما دلّ إلا على أن حَمْدَ قائلِ ذلك لله، دون المحامد كلها، إذْ كان معنى قول القائل: «حمدا لله» أو «حمدٌ الله» أحمد الله حمدا...

«رَبّ»... الربّ في كلام العرب متصرف على معان: فالسيد المطاع فيها يدعى ربّا، فربنا جل ثناؤه، السيد الذي لا شِبْه له، ولا مثل في سؤدده. والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه. والمالك الذي له الخلق والأمر...

{العَالَمِينَ}: والعالمون جمع عالَم، والعالَم جمع لا واحد له من لفظه، كالأنامِ والرهط والجيش ونحو ذلك من الأسماء التي هي موضوعات على جماع لا واحد له من لفظه. والعالَم

اسم لأصناف الأمم، وكل صنف منها عالَم، وأهل كل قرن من كل صنف منها عالَم ذلك القرن وذلك الزمان؛ فالإنس عالم، وكل أهل زمان منهم عالَم ذلك الزمان. والجن عالَم، وكذلك سائر أجناس الخلق، كل جنس منها عالم زمانه. ولذلك جُمِع فقيل «عالَمون»، وواحده جمع لكون عالَم كل زمان من ذلك عالَم ذلك الزمان. وهذا القول الذي قلناه قولُ ابن عباس وسعيد بن جبير، وهو معنى قول عامة المفسرين...

(الماتريدي - 333هـ) : "الحمد لله": احتمل أن يكون – جل ثناؤه– حمد نفسه ليعلم الخلق استحقاقه الحمد بذاته، فيحمدوه.

فإن قيل: كيف يجوز أن يحمد نفسه، ومثله في الخلق غير محمود؟ قيل له: لوجهين؛

أحدهما: أنه استحق الحمد بذاته لا بأحد، فيكون في ذلك تعريف الخلق لما يزلفهم لديه بما أثنى على نفسه ليثنوا عليه

[به]، وغيره إنما يكون ذلك له به عز وجل، فعليه توجيه الحمد إليه لا إلى نفسه؛ إذ نفسه لا تستوجبه بها، بل بالله تعالى.

والثاني: أن الله تعالى حقيق لذلك؛ إذ لا عيب يمسه، ولا آفة تحل به فيدخل نقصان في ذلك، ولا هو مأمور بشيء. والعبد لا يخلو عن عيوب تمسه وآفات تحل به، ويمدح بالائتمار، ويذم بتركه. وفي ذلك يكمن النقصان، وحق لمثله الفزع إلى الله تعالى والتضرع إليه ليتغمده برحمته، ويتجاوز عن صنيعه. وعلى ذلك معنى التكبر؛ نحمد به ربنا، ولا نحمد غيره؛ إذ ليس للعبد معنى يستقيم به تكبره؛ إذ هم جميعا أكفاء من طريق المحنة والخِلقة، وما أدرك أحد من فضيلة أو رفعة فبالله أدركه لا بنفسه، فعليه تنزيه الرب والفزع إليه بالشكر لا بالتكبر على أمثاله، والله تعالى عن هذا الوصف متعال.

ويحتمل أن يكون قوله تعالى: "الحمد لله "على إضمار الأمر، أي قولوا: "الحمد لله "لأن الحمد يضاف إلى الله فلا بد من أن يكون له علينا، فأمر بالحمد لذلك...

روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: "الحمد لله" أي الشكر لله بما صنع إلى خلقه، فيخرج تأويل الآية على هذا الترتيب على الأمر بتوجيه الشكر إليه، وذلك يتضمن الأمر أيضا بكل الممكن من الطاعة على ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه صلى حتى تورمت قدمه، فقيل له: أليس قد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: "أفلا أكون عبدا شكورا؟" [البخاري 1130]. فصير أنواع الطاعات شكرا له، فمن أطاع الله تعالى فقد شكر له، فيخرج تأويل الآية على هذا.

ويحتمل أيضا أن يخرج مخرج الثناء على الله عز وجل، والمدح له والوصف بما يستحقه، والتنزيه عما لا يليق به من توجيه النعم إليه وقطع الشركة عنه في الإنعام والإفضال على عباده، وعلى ذلك ما روي عن رسول الله صلى الله عليه

وسلم أن الله عز وجل يقول: "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين..." [مسلم 395] فإذا قال العبد: "الحمد لله رب العالمين" قال الله عز وجل: (حمدني عبدي)، فجعل الحمد هذا الحرف، وصيره منه ثناء لوجهين: أحدهما: أنه نسب الربوبية إليه في جميع العالم، وقطعه عن غيره. والثاني: أنه سمى ذلك صلاة، والصلاة أتم للثناء والدعاء، وذلك خلاف الذم ونقيضه. وفي الوصف بالبراءة من الذم مدح وثناء بغاية المدح والثناء، ولذلك يفرق القول بين الشكر والحمد؛ إذ أمرنا بالشكر للناس بما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من لم يشكر الناس لم يشكر الله) [أحمد 258/2] صيره بمعنى المجازاة. والحمد بمعنى الوصف بما هو أهله، فلم يستحب الحمد إلا لله.

وقوله تعالى: "رب العالمين" روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: (رب العالمين) أي: سيد العالمين، والعالم كل من دب على وجه الأرض. وقد يتوجه الرب إلى الربوبية لا إلى السؤدد؛ إذ يستقيم القول ب (وهو رب كل شيء)

[الأنعام: 164] من بني آدم وغيره، ونحو: (رب السماوات والأرض) [الرعد: 16 و...] [من الربوبية] و (رب العرش العظيم) [التوبة: 129 و...] ونحوه، وغير مستقيم لسيد السماوات ونحوه. وقد يتوجه اسم الرب إلى المالك؛ إذ كل من ينسب إليه الملك يسمى مالكه، ولا يسمى سيدا إلا في بني آدم خاصة، واسم الرب يجمع ذلك كله...

ثم اختلف أهل التفسير في (العالمين) فمنهم من رد إلى كل [ذي] روح، دبّ على وجه الأرض، ومنهم من رد إلى كل ذي روح في الأرض وغيرها... والتأويل عندنا... أن العالمين اسم لجميع الأنام والخلق جميعا...

الماوردي –450هـ:

أما {الحمد لله} فهو الثناء على المحمود بجميل صفاته وأفعاله، والشكرُ الثناء عليه بإنعامه، فكلُّ شكرٍ حمدٌ، وليسَ كلُّ حمدٍ شكراً، فهذا فرقُ ما بين الحمد والشكر، ولذلك جاز أن يحمد الله تعالى نفسه، ولم يَجُزْ أن يشكرها.

فأما الفرق بين الحمد والمدح، فهو أن الحمد لا يستحق إلا على فعلٍ حسن، والمدح قد يكون على فعل وغير فعل، فكلُّ حمدٍ مدحٌ، وليْسَ كل مدحٍ حمداً...

وأما قوله: {رب} فقد اختُلف في اشتقاقه على أربعة أقاويل:

أحدها: أنه مشتق من المالك، كما يقال رب الدار أي مالكها.

والثاني: أنه مشتق من السيد، لأن السيد يسمى ربّاً، قال تعالى: {أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً} (يوسف،41) يعني سيده.

والقول الثالث: أن الرب المدَبِّر، ومنه قول الله عزَّ وجلَّ: {وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ} (المائدة، 44) وهم العلماء، سموا ربَّانيّين، لقيامهم بتدبير الناس بعلمهم، وقيل: ربَّة البيت، لأنها تدبره.

والقول الرابع: الرب مشتق من التربية، ومنه قوله تعالى: {وَرَبَآئِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُمْ} (النساء، 23) فسمي ولد الزوجة ربيبة، لتربية الزوج لها.

فعلى هذا، أن صفة الله تعالى بأنه رب، لأنه مالك أو سيد، فذلك صفة من صفات ذاته، وإن قيل لأنه مدبِّر لخلقه، أو مُربِّيهم، فذلك صفة من صفات فعله. ومتى أدْخَلت عليه الألف واللام، اختص الله تعالى به دون عباده، وإن حذفتا منه، صار مشتركاً بين الله وبين عباده.

(الزمخشري - 538هـ) : الحمد والمدح أخوان، وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها. تقول: حمدت الرجل على إنعامه، وحمدته على حسبه وشجاعته. وأمّا الشكر فعلى النعمة خاصة وهو بالقلب واللسان والجوارح، والحمد باللسان وحده، فهو إحدى شعب الشكر... والحمد نقيضه الذمّ، والشكر نقيضه الكفران.

(ابن العربي - 543هـ) : قَوْله تَعالَى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} اعْلَمُوا -عَلَّمَكُمْ اللَّهُ الْمُشْكِلَاتِ- أَنَّ الْبَارِئَ تَعَالَى حَمِدَ نَفْسَهُ، وَافْتَتَحَ بِحَمْدِهِ كِتابَهُ، وَلَمْ يَأْذَنْ فِي ذَلِكَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، بَلْ نَهَاهُمْ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ، فَقَالَ: {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ}، وَمَنَعَ بَعْضَ النَّاسِ مِنْ أَنْ يَسْمَعَ مَدْحَ بَعْضٍ لَهُ، أَوْ يَرْكَنَ إلَيْهِ، وَأَمَرَهُمْ بِرَدِّ ذَلِكَ، وَقَالَ: احْثُوا فِي وُجُوهِ الْمَدَّاحِينَ التُّرَابَ -رَوَاهُ الْمِقْدَادُ وَغَيْرُهُ.

وَكَأَنَّ فِي مَدْحِ اللَّهِ لِنَفْسِهِ وَحَمْدِهِ لَهَا وُجُوهًا، مِنْهَا ثَلَاثٌ أُمَّهَاتٌ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُ عَلَّمَنَا كَيْفَ نَحْمَدُهُ، وَكَلَّفَنَا حَمْدَهُ وَالثَّنَاءَ عَلَيْهِ؛ إذْ لَمْ يَكُنْ لَنَا سَبِيلٌ إلَيْهِ إلَّا بِهِ.

الثَّانِي: أَنَّهُ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ مَعْنَاهُ: قُولُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ، فَيَكُونُ فَائِدَةُ ذَلِكَ التَّكْلِيفَ لَنَا، وَعَلَى هَذَا تَخَرَّجُ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ بِنَصْبِ الدَّالِ فِي الشَّاذِّ.

الثَّالِثُ: أَنَّ مَدْحَ النَّفْسِ إِنَّمَا نُهِيَ عَنْهُ لِمَا يُدْخِلُ عَلَيْهَا مِنْ الْعُجْبِ بِهَا، وَالتَّكَثُّرِ عَلَى الْخَلْقِ مِنْ أَجْلِهَا، فَاقْتَضَى ذَلِكَ الِاخْتِصَاصَ بِمَنْ يَلْحَقُهُ التَّغَيُّرُ وَلَا يَجُوزُ مِنْهُ التَّكَثُّرُ وَهُوَ الْمَخْلُوقُ، وَوَجَبَ ذَلِكَ لِلْخَالِقِ لِأَنَّهُ أَهْلُ الْحَمْدِ. وَهَذَا هُوَ الْجَوَابُ الصَّحِيحُ، وَالْفَائِدَةُ الْمَقْصُودَةُ...

(ابن جزي - 741هـ) : ...الحمد أعم من الشكر؛ لأن الشكر لا يكون إلا جزاء على نعمة، والحمد يكون جزاء كالشكر، ويكون ثناء ابتداء، كما أن الشكر قد يكون أعم من الحمد، لأن الحمد باللسان؛ والشكر باللسان والقلب والجوارح. فإذا فهمت عموم الحمد، علمت أن قولك {الحمد لله} يقتضي الثناء عليه لما هو من الجلال والعظمة والوحدانية والعزة والإفضال والعلم والمقدرة والحكمة وغير ذلك من الصفات، ويتضمن معاني أسمائه الحسنى التسعة والتسعين ويقتضي شكره والثناء عليه بكل نعمة أعطى ورحمة أولى جميع خلقه في الآخرة والأولى. فيا لها من كلمة جمعت ما تضيق عنه المجلدات، واتفق دون

عدة عقول الخلائق، ويكفيك أن الله جعلها أول كتابه وآخر دعوى أهل الجنة.

(البقاعي - 885هـ) : ولما كانت البسملة نوعا من الحمد ناسب كل المناسبة تعقيبها باسم الحمد الكلي الجامع لجميع أفراده، فكأنه قيل: احمدوه لأنه المستحق لجميع المحامد، وخصوا هذا النوع من الحمد في افتتاح أموركم لما ذكر من استشعار الرغبة إليه والرهبة منه المؤدي إلى لزوم طريق الهدى...

ولما أثبت بقوله: {الحمد لله} أنه المستحق لجميع المحامد، لا لشيء غير ذاته، الحائز لجميع الكمالات، أشار إلى أنه يستحقه أيضاً من حيث كونه رباً مالكاً منعماً، فقال: {رب} وأشار بقوله: {العالمين} إلى ابتداء الخلق تنبيهاً على الاستدلالات بالمصنوع على الصانع، وبالبداءة على الإعادة... قال الحرالي: و {الحمد} المدح الكامل الذي يحيط بجميع الأفعال والأوصاف، على أن جميعها إنما هو من الله سبحانه وتعالى، وأنه كله مدح لا يتطرق إليه ذم،

فإذا اضمحل ازدواج المدح بالذم وعلم سريان المدح في الكل، استحق عند ذلك ظهور اسم الحمد مكملاً معرفاً بكلمة "أل "وهي كلمة دالة فيما اتصلت به على انتهائه وكماله.

(رشيد رضا - 1354هـ) : {الحمد لله رب العالمين}

قالوا: إن معنى الحمد: الثناء باللسان، وقيده بالجميل، لأن كلمة "ثناء "تستعمل في المدح والذم جميعا... والخلاصة أن أي حمد يتوجه إلى محمود ما فهو لله تعالى، سواء لاحظه الحامد أو لم يلاحظه... والمقام المحمود للنبي صلى الله عليه وسلم هو ما يحمد فيه لما يناله الناس كلهم من خير دعائه وشفاعته على المشهور...

{رب العالمين} يشعر هذا الوصف ببيان وجه الثناء المطلق، ومعنى الرب: السيد المربي الذي يسوس مسوده ويربيه ويدبره، ولفظ "العالمين" جمع عالَم بفتح اللام جمع المذكر العاقل تغليبا، وأريد به جميع الكائنات الممكنة، أي إنه رب كل ما يدخل في مفهوم لفظ العالم...

وربوبية الله للناس تظهر بتربيته إياهم، وهذه التربية قسمان: تربية خلقية بما يكون به نموهم وكمال أبدانهم وقواهم النفسية والعقلية – وتربية شرعية تعليمية، وهي ما يوحيه إلى أفراد منهم ليكمل به فطرتهم بالعلم والعمل إذا اهتدوا به، فليس لغير رب الناس أن يشرع للناس عبادة، ولا أن يحرم عليهم ويحل لهم من عند نفسه بغير إذن منه تعالى...

(ابن سعدي - 1376هـ) : {رَبِّ الْعَالَمِينَ} الرب، هو المربي جميع العالمين -وهم من سوى الله- بخلقه إياهم، وإعداده لهم الآلات، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة، التي لو فقدوها، لم يمكن لهم البقاء، فما بهم من نعمة، فمنه تعالى.

وتربيته تعالى لخلقه نوعان: عامة وخاصة؛ فالعامة: هي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكمله لهم، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه. وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة عن كل شر. ولعل هذا [المعنى] هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب، فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة. فدل قوله {رَبِّ الْعَالَمِينَ} على انفراده بالخلق والتدبير، والنعم، وكمال غناه، وتمام فقر العالمين إليه، بكل وجه واعتبار...

(سيد قطب - 1387هـ) : وعقب البدء باسم الله الرحمن الرحيم، يجيء التوجه إلى الله بالحمد، ووصفه بالربوبية المطلقة للعالمين: (الحمد لله رب العالمين).

والحمد لله هو الشعور الذي يفيض به قلب المؤمن بمجرد ذكره لله.. فإن وجوده ابتداء ليس إلا فيضا من فيوضات النعمة الإلهية التي تستجيش الحمد والثناء، وفي كل لمحة، وفي كل لحظة، وفي كل خطوة، تتوالى آلاء الله وتتواكب وتتجمع، وتغمر خلائقه كلها وبخاصة هذا الإنسان.. ومن

ثم كان الحمد لله ابتداء، وكان الحمد لله ختاما قاعدة من قواعد التصور الإسلامي المباشر: (وهو الله لا إله إلا هو، له الحمد في الأولى والآخرة) [(القصص، 70)].

ومع هذا يبلغ من فضل الله –سبحانه– وفيضه على عبده المؤمن، أنه إذا قال: الحمد لله، كتبها له حسنة ترجح كل الموازين.. في سنن ابن ماجه عن ابن عمر –رضي الله عنهما– أن رسول الله [ص] حدثهم أن عبدا من عباد الله قال: (يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك)، فعضلت الملكين، فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعدا إلى الله فقالا: يا ربنا إن عبدا قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها، قال الله –وهو أعلم بما قال عبده –: وما الذي قال عبدي؟ قالا: يا رب، إنه قال: لك الحمد يا رب كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فقال الله لهما: اكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها).. والتوجه إلى الله بالحمد يمثل شعور المؤمن الذي يستجيشه مجرد ذكره لله– كما أسلفنا –

أما شطر الآية الأخير:"رب العالمين" فهو يمثل قاعدة التصور الإسلامي، فالربوبية المطلقة الشاملة هي إحدى كليات العقيدة الإسلامية.. والرب هو المالك المتصرف للإصلاح والتربية.. والتصرف للإصلاح والتربية يشمل العالمين -أي جميع الخلائق- والله -سبحانه- لم يخلق الكون ثم يتركه هملا، إنما هو يتصرف فيه بالإصلاح ويرعاه ويربيه، وكل العوالم والخلائق تحفظ وتتعهد برعاية الله رب العالمين. والصلة بين الخالق والخلائق دائمة ممتدة قائمة في كل وقت وفي كل حالة. والربوبية المطلقة هي مفرق الطريق بين وضوح التوحيد الكامل الشامل، والغبش الذي ينشأ من عدم وضوح هذه الحقيقة بصورتها القاطعة. وكثيرا ما كان الناس يجمعون بين الاعتراف بالله بوصفه الموجد الواحد للكون، والاعتقاد بتعدد الأرباب الذين يتحكمون في الحياة. ولقد يبدو هذا غريبا مضحكا، ولكنه كان وما يزال. ولقد حكى لنا القرآن الكريم عن جماعة من المشركين كانوا يقولون عن أربابهم المتفرقة: "ما نعبدهم إلا ليقربونا

إلى الله زلفى "(الزمر، 3).. كما قال عن جماعة من أهل الكتاب: "اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله" (التوبة، 31)..

وكانت عقائد الجاهليات السائدة في الأرض كلها يوم جاء الإسلام، تعج بالأرباب المختلفة، بوصفها أربابا صغارا تقوم إلى جانب كبير الآلهة كما يزعمون! فإطلاق الربوبية في هذه السورة، وشمول هذه الربوبية للعالمين جميعا، هي مفرق الطريق بين النظام والفوضى في العقيدة. لتتجه العوالم كلها إلى رب واحد، تقر له بالسيادة المطلقة، وتنفض عن كاهلها زحمة الأرباب المتفرقة، وعنت الحيرة كذلك بين شتى الأرباب.. ثم ليطمئن ضمير هذه العوالم إلى رعاية الله الدائمة وربوبيته القائمة. وإلى أن هذه الرعاية لا تنقطع أبدا ولا تفتر ولا تغيب، لا كما كان أرقى تصور فلسفي لأرسطو مثلا يقول بأن الله أوجد هذا الكون ثم لم يعد يهتم به، لأن الله أرقى من أن يفكر فيما هو دونه! فهو لا يفكر

إلا في ذاته! وأرسطو -وهذا تصوره- هو أكبر الفلاسفة، وعقله هو أكبر العقول!

لقد جاء الإسلام، وفي العالم ركام من العقائد والتصورات والأساطير والفلسفات والأوهام والأفكار.. يختلط فيها الحق بالباطل، والصحيح بالزائف، والدين بالخرافة، والفلسفة بالأسطورة.. والضمير الإنساني تحت هذا الركام الهائل يتخبط في ظلمات وظنون، ولا يستقر منها على يقين. وكان التيه الذي لا قرار فيه ولا يقين ولا نور، هو ذلك الذي يحيط بتصور البشرية لإلهها، وصفاته وعلاقته بخلائقه، ونوع الصلة بين الله والإنسان على وجه الخصوص. ولم يكن مستطاعا أن يستقر الضمير البشري على قرار في أمر هذا الكون، وفي أمر نفسه وفي منهج حياته، قبل أن يستقر على قرار في أمر عقيدته وتصوره لإلهه وصفاته، وقبل أن ينتهي إلى يقين واضح مستقيم في وسط هذا العماء وهذا التيه وهذا الركام الثقيل. ولا يدرك الإنسان ضرورة هذا الاستقرار حتى يطلع على ضخامة هذا

الركام، وحتى يرود هذا التيه من العقائد والتصورات والأساطير والفلسفات والأوهام والأفكار التي جاء الإسلام فوجدها ترين على الضمير البشري، والتي أشرنا إلى طرف منها فيما تقدم صغير. [وسيجيئ في استعراض سور القرآن الكثير منها، مما عالجه القرآن علاجا وافيا شاملا كاملا].

ومن ثم كانت عناية الإسلام الأولى موجهه إلى تحرير أمر العقيدة، وتحديد التصور الذي يستقر عليه الضمير في أمر الله وصفاته، وعلاقته بالخلائق، وعلاقة الخلائق به على وجه القطع واليقين. ومن ثم كان التوحيد الكامل الخالص المجرد الشامل، الذي لا تشوبه شائبة من قريب ولا من بعيد.. هو قاعدة التصور التي جاء بها الإسلام، وظل يجلوها في الضمير، ويتتبع فيه كل هاجسة وكل شائبة حول حقيقة التوحيد، حتى يخلصها من كل غبش، ويدعها مكينة راكزة لا يتطرق إليها وهم في صورة من الصور.. كذلك قال الإسلام كلمة الفصل بمثل هذا الوضوح في صفات الله وبخاصة ما يتعلق منها بالربوبية المطلقة؛ فقد كان معظم

الركام في ذلك التيه الذي تخبط فيه الفلسفات والعقائد كما تخبط فيه الأوهام والأساطير.. مما يتعلق بهذا الأمر الخطير، العظيم الأثر في الضمير الإنساني، وفي السلوك البشري سواء. والذي يراجع الجهد المتطاول الذي بذله الإسلام لتقرير كلمة الفصل في ذات الله وصفاته وعلاقته بمخلوقاته، هذا الجهد الذي تمثله النصوص القرآنية الكثيرة، الذي يراجع هذا الجهد المتطاول دون أن يراجع ذلك الركام الثقيل في ذلك التيه الشامل الذي كانت البشرية كلها تهيم فيه.. قد لا يدرك مدى الحاجة إلى كل هذا البيان المؤكد المكرر، وإلى كل هذا التدقيق الذي يتتبع كل مسالك الضمير.. ولكن مراجعة ذلك الركام تكشف عن ضرورة ذلك الجهد المتطاول، كما تكشف عن مدى عظمة الدور الذي قامت به هذه العقيدة –وتقوم في تحرير الضمير البشري وإعتاقه، وإطلاقه من عناء التخبط بين شتى الأرباب وشتى الأوهام والأساطير! وإن جمال هذه العقيدة وكمالها وتناسقها وبساطة الحقيقة الكبيرة التي تمثلها..

كل هذا لا يتجلى للقلب والعقل كما يتجلى من مراجعة ركام الجاهلية من العقائد والتصورات، والأساطير والفلسفات! وبخاصة موضوع الحقيقة الإلهية وعلاقتها بالعالم.. عندئذ تبدو العقيدة الإسلامية رحمة، رحمة حقيقية للقلب والعقل، رحمة بما فيها من جمال وبساطة، ووضوح وتناسق، وقرب وأنس، وتجاوب مع الفطرة مباشر عميق...

(الشنقيطي - أضواء البيان - 1393هـ) : {الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} لم يذكر لحمده هنا ظرفًا مكانيًا ولا زمانيًا. وذكر في سورة الروم أن من ظروفه المكانية: السماوات والأرض في قوله: {وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ والأرض}، وذكر في سورة القصص أن من ظروفه الزمانية: الدنيا والآخرة في قوله: {وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأولى والآخرة}، وقال في أول سورة سبأ: {وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخرة وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} والألف واللام في {الْحَمْدُ} لاستغراق جميع المحامد. وهو ثناء أثنى به تعالى على نفسه وفي ضمْنه أمَرَ عباده أن يثنوا عليه به.

وقوله تعالى: {رَبّ الْعَالَمِينَ} لم يبين هنا ما العالمون، وبين ذلك في موضع آخر بقوله: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبّ السَّمَاوَاتِ والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا} (الشعراء، 23-24).

(الشعراوي - 1419هـ) : {الحمد لله رب العالمين}: الله محمود لذاته، ومحمود لصفاته، ومحمود لنعمه، ومحمود لرحمته، ومحمود لمنهجه، ومحمود لقضائه، الله محمود قبل أن يخلق من يحمده. ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه جعل الشكر له في كلمتين اثنتين هما: الحمد لله. والعجيب أنك حين تشكر بشرا على جميل فعله تظل ساعات وساعات تعد كلمات الشكر و الثناء، وتحذف وتضيف وتأخذ رأي الناس، حتى تصل إلى قصيدة أو خطاب مليء بالثناء والشكر. ولكن الله سبحانه وتعالى جلت قدرته وعظمته نعمه لا تعد و لا تحصى، علمنا أن نشكره في كلمتين اثنتين هما: الحمد لله..

ولعلنا نفهم أن المبالغة في الشكر للبشر مكروهة، لأنها تصيب الإنسان بالغرور والنفاق، وتزيد العاصي في معاصيه؛ فلْنُقَلِّلْ من الشكر والثناء للبشر، لأننا نشكر الله لعظيم نعمه علينا بكلمتين هما: الحمد لله، ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه علمنا صيغة الحمد، فلو أنه تركها دون أن يحددها بكلمتين، لكان من الصعب على البشر أن يجدوا الصيغة المناسبة ليحمدوا الله على هذا الكمال الإلهي، فمهما أوتي الناس من بلاغة وقدرة على التعبير، فهم عاجزون عن أن يصلوا إلى صيغة الحمد التي تليق بجلال المنعم، فكيف نحمد الله، والعقل عاجز أن يدرك قدرته، أو يحصي نعمه، أو يحيط برحمته؟ ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعطانا صورة العجز البشري عن حمد كمال الألوهية لله، فقال: (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك).

وكلمتا الحمد لله، ساوى الله بهما بين البشر جميعا، فلو أنه ترك الحمد بلا تحديد، لتفاوتت درجات الحمد بين الناس

بتفاوت قدراتهم على التعبير.. ولكن الحق تبارك وتعالى شاء عدله أن يسوي بين عباده جميعا في صيغة الحمد له، فيعلمنا في أول كلماته في القرآن الكريم أن نقول:"الحمد لله" ليعطي الفرصة المتساوية لكل عبيده، بحيث يستوي المتعلم وغير المتعلم في عطاء الحمد، ومن أوتي البلاغة ومن لا يحسن الكلام، ولذلك فإننا نحمد الله سبحانه وتعالى على أنه علمنا كيف نحمده، وليظل العبد دائما حامدا، ويظل الله دائما محمودا..

فالله سبحانه وتعالى قبل أن يخلقنا خلق لنا موجبات الحمد من النعم، فخلق لنا السماوات والأرض، وأوجد لنا الماء والهواء، ووضع في الأرض أقواتها إلى يوم القيامة. وهذه نعمة يستحق الحمد عليها، لأنه جل جلاله جعل النعمة تسبق الوجود الإنساني... تستقبله. بل إن الله جل جلاله قبل أن يخلق آدم أبا البشر جميعا سبقته الجنة التي عاش فيها لا يتعب ولا يشقى، فقد خُلِق فَوَجَد ما يأكله وما يشربه وما يقيم حياته وما يتمتع به موجودا وجاهزا ومعدا قبل الخلق..

وحينما نزل آدم وحواء إلى الأرض كانت النعمة قد سبقتهما، فوجدا ما يأكلانه وما يشربانه، وما يقيم حياتهما.. ولو أن النعمة لم تسبق الوجود الإنساني وخلقت بعده، لهلك الإنسان وهو ينتظر مجيء النعمة.

بل إن العطاء الإلهي للإنسان يعطيه النعمة بمجرد أن يخلق في رحم أمه، فيجد رحما مستعدا لاستقباله وغذاء يكفيه طول مدة الحمل. فإذا خرج إلى الدنيا، يضع الله في صدر أمه لبنا ينزل وقت أن يجوع ويمتنع وقت أن يشبع، وينتهي تماما عندما تتوقف فترة الرضاعة. ويجد أبا وأما يوفران له مقومات حياته حتى يستطيع أن يعول نفسه.. وكل هذا يحدث قبل أن يصل الإنسان إلى مرحلة التكليف، وقبل أن يستطيع أن ينطق: "الحمد لله"...

والله سبحانه وتعالى خلق لنا في هذا الكون أشياء تعطي الإنسان بغير قدرة منه ودون خضوع له، والإنسان عاجز عن أن يقدم لنفسه هذه النعم التي يقدمها الحق تبارك وتعالى له بلا جهد؛ فالشمس تعطي الدفء والحياة للأرض

بلا مقابل وبلا فعل من البشر. والمطر ينزل من السماء دون أن يكون لك جهد فيه أو قدرة على إنزاله. والهواء موجود حولك في كل مكان تتنفس منه دون جهد منك ولا قدرة. والأرض تعطيك الثمر بمجرد أن تبذر فيها الحب وتسقيه، فالزرع ينبت بقدرة الله.. والليل والنهار يتعاقبان حتى تستطيع أن تنام لترتاح، وأن تسعى لحياتك.. لا أنت أتيت بضوء النهار، ولا أنت الذي صنعت ظلمة الليل، ولكنك تأخذ الراحة في الليل والعمل في النهار بقدرة الله دون أن تفعل شيئاً. كل هذه الأشياء لم يخلقها الإنسان، ولكنه خُلق ليجدها في الكون تعطيه بلا مقابل ولا جهد منه. ألا تستحق أن نقول الحمد على نعمة تسخير الكون لخدمة الإنسان؟ إنها تقتضي وجوب الحمد.

وآيات الله سبحانه وتعالى في كونه تستوجب الحمد.. فالحياة التي وهبها الله لنا، والآيات التي أودعها في كونه لتدلنا على أن لهذا الكون خالقاً عظيماً.. والكون بشمسه وقمره ونجومه وأرضه وكل ما فيه مما يفوق قدرة الإنسان..

ولا يستطيع أحد أن يدعيه لنفسه، فلا أحد مهما بلغ علمه يستطيع أن يدعي أنه خلق الشمس، أو أوجد النجوم، أو وضع الأرض أو وضع قوانين الكون، أو أعطى غلافها الجوي.. أو خلق نفسه، أو خلق غيره. هذه الآيات كلها أعطتنا الدليل على وجود قوة عظمى. وهي التي أوجدت وهي التي خلقت.. وهذه الآيات ليست ساكنة، لتجعلنا في سكونها ننساها، بل هي متحركة لتلفتنا إلى خالق هذا الكون العظيم؛ فالشمس تشرق في الصباح فتذكرنا بإعجاز الخلق، وتغيب في المساء لتذكرنا بعظمة الخالق.. وتَعاقُبُ الليل والنهار يَحدُث أمامنا كل يوم علّنا نلتفت و نفيق.. والمطر ينزل من السماء ليذكرنا بألوهية من أنزله.. والزرع يخرج من الأرض يسقى بماء واحد، ومع ذلك فإن كل نوع له لون وله شكل وله مذاق وله رائحة.. وله تكوين يختلف عن الآخر، ويأتي الحصاد فيختفي الثمر والزرع.. ويأتي موسم الزراعة فيعود من جديد. كل شيء في هذا الكون متحرك ليذكرنا إذا نسينا، ويعلمنا أن هناك

خالقاً عظيماً. ونستطيع أن نمضي في ذلك بلا نهاية، فنعم الله لا تعد ولا تحصى.. وكل واحدة منها تدلنا على وجود الحق سبحانه وتعالى، وتعطينا الدليل الإيماني على أن لهذا الكون خالقاً مبدعاً.. وأنه لا أحد يستطيع أن يدعي أنه خلق الكون أو خلق شيئاً مما فيه.. فالقضية محسومة لله.

و"الحمد لله "لأنه وضع في نفوسنا الإيمان الفطري، ثم أيده بإيمان عقلي بآياته في كونه. بل إن كل شيء في هذا الكون يقتضي الحمد، ومع ذلك فإن الإنسان يمتدح الوجود وينسى الموجود!! أنت حين ترى جوهرة جميلة مثلاً أو زهرة غاية في الإبداع، أو أي خلق من خلق الله، يشيع في نفسك الجمال تمتدح هذا الخلق.. فتقول: ما أجمل هذه الزهرة، أو هذه الجوهرة، أو هذا المخلوق.. ولكن المخلوق الذي امتدحته، لم يعط صفة الجمال لنفسه.. فالزهرة لا دخل لها أن تكون جميلة أو غير جميلة، والجوهرة لا دخل لها في عظمة خلقها.. و كل شيء في هذا الكون لم يضع الجمال لنفسه، وإنما الذي وضع الجمال فيه هو الله سبحانه وتعالى،

فلا نخلط ونمدح المخلوق وننسى الخالق.. بل قل: الحمد لله الذي أوجد في الكون ما يذكرنا بعظمة الخالق ودقة الخلق.

ومنهج الله سبحانه وتعالى يقتضي منا الحمد.. لأن الله أنزل منهجه ليرينا طريق الخير، ويبعدنا عن طريق الشر. فمنهج الله الذي أنزله على رسله قد عرّفنا أن الله تبارك وتعالى هو الذي خلق لنا هذا الكون وخلقنا.. فدقة الخلق وعظمته تدلنا على أن هناك خالقا عظيما.. ولكنها لا تستطيع أن تقول لنا من هو، ولا ماذا يريد منا، ولذلك أرسل الله رسله، ليقولوا لنا: إن الذي خلق هذا الكون وخلقنا هو الله تبارك وتعالى، وهذا يستوجب الحمد. ومنهج الله بيّن لنا ماذا يريد الحق منا، وكيف نعبده.. وهذا يستوجب الحمد، ومنهج الله جل جلاله أعطانا الطريق وشرع لنا أسلوب حياتنا تشريعاً حقاً.. فالله تبارك وتعالى لا يفرق بين أحد منا.. ولا يفضل أحداً على أحد إلا بالتقوى، فكلنا خلق متساوون أمام الله جل جلاله.

إذن: فشريعة الحق، وقول الحق، وقضاء الحق، هو من الله، أما تشريعات الناس فلها هوى، تميز بعضاً عن بعض.. وتأخذ حقوق بعض لتعطيها للآخرين، ولذلك نجد في كل منهج بشرى ظلماً بشرياً... ولكن الله سبحانه وتعالى حين نزّل لنا المنهج قضى بالعدل بين الناس.. وأعطى كل ذي حق حقه، وعلّمنا كيف تستقيم الحياة على الأرض عندما تكون بعيدة عن الهوى البشري خاضعة لعدل الله، وهذا يوجب الحمد.

والحق سبحانه وتعالى يستحق منا الحمد؛ لأنه لا يأخذ منا ولكنه يعطينا. فالبشر في كل عصر يحاولون استغلال البشر.. لأنهم يطمعون فيما بين أيديهم من ثروات وأموال، ولكن الله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى ما في أيدينا، إنه يعطينا ولا يأخذ منا، عنده خزائن كل شيء مصداقا لقوله جل جلاله: {وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم} (سورة الحجر 21). فالله سبحانه وتعالى دائم العطاء لخلقه، والخلق يأخذون دائماً من نعم الله، فكأن

العبودية لله تعطيك ولا تأخذ منك شيئاً، وهذا يستوجب الحمد..

والله سبحانه وتعالى في عطائه يحب أن يطلب منه الإنسان، وأن يدعوه، وأن يستعين به، وهذا يوجب الحمد؛ لأنه يقينا الذل في الدنيا. فأنت إن طلبت شيئاً من صاحب نفوذ، فلابد أن يحدد لك موعداً أو وقت الحديث ومدة المقابلة، وقد يضيق بك فيقف لينهي اللقاء.. ولكن الله سبحانه وتعالى بابه مفتوح دائماً.. فأنت بين يديه عندما تريد، وترفع يديك إلى السماء وتدعو وقتما تحب، وتسأل الله ما تشاء، فيعطيك ما تريده إن كان خيراً لك.. ويمنع عنك ما تريده إن كان شراً لك والله سبحانه وتعالى يطلب منك أن تدعوه، وأن تسأله فيقول: {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين} (سورة غافر 60). ويقول سبحانه وتعالى: {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون} (سورة

البقرة 186). والله سبحانه وتعالى يعرف ما في نفسك، ولذلك فإنه يعطيك دون [أن] تسأل، واقرأ الحديث القدسي: يقول رب العزة: (من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين).

والله سبحانه وتعالى عطاؤه لا ينفذ، وخزائنه لا تفرغ، فكلما سألته جل جلاله كان لديه المزيد، ومهما سألته فإنه لا شيء عزيز على الله سبحانه وتعالى، إذا أراد أن يحققه لك...

إذن: عطاء الله سبحانه وتعالى يستوجب الحمد.. ومنعه العطاء يستوجب الحمد.

ووجود الله سبحانه وتعالى الواجب الوجود يستوجب الحمد.. فالله سبحانه يستحق الحمد لذاته، ولولا عدل الله لبغى الناس في الأرض وظلموا، ولكن يد الله تبارك وتعالى حين تبطش بالظالم تجعله عبرة.. فيخاف الناس الظلم.. وكل من أفلت من عقاب الدنيا على معاصيه وظلمه

واستبداده سيلقى الله في الآخرة ليوفيه حسابه.. وهذا يوجب الحمد.. أن يعرف المظلوم أنه سينال جزاءه فتهدأ نفسه ويطمئن قلبه أن هناك يوما سيرى فيه ظالمه وهو يعذب في النار.. فلا تصيبه الحسرة، ويخف إحساسه بمرارة الظلم حين يعرف أن الله قائم على كونه لن يفلت من عدله أحد.

وعندما نقول: "الحمد لله" فنحن نعبر عن انفعالات متعددة.. وهي في مجموعها تحمل العبودية والحب والثناء والشكر والعرفان.. وكثير من الانفعالات التي تملأ النفس، عندما تقول: "الحمد لله" كلها تحمل الثناء العاجز عن الشكر لكمال الله وعطائه.. هذه الانفعالات تأتي وتستقر في القلب.. ثم تفيض من الجوارح على الكون كله.. فالحمد ليس ألفاظاً تردد باللسان، ولكنها تمر أولاً على العقل ليعي معنى النعم.. ثم بعد ذلك تستقر في القلب فينفعل بها.. وتنتقل إلى الجوارح فأقوم وأصلي لله شاكراً ويهتز جسدي كله، وتفيض الدمعة من عيني، وينتقل هذا الانفعال كله

إلى من حولي. ونفسر ذلك قليلا.. هب أنني في أزمة أو كرب أو شيء سيؤدي إلى فضيحة.. وجاءني من يفرج كربي فيعطيني مالاً أو يفتح لي طريقاً.. أول شيء أنني سأعقل هذا الجميل، فأقول: إنه يستحق الشكر.. ثم ينزل هذا المعنى إلى قلبي فيهتز القلب إلى صانع هذا الجميل.. ثم تنفعل جوارحي لأترجم هذه العاطفة إلى عمل يرضيه، على جميل صنعه. ثم أحدث الناس عن جميله وكرمه فيسارعون إلى الالتجاء إليه.. فتتسع دائرة الحمد وتنزل النعم على الناس.. فيمرون بنفس ما حدث لي فتتسع دائرة الشكر والحمد..

والحمد لله تعطينا المزيد من النعم مصداقاً لقوله تبارك وتعالى: {وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد} (سورة إبراهيم 7). وهكذا نعرف أن الشكر على النعمة يعطينا مزيداً من النعمة.. فنشكر عليها فتعطينا المزيد، وهكذا يظل الحمد دائماً والنعمة دائمة..

إننا لو استعرضنا حياتنا كلها.. فكل حركة فيها تقتضي الحمد، عندما ننام ويأخذ الله سبحانه وتعالى أرواحنا، ثم يردها إلينا عندما نستيقظ، فإن هذا يوجب الحمد، فالله سبحانه وتعالى يقول: {الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون} (سورة الزمر 42). وهكذا فإن مجرد استيقاظنا من النوم، وأن الله سبحانه وتعالى رد علينا أرواحنا، وهذا الرد يستوجب الحمد، فإذا قمنا من السرير فالله سبحانه وتعالى هو الذي يعطينا القدرة على الحركة، ولولا عطاؤه ما استطعنا أن نقوم.. وهذا يستوجب الحمد.. فإذا تناولنا إفطارنا، فالله هيأ لنا طعاما من فضله، فهو الذي خلقه، وهو الذي أنبته، وهو الذي رزقنا به، وهذا يستوجب الحمد.. فإذا نزلنا إلى الطريق يسر الله لنا ما ينقلنا إلى مقر أعمالنا وسخره لنا، سواء كنا نملك سيارة أو نستخدم وسائل المواصلات، فله الحمد، وإذا تحدثنا مع الناس فالله

سبحانه وتعالى هو الذي أعطى ألسنتنا القدرة على النطق ولو شاء لجعلها خرساء لا تنطق.. وهذا يستوجب الحمد، فإذا ذهبنا إلى أعمالنا، فالله يسر لنا عملا نرتزق منه لنأكل حلالا.. وهذا يستوجب الحمد.. وإذا عدنا إلى بيوتنا، فالله سخر لنا زوجاتنا ورزقنا بأولادنا، وهذا يستوجب الحمد. إذن: فكل حركة حياة في الدنيا من الإنسان تستوجب الحمد. ولهذا لابد أن يكون الإنسان حامداً دائماً

بل إن الإنسان يجب أن يحمد الله على أي مكروه أصابه؛ لأنه قد يكون الشيء الذي يعتبره شراً هو عينه الخير، فالله تعالى يقول: {يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما أتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينةٍ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً} (سورة النساء 19). إذن فأنت تحمد الله لأن قضاءه خير.. سواء أحببت القضاء أو كرهته فإنه خير لك.. لأنك لا تعلم والله سبحانه وتعالى يعلم. وهكذا من

موجبات الحمد أن تقول الحمد لله على كل ما يحدث لك في دنياك. فأنت بذلك ترد الأمر إلى الله الذي خلقك.. فهو أعلم بما هو خير لك.

فاتحة الكتاب تبدأ بالحمد لله رب العالمين.. لماذا قال الله سبحانه وتعالى رب العالمين؟ نقول إن "الحمد لله" تعني حمد الألوهية. فكلمة الله تعني المعبود بحق.. فالعبادة تكليف والتكليف يأتي من الله لعبيده.. فكأن الحمد أولا لله.. ثم يقتضي بعد ذلك أن يكون الحمد لربوبية الله على إيجادنا من عدم وإمدادنا من عدم.. لأن المتفضل بالنعم قد يكون محمودا عند كل الناس.. لكن التكليف يكون شاقا على بعض الناس.. ولو علم الناس قيمة التكليف في الحياة، لحمدوا الله أن كلفهم ب: افعل ولا تفعل.. لأنه ضمن عدم تصادم حركة حياتهم.. فتمضي حركة الحياة متساندة منسجمة.

إذن فالنعمة الأولى هي أن المعبود أبلغنا منهج عبادته، والنعمة الثانية أنه رب العالمين. في الحياة الدنيا هناك المطيع

والعاصي، والمؤمن وغير المؤمن.. والذين يدخلون في عطاء الألوهية هم المؤمنون.. أما عطاء الربوبية فيشمل الجميع.. ونحن نحمد الله على عطاء ألوهيته، ونحمد الله على عطاء ربوبيته، لأنه الذي خلق، ولأنه رب العالمين.. الكون كله لا يخرج عن حكمه.. فليطمئن الناس في الدنيا أن النعم مستمرة لهم بعطاء ربوبيته.. فلا الشمس تستطيع أن تغيب وتقول لن أشرق، ولا النجوم تستطيع أن تصطدم بعضها ببعض في الكون، ولا الأرض تستطيع أن تمنع إنبات الزرع.. ولا الغلاف الجوي يستطيع أن يبتعد عن الأرض فيختنق الناس جميعا.. إذن فالله سبحانه وتعالى يريد أن يطمئن عباده أنه رب لكل ما في الكون فلا تستطيع أي قوى تخدم الإنسان أن تمنع عن خدمته.. لأن الله سبحانه وتعالى مسيطر على كونه وعلى كل ما خلق.. أنه رب العالمين وهذه توجب الحمد.. أن يهيئ الله سبحانه وتعالى للإنسان ما يخدمه، بل جعله سيدا في كونه.. ولذلك فإن الإنسان المؤمن لا يخاف الغد.. وكيف يخافه والله رب

العالمين. إذا لم يكن عنده طعام فهو واثق أن الله سيرزقه لأنه رب العالمين.. وإذا صادفته أزمة فقلبه مطمئن إلى أن الله سيفرج الأزمة ويزيل الكرب لأنه رب العالمين.. وإذا أصابته نعمة ذكر الله فشكره عليها لأنه رب العالمين الذي أنعم عليه.

فالحق سبحانه وتعالى يحمد على أنه رب العالمين.. لا شيء في كونه يخرج عن مراده الفعلي.. أما عطاء الألوهية فجزاؤه في الآخرة.. فالدنيا دار اختبار للإيمان، والآخرة دار الجزاء.. ومن الناس من لا يعبد الله.. هؤلاء متساوون في عطاء الربوبية مع المؤمنين في الدنيا.. ولكن في الآخرة يكون عطاء الألوهية للمؤمنين وحدهم.. فنعم الله لأصحاب الجنة، وعطاءات الله لمن آمن.. واقرأ قوله تبارك وتعالى: {قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون} (سورة الأعراف، 32).

على أن الحمد لله ليس في الدنيا فقط.. بل هو في الدنيا والآخرة.. الله محمود دائماً.. في الدنيا بعطاء ربوبيته لكل خلقه.. وعطاء ألوهيته لمن آمن به وفي الآخرة بعطائه للمؤمنين من عباده.. واقرأ قوله جل جلاله: {وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين} (سورة الزمر، 47). وقوله تعالى: {دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين} (سورة يونس، 10)...

(ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) (الآية 3)

(مقاتل - 150هـ) : اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر؛ {الرحمن} يعني المترحم، {الرحيم} يعني المتعطف بالرحمة...

(القشيري - 465هـ) : اسمان مشتقان من الرحمة، والرحمة صفة أزلية وهي إرادة النعمة، وهما اسمان موضوعان للمبالغة، ولا فضل بينهما عند أهل التحقيق.

(أبو حامد الغزالي – 505هـ) : ... ذكر الرحمة بعد ذكر "العالمين"، وقبل ذكر {ملك يوم الدين} ينطوي على فائدتين عظيمتين في تفصيل مجاري الرحمة:

إحداهما: تلتفت إلى خلق رب العالمين، فإنه خلق كل واحد منهم على أكمل أنواعه وأفضلها، وآتاه كل ما يحتاج إليه.

وثانيهما: تعلقها بقول {ملك يوم الدين}، فيشير إلى الرحمة في المعاد يوم الجزاء عند الإنعام بالملك المؤبد...

[و] الرحمة ترجع إلى الإرادة مضافة إلى قضاء حاجة المحتاج الضعيف...

(الفخر الرازي – 606هـ) : ...الرحمة عبارة عن التخليص من أنواع الآفات، وعن إيصال الخيرات إلى أصحاب الحاجات...

(القرافي – 684هـ) : يحتمل في "الرحمن الرحيم "أنه يريد الإحسان، أو الإحسان نفسه... قال العلماء: وللكافر من

هذه الرحمة حظ، وذلك الحظ هو تأخير العذاب عنه إلى يوم القيامة بسبب إرساله عليه السلام...

(أبو حيان - 745هـ) : "الرحمن الرحيم": هما مع قوله {رب العالمين} صفات مدح، لأن ما قبلهما علم لم يعرض في التسمية به اشتراك فيخصص، وبدأ أولاً بالوصف بالربوبية؛ فإن كان الرب بمعنى السيد، أو بمعنى المالك، أو بمعنى المعبود، كان صفة فعل للموصوف بها التصريف في المسود والمملوك والعابد بما أراد من الخير والشر، فناسب ذلك الوصف بالرحمانية والرحيمية، لينبسط أمل العبد في العفو إن زل، ويقوى رجاؤه إن هفا...

وفي تكرار الرحمن الرحيم إن كانت التسمية آية من الفاتحة تنبيه على عظم قدر هاتين الصفتين وتأكيد أمرهما...

(ابن عرفة - 803هـ) : قدم أولا الوصف بِرَبّ العَالمِينَ تنبيها على أصل النشأة، وأنه هو الخالق المبدئ، ثم ثنى

بحال الإنسان في الدّنيا من النعم والإحسان، فلولا رحمة الله تعالى لما كان ذلك...

(البقاعي – 885هـ) : ولما كانت مرتبة الربوبية لا تستجمع الصلاح إلا بالرحمة، أتبع ذلك بصفتي {الرحمن الرحيم} ترغيباً في لزوم حمده، وهي تتضمن تثنية تفصيل ما شمله الحمد أصلاً...

(الشربيني – 977هـ) : {الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين} ذكر سبحانه وتعالى في هذه السورة من أسمائه خمسة: الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والمالك. والسبب فيه كأنه يقول: خلقتك أوّلاً، فأنا الله، ثم ربيتك بوجود النعمة، فأنا رب، ثم عصيت فسترت عليك، فأنا رحمن، ثم تبت عليك، فأنا رحيم، ثم لا بدّ من إيصال الجزاء إليك، فأنا مالك يوم الدين. فإن قيل: إنه تعالى ذكر الرحمن الرحيم في التسمية، ثم ذكرهما مرّة ثانية دون الأسماء الثلاثة الباقية، فما الحكمة في ذلك؟ أجيب بأنّ الحكمة في ذلك كأنه قال تعالى:

اذكر أني إله ورب مرّة واحدة، واذكر أني رحمن رحيم مرّتين، ليعلم أنّ العناية بالرحمة أكثر منه بسائر الأمور...

(أبو السعود - 982هـ) : {الرحمن الرحيم} صفتان لله، فإن أريد بما فيهما من الرحمة ما يختص بالعقلاء من العالمين، أو ما يَفيضُ على الكل بعد الخروج إلى طوْر الوجودِ من النعم، فوجهُ تأخيرِهما عن وصف الربوبية ظاهر. وإن أريد ما يعمّ الكلَّ في الأطوار كلِّها حسبما في قوله تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شيء} [الأعراف، الآية 156] فوجهُ الترتيب أن التربية لا تقتضي المقارنة للرحمة، فإيرادُهما في عقبها للإيذان بأنه تعالى متفضلٌ فيها، فاعلٌ بقضية رحمتِه السابقةِ من غير وجوبٍ عليه، وبأنها واقعةٌ على أحسنِ ما يكون، والاقتصارُ على نعته تعالى بهما في التسمية لما أنه الأنسبُ بحال المتبرِّك المستعين باسمه الجليل، والأوفقُ لمقاصده...

(القاسمي - 1332هـ) : {الرحمن الرحيم} إيرادهما عقب وصف الربوبية من باب قرن الترغيب بالترهيب الذي هو أسلوب التنزيل الحكيم...

(رشيد رضا - 1354هـ) : النكتة في [إعادة {الرحمان الرحيم}] ظاهرة وهي أن تربيته تعالى للعالمين ليست لحاجة به إليهم، كجلب منفعة أو دفع مضرة، وإنما هي لعموم رحمته وشمول إحسانه.

وثم نكتة أخرى، وهي أن البعض يفهم من معنى الرب الجبروت والقهر، فأراد الله تعالى أن يذكرهم برحمته وإحسانه، ليجمعوا بين اعتقاد الجلال والجمال، فذكر الرحمان، وهو المفيض للنعم بسعة وتجدد لا منتهى لهما، والرحيم الثابت له وصف الرحمة لا يزايله أبدا. فكأن الله تعالى أراد أن يتحبب إلى عباده، فعرفهم أن ربوبيته ربوبية رحمة وإحسان، ليعلموا أن هذه الصفة هي التي ربما يرجع إليها معنى الصفات، وليتعلقوا به ويقبلوا على اكتساب مرضاته، منشرحة صدورهم، مطمئنة قلوبهم.

ولا ينافي عموم الرحمة وسبقها ما شرعه الله من العقوبات في الدنيا، وما أعده من العذاب في الآخرة، للذين يتعدون الحدود، وينتهكون الحرمات، فإنه وإن سمي قهرا بالنسبة لصورته ومظهره، فهو في حقيقته وغايته من الرحمة، لأن فيه تربية للناس وزجرا لهم عن الوقوع فيما يخرج عن حدود الشريعة الإلهية، وفي الانحراف عنها شقاؤهم وبلاؤهم، وفي الوقوف عندها سعادتهم ونعيمهم، والوالد الرؤوف يربي ولده بالترغيب فيما ينفعه والإحسان عليه إذا قام به، وربما لجأ إلى الترهيب والعقوبة إذا اقتضت ذلك الحال، ولله المثل الأعلى، لا إله إلا هو، وإليه يرجعون...

والحاصل أن معنى الرحمة في بسملة كل سورة هو أن السورة منزلة برحمة الله وفضله فلا يعد ما عساه يكون في أول السورة أو أثنائها من ذكر الرحمة مكررا مع ما في البسملة، وإن كان مقرونا بذكر التنزيل كأول سورة فصلت {حم تنزيل من الرحمان الرحيم} لأن الرحمة في البسملة للمعنى العام في الوحي والتنزيل، وفي السور للمعنى الخاص الذي

تبينه السورة وقد لاحظ هذا المعنى من قال إن البسملة آية مستقلة فاصلة بين السور. وأما من قال إنها آية من كل سورة فمراده أنها تقرأ عند الشروع في قراءتها، وأن من حلف ليقرأن سورة كذا لا يبرأ إلا إذا قرأ البسملة معها، وأن الصلاة لا تصح إلا بقراءتها أيضا...

هذا – وأما حظ العبد من وصف الله بالربوبية، فهو بحمده تعالى عليه وبشكره له باستعمال نعمه التي تتربى بها القوى الجسدية والعقلية فيما خلقت لأجله، فليحسن تربية نفسه وتربية من يوكل إليه تربيته من أهل وولد ومريد وتلميذ، وباستعمال نعمته بهداية الدين في تربية نفسه الروحية والاجتماعية، وكذا تربية من يوكل إليه تربيتهم. وأن لا يبغي كما بغى فرعون فيدعي أنه رب الناس، وكما بغى فراعنة كثيرون، ولا يزالون يبغون بجعل أنفسهم شارعين يتحكمون في دين الناس بوضع العبادات التي لم ينزلها الله تعالى، وبقولهم هذا حلال، وهذا حرام من عند أنفسهم أو من عند أمثالهم، فيجعلون أنفسهم شركاء لله في ربوبيته. قال

تعالى {أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله} وفسر النبي صلى الله عليه وسلم اتخاذ أهل الكتاب أحبارهم ورهبانهم أربابا بمثل هذا.

وأما حظ العبد من وصف الله بالرحمة فهو أن يطالب نفسه بأن يكون رحيما بكل من يراه مستحقا للرحمة من خلق الله تعالى حتى الحيوان الأعجم، وأن يتذكر دائما أنه يستحق بذلك رحمة الله تعالى، قال صلى الله عليه سلم "إنما يرحم الله من عباده الرحماء "رواه الطبراني عن جرير بسند صحيح. وقال "الراحمون يرحمهم الرحمان تبارك وتعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء" رواه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم، من حديث ابن عمر...

ومن مباحث اللغة أن لفظ الرحمان خاص بالله تعالى كلفظ الجلالة. قالوا لم يسمع عن أحد من العرب أنه أطلقه على غير الله تعالى، وكذلك لفظ "رحمان" غير معرّف، قالوا لم يرد إطلاقه على غير الله تعالى إلا في شعر لبعض الذين فتنوا بمسيلمة الكذاب، وقيل إن هذا تعنت وغلو، لا من

الاستعمال المعروف عند العرب. وأما العرب فكانت تطلق لفظ رب على الناس، يقولون: رب الدار ورب هذه الأنعام مثلا لا رب الأنعام مطلقا... ويرى بعض العلماء أن هذا الاستعمال ممنوع في الإسلام، واستدل بالنهي في الحديث عن قول المملوك لسيده "ربي" والصواب أن يمنع ما ورد النص به كهذا الاستعمال وما من شأنه ألا يقال إلا في البارئ تعالى كلفظ الرب بالتعريف مطلقا ولفظ رب الناس، رب المخلوقات، رب العالمين وما أشبه ذلك...

(سيد قطب - 1387هـ) : .. هذه الصفة التي تستغرق كل معاني الرحمة وحالاتها ومجالاتها تتكرر هنا في صلب السورة، في آية مستقلة، لتؤكد السمة البارزة في تلك الربوبية الشاملة، ولتثبت قوائم الصلة الدائمة بين الرب ومربوبيه، وبين الخالق ومخلوقاته. إنها صلة الرحمة والرعاية التي تستجيش الحمد والثناء. إنها الصلة التي تقوم على الطمأنينة وتنبض بالمودة، فالحمد هو الاستجابة الفطرية للرحمة الندية.

(ابن عاشور - 1393هـ) : وتقديم الرحمن على الرحيم لأن الصيغة الدالة على الاتصاف الذاتي أولى بالتقديم في التوصيف من الصفة الدالة على كثرة متعلقاتها...

وإجراء هذين الوصفين العليين على اسم الجلالة بعد وصفه بأنه رب العالمين لمناسبة ظاهرة للبليغ، لأنه بعد أن وصف بما هو مقتضى استحقاقه الحمد من كونه رب العالمين، أي مدبر شؤونهم ومبلغهم إلى كمالهم في الوجودين الجثماني والروحاني، ناسب أن يتبع ذلك بوصفه بالرحمن؛ أي الذي الرحمة له وصف ذاتي تصدر عنه آثاره بعموم واطراد على ما تقدم، فلما كان رباً للعالمين، وكان المربوبون ضعفاء، كان احتياجهم للرحمة واضحاً وكان ترقبهم إياها من الموصوف بها بالذات ناجحاً.

فإن قلت إن الربوبية تقتضي الرحمة لأنها إبلاغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً وذلك يجمع النعم كلها، فلماذا احتيج إلى ذكر كونه رَحماناً؟ قلت: لأن الرحمة تتضمن أن ذلك الإبلاغ إلى الكمال لم يكن على وجه الإعنات، بل كان

برعاية ما يناسب كل نوع وفرد ويلائم طوقه واستعداده، فكانت الربوبية نعمة، والنعمة قد تحصل بضرب من الشدة والأذى، فأتبع ذلك بوصفه بالرحمن تنبيهاً على أن تلك النعم الجليلة وصلت إلينا بطريق الرفق واليسر ونفي الحرج، حتى في أحكام التكاليف والمناهي والزواجر فإنها مرفوقة باليسر بقدر ما لا يبطل المقصود منها، فمعظم تدبيره تعالى بنا هو رحمات ظاهرة، كالتمكين من الأرض وتيسير منافعها، ومنه ما رحمته بمراعاة اليسر بقدر الإمكان مثل التكاليف الراجعة إلى منافعنا كالطهارة وبث مكارم الأخلاق، ومنها ما منفعته للجمهور فتتبعها رحمات الجميع، لأن في رحمة الجمهور رحمة بالبقية في انتظام الأحوال كالزكاة...

(الشعراوي – 1419هـ) : من موجبات الحمد أن الله سبحانه وتعالى رحمن رحيم.. يعطي نعمه في الدنيا لكل عباده عطاء ربوبية، وعطاء الربوبية للمؤمن والكافر، وعطاء الربوبية لا ينقطع إلا عندما يموت الإنسان..

والله لا يحجب نعمه عن عبيده في الدنيا.. ونعم الله لا تعد ولا تحصى...

(الأمثل - ...هـ) : ما نضيفه هنا هو أن هاتين الصفتين تتكرران في البسملة والحمد، «والملتزمون» بذكر البسملة في السّورة بعد الحمد يكررون هاتين الصفتين في صلواتهم اليومية الواجبة ثلاثين مرّة. وبذلك يصفون الله برحمته ستين مرّة يومياً. وهذا في الواقع درس لكل جماعة بشرية سائرة على طريق الله، وتواقة للتخلق بأخلاق الله. إنه درس يبعد البشرية عن تلك الحالات التي شهدها تاريخ الرق في ظل القياصرة والأكاسرة والفراعنة. القرآن يركز على علاقة الرحمة والرأفة بين ربّ العباد والعباد، حيث يقول:} قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً {(الزمر،53). هذه العلاقة نستحضرها مرات يومياً إذ نقول:"اَلرَّحْمنِ الرَّحِيمِ" لنربّي أنفسنا تربية صحيحة في علاقتنا بالله، وفي علاقتنا بأبناء جنسنا.

(مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ) (الآية 4)

(الطبري - 310هـ) : القراء مختلفون في تلاوة "ملك يوم الدين"، فبعضهم يتلوه: "مَلِكِ يوم الدين"، وبعضهم يتلوه: "مالكِ يوم الدين "وبعضهم يتلوه: "مالِكَ يوم الدين" بنصب الكاف...

ولا خلاف بين جميع أهل المعرفة بلغات العرب، أن المِلِكَ من «المُلْك» مشتقّ، وأن المالك من «المِلْك» مأخوذ.

فتأويل قراءة من قرأ ذلك: "مَلِكِ يَوْمِ الدّين" أن لله الملك يوم الدين خالصا دون جميع خلقه الذين كانوا قبل ذلك في الدنيا ملوكا جبابرة ينازعونه المُلْك ويدافعونه الانفراد بالكبرياء والعظمة والسلطان والجبرية، فأيقنوا بلقاء الله يوم الدين أنهم الصّغَرة الأذلة، وأن له دونهم ودون غيرهم المُلْك والكبرياء والعزّة والبهاء، كما قال جل ذكره وتقدست أسماؤه في تنزيله:{يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لاَ يَخْفَى على اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ لِلهِ الوَاحدِ القَهّار} فأخبر تعالى أنه

المنفرد يومئذٍ بالمُلْك دون ملوك الدنيا الذين صاروا يوم الدين من ملكهم إلى ذلة وصَغَار، ومن دنياهم في المعاد إلى خسار.

وأما تأويل قراءة من قرأ: "مالكِ يَوْمِ الدّينِ" فعن عبد الله بن عباس: {مالكِ يَوْمِ الدّينِ} يقول: لا يملك أحد في ذلك اليوم معه حكما كملكهم في الدنيا. ثم قال:{لاَ يَتَكَلّمُونَ إِلاّ مَنْ أذِنَ لَهُ الرّحْمَنُ وقالَ صَوَابا}، وقال: {وَخَشَعَتِ الأصْوَاتُ للرّحْمَنِ} ، وقال: {وَلا يَشْفَعُونَ إِلاّ لِمَنِ ارْتَضَى}...

وأولى التأويلين بالآية وأصحّ القراءتين في التلاوة عندي التأويل الأول، وهي قراءة من قرأ «مَلِك» بمعنى «المُلْك» لأن في الإقرار له بالانفراد بالملك إيجابا لانفراده بالملك وفضيلة زيادة الملك على المالك، إذ كان معلوما أن لا ملِك إلا وهو مالك، وقد يكون المالك لا مَلِكا.

وبعد: فإن الله جل ذكره قد أخبر عباده في الآية التي قبل قوله: {مَالِك يَوْمِ الدينِ} أنه مالك جميع العالمين وسيدهم، ومصلحهم والناظر لهم، والرحيم بهم في الدنيا والآخرة بقوله: {الحَمْدُ لِلّهِ رَبّ العَالَمِينَ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ}.

فإذا كان جل ذكره قد أنبأهم عن مُلْكِهِ إياهم كذلك بقوله: {رَبّ العَالمينَ} فأولى الصفات من صفاته جل ذكره، أن يتبع ذلك ما لم يحوه قوله: {رَبّ العَالَمِينَ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ} مع قرب ما بين الآيتين من المواصلة والمجاورة، إذ كانت حكمته الحكمة التي لا تشبهها حكمة.

وكان في إعادة وصفه جل ذكره بأنه مالك يوم الدين، إعادة ما قد مضى من وصفه به في قوله: "رَبّ العَالَمِينَ" مع تقارب الآيتين وتجاور الصفتين. وكان في إعادة ذلك تكرار ألفاظ مختلفة بمعانٍ متفقة، لا تفيد سامع ما كرّر منه فائدة به إليها حاجة. والذي لم يحوه من صفاته جل ذكره ما قبل قوله: (مالِكِ يَوْمِ الدّينِ) المعنى الذي في قوله: "ملك يوم الدين"، وهو وصفه بأنه المِلك. فبينٌ إذا أن أولى القراءتين

بالصواب وأحق التأويلين بالكتاب: قراءة من قرأه: "ملك يوم الدين"، بمعنى إخلاص الملك له يوم الدين، دون قراءة من قرأ: مالك يوم الدين بمعنى: أنه يملك الحكم بينهم وفصل القضاء متفرّدا به دون سائر خلقه...

وأما تأويل ذلك في قراءة من قرأ: (مالكَ يَوْمِ الدّينِ) فإنه أراد: يا مالك يوم الدين، فنصبه بنيّة النداء والدعاء...

و"الدين" في هذا الموضع بتأويل الحساب والمجازاة بالأعمال... عن عبد الله بن عباس: "يَوْمِ الدّين" قال: يوم حساب الخلائق هو يوم القيامة، يدينهم بأعمالهم، إن خيرا فخير، وإن شرّا فشر، إلا من عفا عنه، فالأمرُ أمره، ثم قال: "ألاَ لَه الخَلْقُ والأمْرُ".

(الماوردي – 450هـ) : ... والفرق بين المالك والملك من وجهين:

أحدهما: أن المالك مَنْ كان خاصَّ المِلكِ، والملِك مَنْ كان عَامَّ المُلْك.

والثاني: أن المالك من اختص بملك الملوك، والملك من اختص بنفوذ الأمر.

واختلفوا أيهما أبلغ في المدح، على ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن المِلك أبلغ في المدح من المالك، لأنَّ كلَّ مَلِكٍ مالِكٌ، وليسَ كلُّ مالِكٍ ملِكاً، ولأن أمر المِلكِ نافذ على المالِكِ.

والثاني: أن مالك أبلغ في المدح من مَلِك، لأنه قد يكون ملكاً على من لا يملك، كما يقال ملك العرب، وملك الروم، وإن كان لا يملكهم، ولا يكون مالكاً إلا على من يملك، ولأن المِلك يكون على الناس وغيرهم.

والثالث: وهو قول أبي حاتم، أن مَالِك أبلغ في مدح الخالق من مَلِك، ومَلِك أبلغ من مدح المخلوق من مالك. والفرق بينهما، أن المالك من المخلوقين، قد يكون غير ملك، وإن كان الله تعالى مالكاً كان ملكاً، فإن وُصف الله تعالى بأنه

ملك، كان ذلك من صفات ذاته، وإن وصف بأنه مالك، كان من صفات أفعاله...

(الطوسي - 460هـ) : ..."و يوم الدين" عبارة عن زمان الجزاء كله، وليس المراد به ما بين المشرق والمغرب وطلوع الشمس إلى غروبها...

(أبو حامد الغزالي - 505هـ) : الملك: هو الذات التي لا تحتاج إلى شيء، ويحتاج إليها كل شيء...

أما قوله: {ملك يوم الدين} فإشارة إلى الآخر في المعاد... مع الإشارة إلى معنى الملك والملك وذلك من صفات الجلال...

استشر من قلبك التعظيم والخوف بقولك: {ملك يوم الدين}، أما العظمة: فلأن لا ملك إلا له، وأما الخوف: فلهول يوم الجزاء والحساب الذي هو مالكه...

(الزمخشري - 538هـ) : وهذه الأوصاف التي أجريت على الله سبحانه من كونه رباً مالكاً للعالمين، لا يخرج منهم شيء

من ملكوته وربوبيته، ومن كونه منعماً بالنعم كلها الظاهرة والباطنة والجلائل والدقائق، و من كونه مالكاً للأمر كله في العاقبة يوم الثواب والعقاب بعد الدلالة على اختصاص الحمد به وأنه به حقيق في قوله: الحمد لله دليل على أنّ من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق منه بالحمد والثناء عليه بما هو أهله.

(الفخر الرازي – 606هـ) : وأما قوله تعالى: {مالك يوم الدين} فاعلم أن الإنسان كالمسافر في هذه الدنيا، وسنوه كالفراسخ، وشهوره كالأميال، وأنفاسه كالخطوات، ومقصده الوصول إلى عالم أخراه؛ لأن هناك يحصل الفوز بالباقيات الصالحات، فإذا شاهد في الطريق أنواع هذه العجائب في ملكوت الأرض والسماوات، فلينظر أنه كيف يكون عجائب حال عالم الآخرة في الغبطة والبهجة والسعادة، إذا عرفت هذا فنقول: قوله {مالك يوم الدين} إشارة إلى مسائل المعاد والحشر والنشر.

(ابن كثير – 774هـ) : المِلك في الحقيقة هو الله عز وجل؛ قال الله تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ} وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا أخنع اسم عند الله رجل تسمى بملك الأملاك ولا مالك إلا الله، وفيهما عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟" وفي القرآن العظيم: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} فأما تسمية غيره في الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز كما قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا}، {وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ} {إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا} وفي الصحيحين: (مثل الملوك على الأسرة).

(البقاعي – 885هـ) : ولما كان الرب المنعوت بالرحمة قد لا يكون مالكاً، وكانت الربوبية لا تتم إلا بالملك المفيد لتمام التصرف، وكان المالك قد لا يكون ملكا ولا يتم

ملكه إلا بالملك المفيد للعزة المقرون بالهيبة المثمرة للبطش والقهر المنتج لنفوذ الأمر، اتبع ذلك بقوله: {ملِك يوم الدين} ترهيباً من سطوات مجده.

قال الحرالّي: واليوم مقدار ما يتم فيه أمر ظاهر، ثم قال: و {يوم الدين} في الظاهر هو يوم ظهور انفراد الحق بإمضاء المجازاة، حيث تسقط دعوى المدعين، وهو من أول يوم الحشر إلى الخلود فالأبد، وهو في الحقيقة من أول يوم نفوذ الجزاء عند مقارفة الذنب في باطن العامل أثر العمل إلى أشد انتهائه في ظاهره، لأن الجزاء لا يتأخر عن الذنب، وإنما يخفى لوقوعه في الباطن وتأخره عن معرفة ظهوره في الظاهر، ولذلك يؤثر عنه عليه الصلاة والسلام:"إن العبد إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء" وأيضاً فكل عقاب يقع في الدنيا على أيدي الخلق فإنما هو جزاء من الله وإن كان أصحاب الغفلة ينسبونه للعوائد، كما قالوا: {مس آباءنا الضراء والسراء} [الأعراف:95] ويضيفونه للمعتدين عليهم بزعمهم، وإنما هو كما قال تعالى: {وما

أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم} [الشورى:30]

وكما ورد عنه عليه الصلاة والسلام: "الحمى من فيح جهنم، وإن شدة الحر والقر من نفَسها "وهي سوط الجزاء الذي أهل الدنيا بأجمعهم مضروبون به، ومنهل التجهّم الذي أجمعهم واردوه من حيث لا يشعر به أكثرهم،... وكذلك ما يصيبهم من عذاب النفس بنوع الغم والهم والقلق والحرص وغير ذلك.

وهو تعالى مَلِك ذلك كله ومالكه، سواء ادعى فيه مدع أو لم يدع، فهو تعالى بمقتضى ذلك كله ملِك يوم الدين ومالكه مطلقاً في الدنيا والآخرة، وإلى الملك أنهى الحق تعالى تنزل أمره العلي، لأن به رجع الأمر عوداً على بدء بالجزاء العائد على آثار ما جبلوا عليه من الأوصاف تظهر عليهم من الأفعال كما قال تعالى:} سيجزيهم وصفهم} [الأنعام:193] و} جزاء بما كانوا يعملون} [السجدة: 17]. [الأحقاف: 4]، [الواقعة: 24] وبه تم انتهاء

الشرف العلي، وهو المجد الذي عبر عنه قوله تعالى: "مجدني عبدي" انتهى.

ولما لم يكن فرق هنا في الدلالة على الملك بين قراءة "مَلِك" وقراءة "مالك" جاءت الرواية بهما، وذلك لأن المالك إذا أضيف إلى اليوم أفاد اختصاصه بجميع ما فيه من جوهر وعرض، فلا يكون لأحد معه أمر، ولا معنى للمَلِك سوى هذا، ولما لم تُفد إضافته إلى الناس هذا المعنى، لم يكن خلاف في {ملِك الناس} [الناس: 2]...

(رشيد رضا - 1354هـ) : مجموع القراءتين "ملك "و"مالك" يدل على المعنيين، فكلاهما ثابت، ولكن القراءة في الصلاة بملك يوم الدين تثير من الخشوع ما لا تثيره القراءة الأخرى التي يفضلها بعضهم لأنها تزيد حرفا في النطق. وورد في الحديث أن للقارئ بكل حرف كذا حسنة، ولكن فاتهم أن حسنة واحدة تكون أكبر تأثيرا في القلب خير من مائة حسنة تكو ن دونها في التأثير...

و "الدين" يطلق في اللغة على الحساب وعلى المكافأة... وعلى الطاعة، وعلى الإخضاع وعلى السياسة... وعلى الشريعة وما يؤخذ العباد به من التكاليف. والمناسب هنا من هذه المعاني الجزاء والخضوع.

وإنما قال {يوم الدين} ولم يقل "الدين" لتعريفنا بأن للدين يوما ممتازا عن سائر الأيام، وهو اليوم الذي يلقى فيه كل عامل عمله ويوفّى جزاءه.

ولسائل أن يسأل: أليست كل الأيام أيام جزاء، وكل ما يلاقيه الناس في هذه الحياة من البؤس هو جزاء على تفريطهم في أداء الحقوق والقيام بالواجبات التي عليهم؟ والجواب بلى، إن أيامنا التي نحن فيها قد يقع فيها الجزاء على أعمالنا، ولكن ربما لا يظهر لأربابه إلا على بعضها دون جميعها. والجزاء على التفريط في العمل الواجب إنما يظهر في الدنيا ظهورا تاما بالنسبة إلى مجموع الأمة لا إلى كل فرد من الأفراد، فما من أمة انحرفت عن صراط الله المستقيم ولم تراع سننه في خليقته إلا وأحل بها العدل الإلهي

ما تستحق من الجزاء كالفقر والذل وفقد العزة والسلطة.

وأما الأفراد فإننا نرى كثيرا من المسرفين الظالمين يقضون أعمارهم منغمسين في الشهوات واللذات، نعم إن ضمائرهم توبخهم أحيانا وإنهم لا يسلمون من المنغصات، وقد يصيبهم النقص في أموالهم، وعافية أبدانهم، وقوة عقولهم.

ولكن هذا كله لا يقابل بعض أعمالهم القبيحة، لا سيما الملوك والأمراء الذين تشقى بأعمالهم السيئة أمم وشعوب. كذلك نرى من المحسنين في أنفسهم وللناس من يبتلى بهضم حقوقه، ولا ينال الجزاء الذي يستحقه على عمله، فإن كان ينال رضاء نفسه وسلامة أخلاقه وصحة ملكاته، فما ذلك كل ما يستحق. وفي ذلك اليوم يوفى كل فرد من أفراد العاملين جزاءه كاملا لا يظلم شيئا منه، كما قال تعالى {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره}. علمنا الله أنه رحمان رحيم ليجذب قلوبنا إليه، ولكن هل يشعر كل عباده بهذه المنة فينجذبوا إليه الانجذاب المطلوب؟ أليس فينا من يسلك كل سبيل، لا

يبالي بمستقيم ومعوج؟ بلى، ولهذا أعقب سبحانه ذكر الرحمة بذكر الدين، فعرفنا أنه يدين العباد ويجازيهم على أعمالهم، فكان من رحمته بعباده أن رباهم بنوعي التربية كليهما: الترغيب والترهيب، كما تشهد بذلك آيات القرآن الكثيرة {نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم. وأن عذابي هو العذاب الأليم}...

(سيد قطب - 1387هـ) : "مالك يوم الدين".. وهذه تمثل الكلية الضخمة العميقة التأثير في الحياة البشرية كلها، كلية الاعتقاد بالآخرة.. والملك أقصى درجات الاستيلاء والسيطرة. و"يوم الدين" هو يوم الجزاء في الآخرة.. وكثيرا ما اعتقد الناس بألوهية الله، وخلقه للكون أول مرة، ولكنهم مع هذا لم يعتقدوا بيوم الجزاء.. والقرآن يقول عن بعض هؤلاء: "ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن: الله"، ثم يحكي عنهم في موضع آخر: "بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون: هذا شيء عجيب. أئذا متنا وكنا ترابا؟ ذلك رجع بعيد!"

والاعتقاد بيوم الدين كلية من كليات العقيدة الإسلامية ذات قيمة في تعليق أنظار البشر وقلوبهم بعالم آخر بعد عالم الأرض، فلا تستبد بهم ضرورات الأرض. وعندئذ يملكون الاستعلاء على هذه الضرورات. ولا يستبد بهم القلق على تحقيق جزاء سعيهم في عمرهم القصير المحدود، وفي مجال الأرض المحصور. وعندئذ يملكون العمل لوجه الله وانتظار الجزاء حيث يقدره الله في الأرض أو في الدار الآخرة سواء، في طمأنينة لله، وفي ثقة بالخير، وفي إصرار على الحق، وفي سعة وسماحة ويقين..

ومن ثم فإن هذه الكلية تعد مفرق الطريق بين العبودية للنزوات والرغائب، والطلاقة الإنسانية اللائقة ببني الإنسان. بين الخضوع لتصورات الأرض وقيمها وموازينها، والتعلق بالقيم الربانية والاستعلاء على منطق الجاهلية. مفرق الطريق بين الإنسانية في حقيقتها العليا التي أرادها الله الرب لعباده، والصور المشوهة المنحرفة التي لم يقدر لها الكمال.

وما تستقيم الحياة البشرية على منهج الله الرفيع ما لم تتحقق هذه الكلية في تصور البشر، وما لم تطمئن قلوبهم إلى أن جزاءهم على الأرض ليس هو نصيبهم الأخير، وما لم يثق الفرد المحدود العمر بأن له حياة أخرى تستحق أن يجاهد لها، وأن يضحي لنصرة الحق والخير معتمدا على العوض الذي يلقاه فيها..

وما يستوي المؤمنون بالآخرة والمنكرون لها في شعور ولا خلق ولا سلوك ولا عمل، فهما صنفان مختلفان من الخلق، وطبيعتان متميزتان لا تلتقيان في الأرض في عمل ولا تلتقيان في الآخرة في جزاء.. وهذا هو مفرق الطريق...

.

(ابن عاشور - 1393هـ) : إتباع الأوصاف الثلاثة المتقدمة بهذا ليس لمجرد سرد صفات من صفاته تعالى، بل هو مما أثارته الأوصاف المتقدمة، فإنه لما وصف تعالى بأنه رب العالمين الرحمن الرحيم، وكان ذلك مفيداً لما قدمناه من

التنبيه على كمال رفقه تعالى بالمربوبين في سائر أكوانهم، ثم التنبيه بأن تصرفه تعالى في الأكوان والأطوار تصرف رحمة عند المعتبر، وكان من جملة تلك التصرفات تصرفات الأمر والنهي المعبر عنها بالتشريع الراجع إلى حفظ مصالح الناس عامة وخاصة، وكان معظم تلك التشريعات مشتملاً على إخراج المكلف عن داعية الهوى الذي يلائمه اتباعه وفي نزعه عنه إرغام له ومشقة، خيف أن تكون تلك الأوصاف المتقدمة في فاتحة الكتاب مخففاً عن المكلفين عِبءَ العصيان لما أمروا به ومثيراً لأطماعهم في العفو عن استخفافهم بذلك، وأن يمتلكهم الطمع فيعتمدوا على ما علموا من الربوبية والرحمة المؤكَّدة فلا يخشوا غائلة الإعراض عن التكاليف، لذلك كان من مقتضى المقام تعقيبه بذكر أنه صاحب الحُكم في يوم الجزاء: {اليوم تجزى كل نفس بما كسبت} [غافر: 17] لأن الجزاء على الفعل سبب في الامتثال والاجتناب لحفظ مصالح العالم، وأحيط ذلك بالوعد والوعيد، وجعل مِصداقُ ذلك الجزاء يوم القيامة،

ولذلك اختير هنا وصف ملك أو مالك مضافاً إلى يوم الدين؛ فأما ملك فهو مؤذن بإقامة العدل وعدم الهوادة فيه، لأن شأن الملك أن يدبر صلاح الرعية ويذب عنهم، ولذلك أقام الناس الملوك عليهم. ولو قيل رب يوم الدين لكان فيه مطمع للمفسدين يجدون من شأن الرب رحمة وصفحاً، وأما مالك فمثل تلك في إشعاره بإقامة الجزاء على أوفق كيفياته بالأفعال المجزي عليها...

وقد تصدى المفسرون والمحتجون للقراءات لبيان ما في كل من قراءة "ملك "بدون ألف وقراءة "مالك" بالألف من خصوصيات بحسب قَصْر النظر على مفهوم كلمة "ملك" ومفهوم كلمة "مالك"، وغفلوا عن إضافة الكلمة إلى يوم الدين، فأما والكلمة مضافة إلى يوم الدين فقد استويا في إفادة أنه المتصرف في شؤون ذلك اليوم دون شبهة مشارك. ولا محيصَ عن اعتبار التوسع في إضافة "ملك" أو "مالك" إلى "يوم" بتأويل شؤون يوم الدين، على أن "مالك" لغة

في "ملك" ففي « القاموس»: « وكأمير وكتف وصاحب ذُو الملك».

ويوم الدين: يوم القيامة، ومبدأ الدار الآخرة، فالدين فيه بمعنى الجزاء، وهذا هو المعنى المتعين هنا، وإن كان للدين إطلاقات كثيرة في كلام العرب. واعلم أن وصفه تعالى بملك يوم الدين تكملة لإجراء مجامع صفات العظمة والكمال على اسمه تعالى، فإنه بعد أن وُصف بأنه رب العالمين وذلك معْنى الإلهية الحقة، إذ يفوق ما كانوا ينعتون به آلهتهم من قولهم إله بني فلان، فقد كانت الأُمم تتخذ آلهة خاصة لها كما حكى الله عن بعضهم: {فقالوا هذا إلهكم وإله موسى} [طه: 88] وقال: {قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة} [الأعراف: 138] وكانت لبعض قبائل العرب آلهة خاصة... فوُصِفَ اللَّهُ تعالى بأنه رب العالمين كلهم، ثم عقب بوَصفي الرحمن الرحيم لإفادة عظم رحمته، ثم وصف بأنه مَلِك يوم الدين وهو وَصْف بما هو أعظم مما قبله لأنه ينبئ عن عموم التصرف في المخلوقات في يوم

الجزاء الذي هو أول أيام الخلود، فمَلِك ذلك الزمان هو صاحب الملك الذي لا يشذ شيء عن الدخول تحت مُلكه، وهو الذي لا ينتهي ملكه ولا ينقضي، فأين هذا الوصف من أوصافِ المبالغة التي يفيضها الناس على أعظم الملوك مثل مَلِك الملوك (شَاهَانْ شَاهْ) ومَلِك الزمان ومَلِك الدنيَا (شاهْ جَهان) وما شابه ذلك. مع ما في تعريف ذلك اليوم بإضافته إلى الدين أي الجزاء من إدماج التنبيه على عدم حكم الله لأن إيثار لفظ الدين (أي الجزاء) للإشعار بأنه معاملة العَامل بما يعادِل أَعماله المِجْزِيَّ عليها في الخير والشر، وذلك العدلُ الخاص، قال تعالى: {اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم} [غافر: 17] فلذلك لم يقلْ ملك يوم الحساب فوَصفُه بأنه ملك يَومِ العدل الصِرّف وصف له بأشرف معنى الملك فإن الملوك تتخلد محَامدهم بمقدار تفاضلهم في إقامة العدل وقد عرف العرب المِدْحةَ بذلك... وإجراء هذه الأوصاف الجليلة على اسمه تعالى إيماء بأن موصوفها حقيق بالحمد الكامل الذي أعربت عنه

جملة {الحمد لله}، لأن تقييد مُفاد الكلام بأوصاف مُتَعَلَّق ذلك المفاد يُشعر بمناسبة بين تلك الأوصاف وبين مُفاد الكلام مُناسبة تفهم من المقام مثل التعليل في مقام هذه الآية.

(الشعراوي - 1419هـ) : إذا كانت كل نعم الله تستحق الحمد.. فإن {مالك يوم الدين} تستحق الحمد الكبير.. لأنه لو لم يوجد يوم للحساب، لنجا الذي ملأ الدنيا شروراً، دون أن يجازى على ما فعل.. ولكان الذي التزم بالتكليف والعبادة وحرم نفسه من متع دنيوية كثيرة إرضاء لله قد شقي في الحياة الدنيا.. ولكن لأن الله تبارك وتعالى هو {مالك يوم الدين}.. فقد أعطى الاتزان للوجود كله.. هذه الملكية ليوم الدين هي التي حمت الضعيف والمظلوم وأبقت الحق في كون الله.. إن الذي منع الدنيا أن تتحول إلى غابة يفتك فيها القوي بالضعيف والظالم بالمظلوم هو أن هناك آخرة وحساباً، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي سيحاسب خلقه، والإنسان المستقيم استقامته تنفع غيره؛ لأنه يخشى

الله ويعطي كل ذي حق حقه ويعفو ويسامح.. إذن كل من حوله قد استفاد من خلقه الكريم ومن وقوفه مع الحق والعدل. أما الإنسان العاصي فيشقى به المجتمع لأنه لا أحد يسلم من شره ولا أحد إلا يصيبه ظلمه.. ولذلك فإن {مالك يوم الدين} هي الميزان.. تعرف أنت أن الذي يفسد في الأرض تنتظره الآخرة.. لن يفلت مهما كانت قوته ونفوذه، فتطمئن اطمئنانا كاملاً إلى أن عدل الله سينال كل ظالم.

على أن {مالك يوم الدين} لها قراءتان.. {مالك يوم الدين}.. وملك يوم الدين. والقراءتان صحيحتان.. والله تبارك وتعالى وصف نفسه في القرآن الكريم بأنه: {مالك يوم الدين}.. ومالك الشيء هو المتصرف فيه وحده.. ليس هناك دخل لأي فرد آخر... فمالك يوم الدين.. معناها أن الله سبحانه وتعالى سيصرف أمور العباد في ذلك اليوم بدون أسباب.. وأن كل شيء سيأتي من الله مباشرة... دون أن يستطيع أحد أن يتدخل ولو ظاهراً..

ففي الدنيا يعطي الله الملك ظاهرا لبعض الناس.. ولكن في يوم القيامة... الأمر مباشر من الله سبحانه وتعالى... الملك في ظاهر الدنيا من الله يهبه لمن يشاء.. واقرأ قوله تعالى: {قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير} (سورة آل عمران 26). ولعل قوله تعالى: {تنزع} تلفتنا إلى أن أحدا في الدنيا لا يريد أن يترك الملك.. ولكن الملك يجب أن ينتزع منه انتزاعا رغما عن إرادته.. والله هو الذي ينزع الملك ممن يشاء.. وهنا نتساءل هل الملك في الدنيا والآخرة ليس لله؟.. نقول الأمر في كل وقت لله.. ولكن الله تبارك وتعالى استخلف بعض خلقه أو مكنهم من الملك في الأرض.. ولذلك نجد في القرآن الكريم قوله تعالى: {ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم

الظالمين} (سورة البقرة 258). والذي حاج إبراهيم في ربه كافر منكر للألوهية.. ومع ذلك فإنه لم يأخذ الملك بذاته.. بل الله جل جلاله هو الذي آتاه الملك.. إذن الله تبارك وتعالى هو الذي استخلف بعض خلقه ومكنهم من ملك الأرض ظاهريا... والملك الظاهر يمتحن فيه العباد، فيحاسبهم الله يوم القيامة.. كيف تصرفوا؟ وماذا فعلوا؟.. ويمتحن فيه الناس هل سكتوا على الحاكم الظالم؟.. وهل استحبوا المعصية؟ أم أنهم وقفوا مع الحق ضد الظلم؟.. والله سبحانه وتعالى لا يمتحن الناس ليعلم المصلح من المفسد.. ولكنه يمتحنهم ليكونوا شهداء على أنفسهم...

و... الملك يتصرف في مُلكه ومُلك غيره.. فيستطيع أن يصدر قوانين بمصادرة أو تأميم ما يملكه غيره.

الذين [قرأوا]: {مالك يوم الدين} أثبتوا لله سبحانه وتعالى أنه مالك هذا اليوم يتصرف فيه كما يشاء دون تدخل من أحد ولو ظاهرا: والذين يقرأون ملك.. يقولون إن الله سبحانه وتعالى في ذلك اليوم يقضي في أمر خلقه حتى

الذين ملكهم في الدنيا ظاهرا.. ونحن نقول عندما يأتي يوم القيامة... الله تبارك وتعالى يريد أن يطمئن عباده.. أنهم إذا كانوا قد ابتلوا بمالك أو ملك يطغى عليهم فيوم القيامة لا مالك ولا ملك إلا الله جل جلاله..

[و] عندما تقول مالك أو ملك يوم الدين.. هناك يوم وهناك الدين.. اليوم عندنا من شروق الشمس إلى شروق الشمس.. هذا ما نسيمه فلكيا يوما.. واليوم في معناه ظرف زمان تقع فيه الأحداث.. والمفسرون يقولون: {مالك يوم الدين} أي مالك أمور الدين لأن ظرف الزمان لا يملك.. نقول إن هذا بمقاييس ملكية البشر، فنحن لا نملك الزمن.. الماضي لا نستطيع أن نعيده، والمستقبل لا نستطيع أن نأتي به.. ولكن الله تبارك وتعالى هو خالق الزمان.. والله جل جلاله لا يحده زمان ولا مكان.. كذلك قوله تعالى: {مالك يوم الدين} لا يحده زمان ولا مكان.. واقرأ قوله سبحانه: {ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون} (سورة

الحج 47). وقوله تعالى: {تعرج الملائكة والروح إليه في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنةٍ} (سورة المعارج 4). وإذا تأملنا هاتين الآيتين نعرف معنى اليوم عند الله تبارك وتعالى.. ذلك أن الله جل جلاله هو خالق الزمن.. ولذلك فإنه يستطيع أن يخلق يوما مقداره ساعة.. ويوما كأيام الدنيا مقداره أربع وعشرون ساعة.. ويوم مقداره ألف سنة.. ويوما مقداره خمسون ألف سنة ويوما مقداره مليون سنة.. فذلك خاضع لمشيئة الله. ويوم الدين موجود في علم الله سبحانه وتعالى. بأحداثه كلها بجنته وناره.. وكل الخلق الذين سيحاسبون فيه.. وعندما يريد أن يكون ذلك اليوم ويخرج من علمه جل جلاله إلى علم خلقه.. سواء أكانوا من الملائكة أم من البشر أو الجان يقول: كن.. فالله وحده هو خالق هذا اليوم.. وهو وحده الذي يحدد كل أبعاده.. واليوم نحن نحدده ظاهرا بأنه أربع وعشرون ساعة.. ونحدده بأنه الليل والنهار.. ولكن الحقيقة أن الليل والنهار موجودان دائما على الأرض.. فعندما تتحرك الأرض، كل حركة هي

نهاية نهار في منطقة وبداية نهار في منطقة أخرى.. وبداية ليل في منطقة ونهاية ليل في منطقة أخرى.. ولذلك في كل لحظة ينتهي يوم ويبدأ يوم.. وهكذا فإن الكرة الأرضية لو أخذتها بنظرة شاملة لما انتهي عليها نهار أبدا.. ولا انتهي عنها ليل أبدا.. إذن فاليوم نسبي بالنسبة لكل بقعة في الأرض.. ولكنه في الحقيقة دائم الوجود على كل الكرة الأرضية. والله سبحانه وتعالى يريد أن يطمئن عباده.. أنهم إذا أصابهم ظلم في الدنيا.. فإن هناك يوما لا ظلم فيه.. وهذا اليوم الأمر فيه لله وحده بدون أسباب.. فكل إنسان لو لم يدركه العدل والقصاص في الدنيا فإن الآخرة تنتظره.. والذي اتبع منهج الله وقيد حركته في الحياة يخبره الله سبحانه وتعالى أن هناك يوم سيأخذ فيه أجره وعظمة الآخرة أنها تعطيك الجنة.. نعيم لا يفوتك ولا تفوته...

قول الحق سبحانه وتعالى: {مالك يوم الدين}.. هي قضية ضخمة من قضايا العقائد.. لأنها تعطينا أن البداية من الله، والنهاية إلى الله جل جلاله.. وبما أننا جميعا سنلقى الله،

فلابد أن نعمل لهذا اليوم.. ولذلك فإن المؤمن لا يفعل شيئا في حياته إلا وفي باله الله.. وأنه سيحاسبه يوم القيامة.. ولكن غير المؤمن يفعل ما يفعل وليس في باله الله.. وعن هؤلاء يقول الحق سبحانه: {والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب} (سورة النور 39). وهكذا من يفعل شيئا وليس في باله الله.. سيفاجأ يوم القيامة بأن الله تبارك وتعالى الذي لم يكن في باله موجود وأنه جل جلاله هو الذي سيحاسبه.

وقوله تعالى: {مالك يوم الدين} هي أساس الدين.. لأن الذي لا يؤمن بالآخرة يفعل ما يشاء.. فمادام يعتقد أنه ليس هناك آخره وليس هناك حساب.. فمم يخاف؟.. ومن أجل من يقيد حركته في الحياة.. إن الدين كله بكل طاعاته وكل منهجه قائم على أن هناك حسابا في الآخرة.. وأن هناك يوما نقف فيه جميعا أمام الله سبحانه وتعالى.. ليحاسب المخطئ ويثيب الطائع.. هذا هو الحكم في كل

تصرفاتنا الإيمانية.. فلو لم يكن هناك يوم نحاسب فيه.. فلماذا نصلي؟.. ولماذا نصوم؟.. ولماذا نتصدق؟.. إن كل حركة من حركات منهج السماء قائمة على أساس ذلك اليوم الذي لن يفلت منه أحد.. والذي يجب علينا جميعا أن نستعد له..

إن الله سبحانه وتعالى سمى هذا اليوم بالنسبة للمؤمنين يوم الفوز العظيم.. والذي يجعلنا نتحمل كل ما نكره ونجاهد في سبيل الله لنستشهد.. وننفق أموالنا لنعين الفقراء و المساكين.. كل هذا أساسه أن هناك يوما سنقف فيه بين يدي الله.. والله تبارك وتعالى سماه يوم الدين.. لأنه اليوم الذي سيحاسب فيه كل إنسان على دينه عمل به أم ضيعه.. فمن آمن واتبع الدين سيكافأ بالخلود في الجنة.. ومن أنكر الدين وأنكر منهج الله سيجازى بالخلود في النار. ومن عدل الله سبحانه وتعالى أن هناك يوما للحساب.. لأن بعض الناس الذين ظلموا وبغوا في الأرض ربما يفلتون من عقاب الدنيا.. هل هؤلاء الذين أفلتوا في الدنيا من

العقاب هل يفلتون من عدل الله؟.. أبدا لن يفلتوا.. بل إنهم انتقلوا من عقاب محدود إلى عقاب خالد.. وأفلتوا من العقاب بقدرة البشر في الدنيا.. إلى عقاب بقدرة الله تبارك وتعالى في الآخرة.. ولذلك لابد من وجود يوم يعيد الميزان.. فيعاقب فيه كل من أفسد في الأرض وأفلت من العقاب... وهو وحده الذي سيقضي بين خلقه. فالله سبحانه وتعالى يعامل خلقه جميعا معاملة متساوية.. وأساس التقوى هو يوم الدين...

(الخليلي – ...هـ) : ...الإِيمان باليوم الآخر ليس من الأمور الهامشية التي لا صلة لها بعمق الفكر ولا أثر لها في واقع الحياة ولكنه ركيزة أساسية في بناء الحياة الفكرية والعملية، ولذلك نجد الإِيمان به يأتي رديف الإِيمان بالله في الذكر سواء في آيات الكتاب أو في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم خصوصا عندما يستدعي الحال تأكيد أمر أو نهي فكثيرا ما يأتي في القرآن {لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ} أو ما يفيد مفاد هذا التعبير في حال التأكيد، كما

نسمع كثيرا في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر.. فليفعل كذا "أو "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يفعل كذا" وفي ذلك ما يكفي برهانا أن الإِيمان باليوم الآخر كالإِيمان بالله في عمق أثرهما في سلوك الإِنسان وقوة تأثيرهما في توجيه ميوله ورغباته وضبط غرائزه ونزعاته، وهذا لأن الإِيمان بالله يعني الإِيمان بالمبدأ والإِيمان باليوم الآخر يعني الإِيمان بالمصير وهل تبقى للإِنسان قيمة إن جهل المبدأ أو المصير، وماذا عسى أن تكون حالة هذا الإِنسان الذي يعيش على هامش الحياة لا يستشعر حقوقا عليه لمبدئه، ولا مسئولية يخشى مغبتها في مصيره وإنما يلهو ويمرح ويأكل ويشرب ويسافد ويتناسل شأن البهائم التي لا عقل لها ولا ضمير أما إذا أدرك واستيقن أن له مُبدئا أخرجه من العدم واسبغ عليه صنوف النعم وبوأه في الأرض ومكن له فيها فإن إدراكه لذلك يحيي في نفسه شعور الافتقار إلى تحري مرضاة هذا المبدئ الكريم والخالق العظيم فيدعوه ذلك إلى أن يستمد منه منهج حياته

وميزانه الذي يعرف به الخير والشر والنفع والضر ولكنه مع ذلك قد يتعامى عن قصد السبيل لما يتجاذبه من طبائع النفس ويتقاضاه من مطالب الحياة فهو واقع بين العواطف الملتهبة والغرائز الجارفة والمطالب المختلفة والدوافع المتنوعة فلا عجب إذا أنساه ذلك ما يجب عليه تجاه خالقه وتجاه الخلق، ولكن إيمانه بالمنقلب الذي يلقى فيه جزاءه يجعله يستعلي على ضرورات حياته ورغبات نفسه ودوافع غرائزه فلا يجعل العواطف أساسا لتعامله مع الناس ولا الغرائز مقياسا للنفع والضر والخير والشر،

وحياة الإِنسان في الأرض حياة محدودة بل حياة وهمية إذ لا يعرف أحد مقدار بقائه فيها فهو ينتظر فراقها بين لحظة وأخرى، فإذا لم يؤمن بحياة أطول يجازى فيها على عمله كان ذلك داعيا إلى التقاعس عن الخير واستغلال ما يمكن من المنافع العاجلة ولو على حساب الآخرين وما الذي يدعوا الإِنسان إلى التفاني في البر وهو غير واثق من استيفاء جزائه في هذه الحياة الدنيا ولا راجٍ حياة أخرى يطمع فيها

أن يلقى أجر ما كسب، وعدم الإيمان بالمعاد مدعاة للقلق بسبب عدم وثوق الإِنسان من التعمير في هذه الدنيا، وهبه معمرا فيها فإنه لا بد له من يوم يواجه فيه الموت الكريه، فهو يحسب حسابه باستمرار ليوم فنائه الذي يفرق ما جمع، ويأتي على ما كسب، وما الليل والنهار إلا مطيته الدؤوب التي تسير به إلى ذلك اليوم وهذا يدعوه -مع عدم اعتقاد المعَاد- إلى التكاسل عن واجباته الاجتماعية، أما إذا وثق بأنه سيعاد كما كان مرة أخرى وسيوفى جزاء عمله فإن وثوقه بذلك سبب لطمأنينة نفسه ونشاطها في العمل...

وقوله تعالى: {مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ} جاء في هذه السورة الكريمة لقرن الترهيب بالترغيب، فإن الآيات السابقة آيات مبشرات، وقد قضت سنة الله في كتابه أن يجتمع الوعد والوعيد غالبا في آية أو آيات متجاورة لحكمة بالغة علمها الله تعالى، فإن العباد بحاجة إلى تربيتهم بالترغيب والترهيب، وإيقاظ الشعور بالخوف والرجاء في نفوسهم لينشطوا

للأعمال الصالحة بباعث الرجاء، وليحاذروا الأعمال السيئة لداعي الخوف،...

(الأمثل - ...هـ) : تعبير "مَالِكِ "يوحي بسيطرة الله التامة وهيمنته المستحكمة على كل شيء وعلى كل فرد في ذلك اليوم، حيث تحضر البشرية في تلك المحكمة الكبرى للحساب، وتقف أمام مالكها الحقيقي للحساب، وترى كل ما فعلته وقالته، بل وحتى ما فكرت به، حاضراً، فلا يضيع أي شيء مهما صغر ولا يُنسى، والإِنسانُ وحده يحمل أعباء نتائج أعماله، بل نتائج كل سنّة استنّها في الأرض أو مشروع أقامه. مالكية الله في ذلك اليوم دون شك ليست ملكية اعتبارية، نظير ملكيتنا للأشياء في هذا العالم. ملكيتنا هذه عقد يبرم بموجب تعامل ووثائق، وينفسخ بموجب تعامل آخر ووثائق أُخرى. لكن ملكية الله لعالم الكون ملكية حقيقية، تتمثل في ارتباط الموجودات ارتباطا خاصاً بالله. ولو انقطع هذا الارتباط لحظة لزالت الموجودات تماماً مثل زوال النور من المصابيح الكهربائية،

حين ينقطع اتصالها بالمولّد الكهربائي. بعبارة أُخرى: مالكية الله نتيجة خالقيته وربوبيته. فالذي خلق الموجودات ورعاها وربّاها، وأفاض عليها الوجود لحظة بلحظة، هو المالك الحقيقي للموجودات.

أما تعبير "يَوْمِ الدِّينِ"، فحيثما ورد في القرآن يعني يوم القيامة...

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) (الآية 5)

(الطبري – 310هـ) : "إِيّاكَ نَعْبُدُ": لك اللهم نخشع ونذلّ ونستكين، إقرارا لك يا ربنا بالربوبية لا لغيرك...

"وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ": وإيّاك ربنا نستعين على عبادتنا إياك وطاعتنا لك وفي أمورنا كلها لا أحد سواك، إذ كان من يكفر بك يستعين في أموره معبوده الذي يعبده من الأوثان دونك، ونحن بك نستعين في جميع أمورنا مخلصين لك العبادة...

فإن قال قائل: وما معنى أمر الله عباده بأن يسألوه المعونة على طاعته؟ أوَ جائز وقد أمرهم بطاعته أن لا يعينهم عليها؟ أم هل يقول قائل لربه: إياك نستعين على طاعتك، إلا وهو على قوله ذلك مُعان، وذلك هو الطاعة، فما وجه مسألة العبد ربه ما قد أعطاه إياه؟ قيل: إن تأويل ذلك على غير الوجه الذي ذهبت إليه، وإنما الداعي ربه من المؤمنين أن يعينه على طاعته إياه، داعٍ أن يعينه فيما بقي من عمره على ما كلفه من طاعته، دون ما قد تَقَضّى ومضى من أعماله الصالحة فيما خلا من عمره. وجازت مسألة العبد ربّه ذلك لأن إعطاء الله عبده ذلك مع تمكينه جوارحه لأداء ما كلفه من طاعته وافترض عليه من فرائضه، فضل منه جل ثناؤه تفضّل به عليه، ولطف منه لطف له فيه، وليس في تركه التفضل على بعض عبيده بالتوفيق مع اشتغال عبده بمعصيته وانصرافه عن محبته، ولا في بسطه فضله على بعضهم مع إجهاد العبد نفسه في محبته ومسارعته إلى طاعته فساد في تدبير ولا جور في حكم،

فيجوز أن يجهل جاهل موضع حكم الله، وأمره عبده بمسألته عونه على طاعته...

الماوردي –450هـ:

وقوله: {نَعْبُدُ} فيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: أن العبادة الخضوع، ولا يستحقها إلا الله تعالى، لأنها أعلى مراتب الخضوع، فلا يستحقها إلا المنعم بأعظم النعم، كالحياة والعقل والسمع والبصر.

والثاني: أن العبادة الطاعة.

والثالث: أنها التقرب بالطاعة.

والأول أظهرها.

الطوسي- 460هـ:

... والعبادة ضرب من الشكر مع ضرب من الخضوع، ولا تستحق إلا بأصول النعم التي هي خلق الحياة والقدرة والشهوة، وما يقدر من النعم لا يوازيه نعمة منعم، فلذلك

اختص الله بأن يعبد وإن استحق بعضنا على بعض الشكر.

والعبادة في اللغة الذلة، يقال: هذا طريق معبد، إذا كان مذللا بكثرة الوطء، وبعير معبد أي مذلل بالركوب... وسمي العبد عبدا لذلته لمولاه...

و"نستعين" أي نطلب منك المعونة على طاعتك وعبادتك... والتقدير في أول السورة إلى ههنا، أي: قل يا محمد هذا الحمد.

(أبو حامد الغزالي – 505هـ) : {إياك نعبد وإياك نستعين} يشتمل على ركنين عظيمين:

أحدهما: العبادة مع الإخلاص بالإضافة إليه خاصة، وذلك هو روح الصراط المستقيم.

والثاني: اعتقاد أنه لا يستحق العبادة سواه، وهو لباب عقيدة التوحيد، وذلك بالتبري عن الحول والقوة، ومعرفة أن الله منفرد بالأفعال كلها، وأن العبد لا يستقل بنفسه دون معونته.

فقوله: {إياك نعبد} إشارة إلى تحلية النفس بالعبادة والإخلاص،

وقوله: {وإياك نستعين} إشارة إلى تزكيتها عن الشرك والالتفات إلى الحول والقوة.

ومدار سلوك الصراط المستقيم على قسمين:

أحدهما: التزكية بنفي ما ينبغي.

والثاني: التحلية بتحصيل ما ينبغي، وقد اشتمل عليهما كلمتان من جملة الفاتحة...

(الزمخشري - 538هـ) : والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل، ومنه: ثوب ذو عبدة إذا كان في غاية الصفاقة وقوّة النسج، ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى، لأنه مولى أعظم النعم فكان حقيقاً بأقصى غاية الخضوع.

[والعدول] عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب يسمى الالتفات في علم البيان... وذلك على عادة افتنانهم في

الكلام وتصرفهم فيه، ولأنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بفوائد.

ومما اختص به هذا الموضع، أنه لما ذكر الحقيق بالحمد، وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات، فقيل: "إياك" يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة، لا نعبد غيرك ولا نستعينه، ليكون الخطاب أدل على أنّ العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به.

[وإنما] قرنت الاستعانة بالعبادة... ليجمع بين ما يتقرّب به العباد إلى ربهم وبين ما يطلبونه ويحتاجون إليه من جهته... [و] قدّمت العبادة على الاستعانة... لأنّ تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة ليستوجبوا الإجابة إليها...

[وأطلقت] الاستعانة... ليتناول كل مستعان فيه، والأحسن أن تراد الاستعانة به وبتوفيقه على أداء العبادة، ويكون قوله: {اهدنا} بياناً للمطلوب من المعونة، كأنه قيل: كيف أعينكم؟ فقالوا: "اهدنا الصراط المستقيم"، وإنما كان أحسن لتلاؤم الكلام وأخذ بعضه بحجزة بعض...

(ابن عطية – 542هـ) : {إياك نعبد} نطق المؤمن به إقرار بالربوبية وتذلل وتحقيق لعبادة الله، إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام وغير ذلك، وقدم المفعول على الفعل اهتماماً، وشأن العرب تقديم الأهم...

و {نعبد} معناه نقيم الشرع والأوامر مع تذلل واستكانة...

وتكررت {إياك} بحسب اختلاف الفعلين، فاحتاج كل واحد منهما إلى تأكيد واهتمام.

و {نستعين} معناه نطلب العون منك في جميع أمورنا، وهذا كله تبرؤ من الأصنام.

(الفخر الرازي - 606هـ) : وأما قوله تعالى {إياك نعبد وإياك نستعين} فاعلم أن العبادة عبارة عن الإتيان بالفعل المأمور به على سبيل التعظيم للآمر... فإنه أمر عباده ببعض الأشياء، ونهاهم عن بعضها، وأنه يجب على الخلائق طاعته والانقياد لتكاليفه...

(ابن كثير - 774هـ) : وقدم المفعول وهو {إياك}، وكرر للاهتمام والحصر، أي: لا نعبد إلا إياك، ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة، والدين يرجع كله إلى هذين المعنيين. وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله عز وجل. وهذا المعنى في غير آية من القرآن، كما قال تعالى: {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [هود: 123] {قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا} [الملك: 29] {رَب الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا} [المزمل: 9]...

(البقاعي - 885هـ) : فلما استجمع الأمر استحقاقاً وتحبيباً، وترغيباً وترهيباً، كان من شأن كل ذي لب الإقبال إليه، وقصر الهمم عليه، فقال عادلاً عن أسلوب الغيبة إلى الخطاب لهذا، مقدماً للوسيلة على طلب الحاجة، لأنه أجدر بالإجابة {إياك} أي يا من هذه الصفات صفاته {نعبد} إرشاداً لهم إلى ذلك، ومعنى {نعبد} كما قال الحرالي: نبلغ الغاية في أنحاء التذلل، وأعقبه بقوله مكرراً للضمير حثاً على المبالغة في طلب العون. {وإياك نستعين} إشارة إلى أن عبادته لا تتهيأ إلا بمعونته، وإلى أن ملاك الهداية بيده. فانظر كيف ابتدأ سبحانه بالذات، ثم دل عليه بالأفعال، ثم رقى إلى الصفات، ثم رجع إلى الذات إيماء إلى أنه الأول والآخر المحيط، فلما حصل الوصول إلى شعبة من علم الأفعال والصفات، علم الاستحقاق للأفراد بالعبادة، فعلم العجز عن الوفاء بالحق، فطلبت الإعانة، فهو كقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم وأبو داود في الصلاة، والترمذي وابن ماجه في الدعاء، والنسائي -

وهذا لفظه- في التعوذ، عن عائشة رضى الله عنها:"أعوذ بعفوك من عقوبتك، وبرضاك من سخطك، وبك منك". ثم أتبعه فيما زاد عن النسائي الاعتراف بالعجز في قوله: "لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك"...

قال الحرالي: وهذه الآيات، أي هذه وما بعدها، مما جاء كلام الله فيه جارياً على لسان خلقه، فإن القرآن كله كلام الله، لكن منه ما هو كلام الله عن نفسه، ومنه ما هو كلام الله عما كان يجب أن ينطق به الخلق على اختلاف ألسنتهم وأحوالهم وترقي درجاتهم ورتب تفاضلهم، مما لا يمكنهم البلوغ إلى كنهه لقصورهم وعجزهم، فتولى الله الوكيل على كل شيء الإنباء عنهم بما كان يجب عليهم مما لا يبلغ إليه وُسع خلقه، وجعل تلاوتهم لما أنبأ به على ألسنتهم نازلاً لهم منزلة أن لو كان ذلك النطق ظاهراً منهم لطفاً بهم وإتماماً للنعمة عليهم، لأنه تعالى لو وكلهم في ذلك إلى أنفسهم لم يأتوا بشيء تصلح به أحوالهم في دينهم ودنياهم، ولذلك لا يستطيعون شكر هذه النعمة إلا أن يتولى هو تعالى بما

يلقنهم من كلامه مما يكون أداء لحق فضله عليهم بذلك، وإذا كانوا لا يستطيعون الإنباء عن أنفسهم بما يجب عليهم من حق ربهم فكيف بما يكون نبأ عن تحميد الله وتمجيده، فإذاً ليس لهم وصلة إلا تلاوة كلامه العلي بفهم كان ذلك أو بغير فهم، وتلك هي صلاتهم المقسمة التي عبر عنها فيما صح عنه عليه الصلاة والسلام من قوله تعالى: "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين "ثم تلا هذه السورة؛ فجاءت الآيات الثلاث الأول بحمد الله تعالى نفسه، فإذا تلاها العبد قبل الله منه تلاوة عبده كلامه وجعلها منه حمداً وثناء وتمجيدا، وجاءت هذه الآيات على لسان خلقه فكان ظاهرها التزام عُهَد العبادة وهو ما يرجع إلى العبد وعمادها طلب المعونة من الله سبحانه وهو ما يرجع إلى الحق، فكانت بينه وبين عبده وتقدمت بينيّته تعالى، لأن المعونة متقدمة على العبادة وواقعة بها وهو مجاب فيما طلب من المعونة، فمن كانت عليه مؤنة شيء فاستعان الله فيها على مقتضى هذه الآية جاءته المعونة على قدر

مؤنته، فلا يقع لمن اعتمد مقتضى هذه الآية عجز عن مرام أبداً وإنما يقع العجز ببخس الحظ من الله تعالى، والجهل بمقتضى ما أحكمته هذه الآية، والغفلة عن النعمة بها. وفي قوله: {نعبد} بنون الاستتباع إشعار بأن الصلاة بنيت على الاجتماع. انتهى. وفي الآية ندب إلى اعتقاد العجز، واستشعار الافتقار، والاعتصام بحوله وقوته، فاقتضى ذلك توجيه الرغبات إليه بالسؤال فقال: {اهدنا الصراط المستقيم}...

(الآلوسي - 1270هـ) : في سر قوله {نَعْبُدُ} دون أعبد، فقد قيل هو الإشارة إلى حال العبد، كأنه يقول: إلهي ما بلغت عبادتي إلى حيث أذكرها وحدها لأنها ممزوجة بالتقصير، ولكن أخلطها بعبادة جميع العابدين، وأذكر الكل بعبارة واحدة حتى لا يلزم تفريق الصفقة.

وقيل: النكتة في العدول عن الإفراد التحرز عن الوقوع في الكذب، فإنا لم نزل خاضعين لأهل الدنيا متذللين لهم مستعينين في حوائجنا بمن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا

حياتاً ولا موتاً ولا نشوراً، ويا ليت الفحل يهضم نفسه، فكيف يقول أحدنا إياك أعبد وإياك أستعين بالإفراد ويمكن في الجمع أن يقصد تغليب الأصفياء المتقين من الأولياء والمقربين...

وقيل: لو قال إياك أعبد لكان ذلك بمعنى: أنا العابد، ولما قال {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} كان المعنى أني واحد من عبيدك، وفرق بين الأمرين كما يرشدك إليه قوله تعالى حكاية عن الذبيح عليه السلام: {سَتَجِدُنِي إِن شَاء الله مِنَ الصابرين} [الصافات: 2 10]، وقوله تعالى: حكاية عن موسى {سَتَجِدُنِي إِن شَاء الله صَابِرًا} [الكهف: 69] فصبر الذبيح لتواضعه بعدِّ نفسه واحداً من جمع ولم يصبر الكليم لإفراده نفسه مع أن كلاً منهما عليهما السلام قال {إِن شَاء الله}...

[و] في سر تقديم فعل العبادة على فعل الاستعانة... وجوه:

الأول: أن العبادة أمانة كما قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان} [الأحزاب: 72] فاهتم للأداء فقدم.

الثاني: أنه لما نسب المتكلم العبادة إلى نفسه أوهم ذلك تبجحاً واعتداداً منه بما صدر عنه فعقبه بقوله: {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} ليدل على أن العبادة مما لا تتم إلا بمعونة وتوفيق وإذن منه سبحانه...

الرابع: أنها وسيلة فتقدم على طلب الحاجة لأنه أدعى للإجابة.

الخامس: أنها مطلوبة لله تعالى من العباد، والاستعانة مطلوبهم منه سبحانه، فتقديم العبد ما يريده مولاه منه أدل على صدق العبودية من تقديم ما يريده من مولاه.

السادس: أن العبادة واجبة حتماً لا مناص [للعباد] عن الإتيان بها حتى جعلت كالعلة لخلق الإنس والجن فكانت أحق بالتقديم.

السابع: أنها أشد مناسبة بذكر الجزاء، والاستعانة أقوى التئاماً بطلب الهداية.

الثامن: أن مبدأ الإسلام التخصيص بالعبادة والخلوص من الشرك والتخصيص بالاستعانة بعد الرسوخ.

(رشيد رضا – 1354هـ) : إذا تتبعنا آي القرآن وأساليب اللغة واستعمال العرب ل (عَبَد) وما يماثلها ويقاربها في المعني – كخضع وخنع وأطاع وذل – نجد أنه لا شيء من هذه الألفاظ يضاهي "عَبَد "ويحل محلها ويقع موقعها، ولذلك قالوا: إن لفظ "العباد" مأخوذ من العبادة فتكثر إضافته إلى الله تعالى... ولفظ "العبيد" تكثر إضافته إلى غير الله تعالى لأنه مأخوذ من العبودية بمعنى الرق، وفرق بين العبادة والعبودية بذلك المعنى. ومن هنا قال بعض

العلماء إن العبادة لا تكون في اللغة إلا لله تعالى، ولكن استعمال القرآن يخالفه، يغلو العاشق في تعظيم معشوقه والخضوع له غلوا كبيرا حتى يفنى هواه في هواه، وتذوب إرادته في إرادته، ومع ذلك لا يسمى خضوعه هذا عبادة بالحقيقة. ويبالغ كثير من الناس في تعظيم الرؤساء والملوك والأمراء، فترى من خضوعهم لهم وتحريهم مرضاتهم ما لا تراه من المتحنثين القانتين، دع سائر العابدين، ولم يكن العرب يسمون شيئا من هذا الخضوع عبادة، فما هي العبادة إذا؟

تدل الأساليب الصحيحة والاستعمال العربي الصراح على أن العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية، ناشئ عن استشعار القلب عظمة للمعبود لا يعرف منشأها، واعتقاده بسلطة لا يدرك كنهها وماهيتها. وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به، ولكنها فوق إدراكه، فمن ينتهي إلى أقصى الذل لملك من الملوك لا يقال إنه عبده، وإن قبّل موطئ أقدامه، ما دام سبب الذل والخضوع معروفا وهو الخوف

من ظلمه المعهود، أو الرجاء بكرمه المحدود، اللهم إلا بالنسبة إلى الذين يعتقدون أن الملك قوة غيبية سماوية أفيضت على الملوك من الملأ الأعلى، واختارتهم للاستعلاء على سائر أهل الدنيا، لأنهم أطيب الناس عنصرا، وأكرمهم جوهرا، وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد، إلى الكفر والإلحاد، فاتخذوا الملوك آلهة وأربابا وعبدوهم عبادة حقيقة. للعبادة صور كثيرة في كل دين من الأديان، شرعت لتذكير الإنسان بذلك الشعور بالسلطان الإلهي الأعلى الذي هو روح العبادة وسرها، ولكل عبادة من العبادات الصحيحة أثر في تقويم أخلاق القائم بها وتهذيب نفسه، والأثر إنما يكون عن ذلك الروح والشعور الذي قلنا إنه منشأ التعظيم والخضوع، فإذا وجدت صورة العبادة خالية من هذا المعنى، لم تكن عبادة، كما أن صورة الإنسان وتمثاله ليس إنسانا؛ خذ إليك عبادة الصلاة مثلا، وانظر كيف أمر الله بإقامتها، دون مجرد الإتيان بها، وإقامة الشيء هي الإتيان به مقوما كاملا يصدر عن علته وتصدر عنه آثاره،

وآثار الصلاة ونتائجها هي ما أنبأنا الله تعالى بها بقوله {إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر} وقوله عز وجل {إن الإنسان خلق هلوعا، إذا مسه الشر جزوعا، وإذا مسه الخير منوعا، إلا المصلين} وقد توعد الذين يأتون بصورة الصلاة من الحركات والألفاظ مع السهو عن معنى العبادة وسرها فيها المؤدي إلى غايتها بقوله {فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون} فسماهم مصلين لأنهم أتوا بصورة الصلاة، ووصفهم بالسهو عن الصلاة الحقيقية التي هي توجه القلب إلى الله تعالى المذكر بخشيته، والمشعر للقلوب بعظم سلطانه، ثم وصفهم بأثر هذا السهو وهو الرياء ومنع الماعون.

و [قد] ذكر الأستاذ الإمام أن الرياء ضربان: رياء النفاق وهو العمل لأجل رؤية الناس، ورياء العادة وهو العمل بحكمها من غير ملاحظة معنى العمل وسره وفائدته، ولا ملاحظة من يعمل له ويقترب إليه به، وهو ما عليه أكثر

الناس، فإن صلاة أحدهم في طور الرشد والعقل هي عين ما كان يحاكي به أباه في طور الطفولية عندما يراه يصلي يستمر على ذلك بحكم العادة من غير فهم ولا عقل، وليس لله شيء في هذه الصلاة. وقد ورد في بعض الأحاديث أن من لن تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا، وأنها تلف كما يلف الثوب البالي ويضرب بها وجهه. وأما الماعون فهو المعونة والخير الذي تقدم في الآية الأخرى أن من شأن الإنسان أن يكون منوعا له إلا المصلين... والاستعانة طلب المعونة وهي إزالة العجز، والمساعدة على إتمام العمل الذي يعجز المستعين عن الاستقلال به بنفسه.

ثم تكلم الأستاذ الإمام على حصر العبادة والاستعانة في الله تعالى الذي دل عليه تقديم المفعول (إياك) على الفعل (نعبد) و (نستعين)، فقال ما مثاله: أمرنا الله تعالى بأن لا نعبد غيره؛ لأن السلطة الغيبية التي هي وراء الأسباب ليست إلا له دون غيره، فلا يشاركه فيها أحد، فيعظم تعظيم العبادة، وأمرنا بأن لا نستعين بغيره أيضا. وهذا

يحتاج إلى البيان لأنه أمرنا أيضا في آيات أخرى بالتعاون {وتعاونوا على البر والتقوى} فما معنى حصر الاستعانة به مع ذلك؟ الجواب، أن كل عمل يعمله الإنسان تتوقف ثمرته ونجاحه على حصول الأسباب التي اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون مؤدية إليه، وانتفاء الموانع التي من شأنها بمقتضى الحكمة أن تحول دونه، وقد مكن الله تعالى الإنسان بما أعطاه من العلم والقوة من دفع بعض الموانع وكسب بعض الأسباب، وحجب عنه البعض الآخر، فيجب علينا أن نقوم بما في استطاعتنا من ذلك، ونبذل في إتقان أعمالنا كل ما نستطيع من حول وقوة، وأن نتعاون ويساعد بعضنا بعضا على ذلك، ونفوض الأمر فيما وراء كسبنا إلى القادر على كل شيء، ونلجأ إليه وحده، ونطلب المعونة المتممة للعمل والموصلة لثمرته منه سبحانه وتعالى دون سواه، إذ لا يقدر على ما وراء الأسباب الممنوحة لكل البشر على السواء إلا مسبب الأسباب، ورب الأرباب.

فقوله تعالى {وإياك نستعين} متمم لمعنى قوله {إياك نعبد} لأن الاستعانة بهذا المعنى فزع من القلب إلى الله، وتعلق من النفس به، وذلك من مخ العبادة، فإذا توجه العبد بها إلى غير الله تعالى، كان ضربا من ضروب العبادة الوثنية التي كانت ذائعة في زمن التنزيل وقبله، وخصت بالذكر لئلا يتوهم الجهلاء أن الاستعانة بمن اتخذوهم أولياء من دون الله، واستعانوا بهم فيما وراء الأسباب المكتسبة لعامة الناس، هي كالاستعانة بسائر الناس في الأسباب العامة، فأراد الحق جل شأنه أن يرفع هذا اللبس عن عباده ببيان أن الاستعانة بالناس فيما هو في استطاعة الناس إنما هو ضرب من استعمال الأسباب المسنونة، وما منزلتها إلا كمنزلة الآلات فيما هي آلات له، بخلاف الاستعانة بهم في شؤون تفوق القدر والقوى الموهبة لهم، والأسباب المشتركة بينهم، كالاستعانة في شفاء المرض بما وراء الدواء، وعلى غلبة العدو بما وراء العدة والعدة، فإن ذلك مما لا يجوز الفزع

والتوجه فيه إلى غير الله تعالى صاحب السلطان الأعظم، على ما لا يصل إليه سلطان أحد من العالم.

[و] ضرب الأستاذ الإمام مثلا لذلك؛ الزارع يبذل جهده في الحرث والعذق وتسميد الأرض وريها، ويستعين بالله تعالى على إتمام ذلك بمنع الآفات والجوائح السماوية أو الأرضية، ومثل بالتاجر يحذق في اختيار الأصناف ويمهر في صناعة الترويج، ثم يتكل على الله فيما بعد ذلك، ثم قال: ومن هنا تعلمون أن الذين يستعينون بأصحاب الأضرحة والقبور على قضاء حوائجهم، وتيسير أمورهم، وشفاء أمراضهم، ونماء حرثهم وزرعهم، وهلاك أعدائهم، وغير ذلك من المصالح، هم عن صراط التوحيد ناكبون، وعن ذكر الله معرضون.

[ولقد] أرشدتنا هذه الكلمة الوجيزة {وإياك نستعين} إلى أمرين عظيمين هما معراج السعادة في الدنيا والآخرة:

أحدهما: أن نعمل الأعمال النافعة ونجتهد في إتقانها ما استطعنا، لأن طلب المعونة لا يكون إلا على عمل بذل فيه المرء طاقته فلم يوفه حقه، أو يخشى أن لا ينجح فيه، فيطلب المعونة على إتمامه وكماله، فمن وقع من يده القلم على المكتب لا يطلب المعونة من أحد على إمساكه، ومن وقع تحت عبء ثقيل يعجز على النهوض به وحده، يطلب المعونة من غيره على رفعه، ولكن بعد استفراغ القوة في الاستقلال به، وهذا الأمر هو مرقاة السعادة الدنيوية، وركن من أركان السعادة الأخروية.

وثانيهما: ما أفاد الحصر من وجوب تخصيص الاستعانة بالله تعالى وحده فيما وراء ذلك، وهو روح الدين وكمال التوحيد الخالص، الذي يرفع نفوس معتقديه ويخلصها من رق الأغيار، ويفك إرادتهم من أسر الرؤساء الروحانيين، والشيوخ الدجالين، ويطلق عزائمهم من قيد المهيمنين الكاذبين، من الأحياء والميتين، فيكون المؤمن مع الناس حرا

خالصا وسيدا كريما، ومع الله عبدا خاضعا {ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما}.

وأقول أيضا: إن عبادة الله تعالى هي غاية الشكر له في القيام بما يجب لألوهيته، واستعانته هي غاية الشكر له في القيام بما يجب لربوبيته، أما الأول، فظاهر، لأنه هو الإله الحق، فلا يعبد بحق سواه. وأما الثاني: فلأنه هو المربى للعباد، الذي وهب جميع ما تكمل به تربيتهم الصورية والمعنوية.

ومن هنا تعلم أن إيراد ذكر العبادة والاستعانة بعد ذكر اسم الجلالة الأعظم، واسم الرب الأكرم، إنما هو لترتبهما عليهما من قبيل ترتيب النشر على اللف. والاستعانة بهذا المعنى ترادف التوكل على الله وتحل محله، وهو كمال التوحيد والعبادة الخالصة، ولذلك جمع القرآن بينهما في مثل قوله تعالى {ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه}. فهذه الاستعانة هي ثمرة التوحيد واختصاص الله تعالى بالعبادة، فإن من معنى العبادة:

الشعور بأن السلطة الغيبية التي هي وراء الأسباب العامة الموهوبة من الله تعالى لعباده كافة هي لله وحده، كما تنطق به الآية التي استشهدنا بها آنفا على قرن العبادة بالتوكل، فمن كان موحدا خالصا لا يستعين بغير الله تعالى قط، فما كان من أنواع المعونة داخلا في حلقات سلسلة الأسباب كان طلبه بسببه طلبا من الله تعالى، ولكنه يحتاج في تحقق ذلك إلى قصد وملاحظة وشهود قلبي، وما كان غير داخل فيها يتوجه في طلبه إلى الله تعالى بلا واسطة ولا حجاب.

وبهذا البيان تعلم أنه لا منافاة بين التوحيد والتوكل، وبين الأخذ بالأسباب وإقامة سنن الله تعالى فيها، بل الكمال والأدب في الجميع بينهما، فالسيد المالك إذا نصب لعبده وخدمه مائدة يأكلون منها غدوا وعشيا، وجعل لهم خدما يقومون بأمرها، لا يكون طلب الطعام منه إلا بالاختلاف إلى المائدة، وإنما ينبغي أن لا يغفلوا بها وبخدمها عن ذكر صاحب الفضل الذي أنشأها بماله وسخر أولئك الخدم للآكلين عليها، ولا عن حمده وشكره، فهذا مثال مائدة

السكون بأسبابه ومسبباته. والعبد إذا احتاج شيئا من الأشياء التي لم يجعلها سيده مبذولة لجميع عبيده في كل وقت، طلبه منه دون سواه، فإن أظهر الحاجة إلى غيره كان ذلك من قلة ثقته بمولاه، وجعل ذلك الغير في مرتبته أو أجدر منه بالفضل. هذا في العبيد مع السادة الذين لهم نظراء وأنداد، فكيف إذا كان العبد الذي يتجه إلى غير مولاه، لا يجد من يتوجه إليه سواه، إلا أمثاله من العبيد المحتاجين إلى المولى مثله، لأنه هو السيد الصمد، الذي ليس له كفؤا أحد؟.

ثم إن لفظ الاستعانة يشعر بأن يطلب العبد من الرب تعالى الإعانة على شيء له فيه كسب ليعينه على القيام به، وفي هذا تكريم للإنسان بجعل عمله أصلا في كل ما يحتاج إليه لإتمام تربية نفسه وتزكيتها، وإرشاد له إلى أن ترك العمل والكسب، ليس من سنة الفطرة ولا من هدى الشريعة، فمن تركه كان كسولا مذموما لا متوكلا محمودا، وبتذكيره من جهة أخرى بضعفه لكيلا يغتر فيتوهم أنه مستغن

بكسبه عن عناية ربه، فيكون من الهالكين في عاقبة أمره.

إذا تدبرت هذا فهمت منه نكتة من نكت تقديم العبادة على الاستعانة، وهي أن الثانية ثمرة للأولى. ولا ينافي هذا أن العبادة نفسها مما يستعان عليه بالله تعالى ليوفق العابد للإتيان بها على الوجه المرضيّ له عز وجل، لا منافاة بين الأمرين، لأن الثمرة التي تخرج من الشجرة تكون حاوية للنواة التي تخرج منها شجرة أخرى، فالعبادة تكون سببا للمعونة من وجه، والمعونة تكون سببا للعبادة من وجه آخر، كذلك الأعمال تكون الأخلاق التي هي مناشئ الأعمال، فكل منهما سبب ومسبب وعلة ومعلول، والجهة مختلفة فلا دور في المسألة.

وأقول: أيضا إن نكتة تقديم "إياك" على الفعلين "نعبد ونستعين" هي إفادة الاختصاص والحصر على المشهور الذي جرى عليه الأستاذ الإمام كغيره، فالمعنى إذا: نعبدك ولا نعبد غيرك ونستعينك ولا نستعين بسواك.

وقد استخرج له بعض الغواصين على المعاني نكتا أخرى (منها)

أن "إياك" ضمير راجع إلى الله تعالى وقيل إن "إياك" اسم ظاهر مضاف إلى الضمير الذي هو الكاف فتقديمه على الوجهين يؤذن بالاهتمام به الذي هو العلة الأصلية العامة للتقديم في هذه اللغة.

ومنها أنه من الأدب أيضا.

ومنها أن إفادة الحصر بهذا الاسم أو الضمير المقدم على الفعل أبلغ من إفادة الحصر بالضمير المتصل الذي يقرن به ما يدل على ذلك من الكلم، كقولك: إنما نعبدك وإنما نستعينك، أو نستعين بك وحدك.

وإعادة إياك مع الفعل الثاني يفيد أن كلا من العبادة والاستعانة مقصود بالذات، فلا يستلزم كل منهما الآخر، ذلك بأن الاستعانة بالله تعالى يجب أن تكون عامة في كل شيء. ومن الناس من لا يستعين بالله على شيء من أعماله

الاختيارية، زعما منهم أنهم يستقلون بذلك بدون إعانة خاصة منه تعالى...

وأفضل الاستعانة: ما كان على الطاعة والخير. وقد أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيد معاذ يوما وقال "والله إني لأحبك، أوصيك يا معاذ لا تدعنَّ في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك".

(سيد قطب - 1387هـ) : هذه هي الكلية الاعتقادية التي تنشأ عن الكليات السابقة في السورة. فلا عبادة إلا لله، ولا استعانة إلا بالله.

وهنا كذلك مفرق طريق... بين التحرر المطلق من كل عبودية، وبين العبودية المطلقة للعبيد! [ف] هذه الكلية تعلن ميلاد التحرر البشري الكامل الشامل. التحرر من عبودية الأوهام، والتحرر من عبودية النظم، والتحرر من عبودية الأوضاع. وإذا كان الله وحده هو الذي يُعبد، والله وحده هو الذي يُستعان، فقد تخلص الضمير البشري من

استذلال النظم والأوضاع والأشخاص، كما تخلص من استذلال الأساطير والأوهام والخرافات..

(ابن عاشور - 1393هـ) : إذا أتم الحامِدُ حَمْد ربه، يأخذ في التوجه إليه بإظهار الإخلاص له انتقالاً من الإفصاح عن حق الرب إلى إظهار مراعاة ما يقتضيه حقه تعالى على عبده من إفراده بالعبادة والاستعانة... ومُفَاتَحَةُ العظماء بالتمجيد عند التوجه إليهم قَبْلَ أن يُخاطَبوا طريقةٌ عربيةٌ.

واعلم أن من أهم المباحث، البحثَ عن سر العبادة وتأثيرها، وسر مشروعيتها لنا؛ وذلك أن الله تعالى خلق هذا العالم ليكون مظهراً لكمال صفاته تعالى: الوجود، والعلم، والقدرة، وجعل قبول الإنسان للكمالات التي بمقياسها يَعلم نسبة مبلغ علمه وقدرته من علم الله تعالى وقدرته، وأودع فيه الروح والعقل اللذين بهما يزداد التدرج في الكمال ليكون غير قانع بما بلغه من المراتب في أوج الكمال والمعرفة، وأرشده وهداه إلى ما يستعين به على مرامه ليحصل له بالارتقاء العاجل رُقيّ آجل لا يضمحل،

وجعل استعداده لقبول الخيرات كلها عاجلها وآجلها متوقفاً على التلقين من السَّفَرَة الموحَى إليهم بأصول الفضائل.

ولما توقف ذلك على مراقبة النفس في نَفَرَاتها و شَرَدَاتها، وكانت تلك المراقبة تحتاج إلى تذكر المجازي بالخير وضده، شُرعت العبادة لِتَذَكُّرِ ذلك المجازي، لأن عدم حضور ذاته واحتجابَه بسُبحات الجلال يُسَرِّب نسيانَه إلى النفوس، كما أنه جعل نظامه في هذا العالم متصلَ الارتباط بين أفراده، فأمرهم بلزوم آداب المعاشرة والمعاملة لئلا يفسُد النظام، ولمراقبة الدوام على ذلك أيضاً شُرعت العبادة لتذكِّر به، على أن في ذلك التذكر دوامَ الفكر في الخالق وشؤونه، وفي ذلك تخلق بالكمالات تدريجاً، فظهر أن العبادة هي طريق الكمال الذاتي والاجتماعي مَبدأً ونهايةً، وبه يتضح معنى قوله تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} [الذاريات: 56]...

فالعبادة على الجملة لا تخرج عن كونها محقِّقة للمقصد من الخلق، ولما كان سرُّ الخلق والغايةُ منه خفيةَ الإدراكِ، عَرَّفنا الله تعالى إياها بمظهرها وما يحققها جمعاً لعظيم المعاني في جملة واحدة وهي جملة: {إلا ليعبدون}...

(الشنقيطي - أضواء البيان - 1393هـ) : قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} أشار في هذه الآية الكريمة إلى تحقيق معنى لا إله إلا اللَّه: لأن معناها مركب من أمرين: نفي وإثبات.

فالنفي: خلع جميع المعبودات غير اللَّه تعالى في جميع أنواع العبادات، والإثبات: إفراد ربّ السماوات والأرض وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه المشروع. وقد أشار إلى النفي من لا إله إلا اللَّه بتقديم المعمول الذي هو {إِيَّاكَ}، وقد تقرر في الأصول، في مبحث دليل الخطاب الذي هو مفهوم المخالفة، وفي المعاني في مبحث القصر: أن تقديم المعمول من صيغ الحصر.

وأشار إلى الإثبات منها بقوله: {نَعْبُدُ}.

{وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} أي لا نطلب العون إلا منك وحدك؛ لأن الأمر كله بيدك وحدك لا يملك أحد منه معك مثقال ذرة. وإتيانه بقوله: {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، بعد قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}، فيه إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتوكل إلا على من يستحق العبادة؛ لأن غيره ليس بيده الأمر.

(الشعراوي - 1419هـ) : ... حين يستحضر الحق سبحانه وتعالى ذاته بكل هذه الصفات.. التي فيها فضائل الألوهية، ونعم الربوبية.. والرحمة التي تمحو الذنوب، والرهبة من لقائه يوم القيامة، تكون قد انتقلت من صفات الغيب إلى محضر الشهود.. استحضرت جلال الألوهية لله وفيوضات رحمته ونعمه التي لا تحد، وقيوميته يوم القيامة.. عندما تقرأ قوله تعالى: {إياك نعبد} فالعبارة هنا تفيد الخصوصية... الحق سبحانه وتعالى حين قال: {إياك نعبد} قصر العبادة على ذاته الكريمة، لأنه لو قال نعبدك وحدك، فهي لا تؤدي المعنى نفسه؛ لأنك قد تقول نعبدك وحدك ومعك كذا وكذا. ولكن إذا قلت "إياك نعبد

"وقدمت إياك.. تكون قد حسمت الأمر بأن العبادة لله وحده.. فلا يجوز العطف عليها..

فالعبادة خضوع لله سبحانه وتعالى بمنهجه: افعل ولا تفعل.. ولذلك جعل الصلاة أساس العبادة، والسجود هو منتهى الخضوع لله.. لأنك تأتي بوجهك الذي هو أكرم شيء فيك وتضعه على الأرض عند موضع القدم. فيكون هذا هو منتهى الخضوع لله.. ويتم هذا أمام الناس جميعا في الصلاة لإعلان خضوعك لله أمام البشر جميعا. ويستوي في العبودية الغني والفقير والكبير والصغير.. حتى يطرد كل منا الكبر والاستعلاء من قلبه أمام الناس جميعا، فيساوي الحق جل جلاله بين عباده في الخضوع له وفي إعلان هذا الخضوع.

وقول الحق سبحانه وتعالى: {إياك نعبد} تنفي العبودية لغير الله.. أي لا نعبد غير الله ولا يعطف عليها أبدا.. إذن "إياك نعبد" أعطت تخصيص العبادة لله وحده لا إله غيره ولا معبود سواه...

إذن... المطلوب منا... هو العبادة... والله سبحانه وتعالى خلقنا في الحياة لنعبده.. مصداقا لقوله تبارك وتعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} (سورة الذاريات 56) إذن فعلة الخلق هي العبادة.. ولقد تم الخلق لتتحقق العبادة وتصبح واقعا.. ولكن العلة والمعلول لا تنطبق على أفعال الله سبحانه وتعالى فالله سبحانه وتعالى خلقنا لنعبده. ولكن علة الخلق ليس لأن هذه العبادة ستزيد شيئا في ملكه.. وإنما عبادتنا تعود علينا نحن... بالخير في الدنيا والآخرة...

ولكن هل العبادة هي الجلوس في المساجد والتسبيح أم أنها منهج يشمل الحياة كلها... ولو أراد الله سبحانه وتعالى من عباده الصلاة والتسبيح فقط، لما خلقهم مختارين بل خلقهم مقهورين لعبادته ككل ما خلق ما عدا الإنس والجن.. والله تبارك وتعالى له صفة القهر.. من هنا فإنه يستطيع أن يجعل من يشاء مقهورا على عبادته.. مصداقا لقوله جل جلاله: {لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين، إن نشأ ننزل

عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين} (سورة الشعراء 3–4) فلو أراد الله أن يخضعنا لمنهجه قهراً.. لا يستطيع أحد أن يشذ عن طاعته.. وقد أعطانا الله الدليل على ذلك بأن في أجسادنا وفي أحداث الدنيا.. ما نحن مقهورون عليه.. فالجسد مقهور لله في أشياء كثيرة. القلب ينبض ويتوقف بأمر الله دون إرادة منا.. والمعدة تهضم الطعام ونحن لا ندري عنها شيئا.. والدورة الدموية في أجسادنا لا إرادة لنا فيها.. وأشياء كثيرة في الجسد البشري كلها مقهورة لله سبحانه وتعالى.. وليس لإرادتنا دخل في عملها.. وما يقع علي في الحياة الدنيا من أحداث أنا مقهور فيه.. لا أستطيع أن أمنعه من الحدوث.. فلا أستطيع أن أمنع سيارة أن تصدمني.. ولا طائرة أن تحترق بي.. ولا كل ما يقع علي من أقدار الله في الدنيا.. إذن فمنطقة الاختيار في حياتي محددة.. لا أستطيع أن أتحكم في يوم مولدي.. ولا فيمن هو أبي ومن هي أمي.. ولا في شكلي هل أنا طويل أم قصير؟ جميل أم قبيح أو غير ذلك.

إذن فمنطقة الاختيار في الحياة هي المنهج أن أفعل أو لا أفعل. الله سبحانه وتعالى له من كل خلقه عبادة القهر.. ولكنه يريد من الإنس والجن عبادة المحبوبية.. ولذلك خلقنا ولنا اختيار في أن نأتيه أو لا نأتيه.. في أن نطيعه أو نعصيه. في أن نؤمن به أو لا نؤمن.

فإذا كنت تحب الله فأنت تأتيه عن اختيار. تتنازل عما يغضبه حبا فيه، وتفعل ما يطلبه حبا فيه وليس قهرا.. فإذا تخليت عن اختيارك إلى مرادات الله في منهجه.. تكون قد حققت عبادة المحبوبية لله تبارك وتعالى.. وتكون قد أصبحت من عباد الله وليس من عبيد الله.. فكلنا عبيد لله سبحانه وتعالى، والعبيد متساوون فيما يقهرون عليه. ولكن العباد الذين يتنازلون عن منطقة الاختيار لمراد الله في التكليف.. ولذلك فإن الحق جل جلاله.. يفرق في القرآن الكريم بين العباد والعبيد.. يقو تعالى: {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون} (سورة البقرة 186).

ويقول سبحانه وتعالى: {وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً} (سورة الفرقان 63). وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى أعطى أوصاف المؤمنين وسماهم عبادا.. ولكن عندما يتحدث عن البشر جميعا يقول عبيد.. مصداقا لقوله تعالى: {ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد} (سورة آل عمران 182)...

قد يقول قائل: إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز: {ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل} (سورة الفرقان 17). الحديث هنا عن العاصين والضالين. ولكن الله سبحانه وتعالى قال عنهم عباد. نقول إن هذا في الآخرة.. وفي الآخرة كلنا عباد لأننا مقهورون لطاعة الله الواحد المعبود تبارك وتعالى.. لأن الاختيار البشري ينتهي ساعة

الاحتضار.. ونصبح جميعا عباداً لله مقهورين على طاعته لا اختيار لنا في شيء. والله سبحانه وتعالى قد أعطى الإنسان اختياره في الحياة الدنيا في العبودية فلم يقهره في شيء ولا يلزم غير المؤمن به بأي تكليف.. بل إن المؤمن هو الذي يلزم نفسه بالتكليف وبمنهج الله فيدخل في عقد إيماني مع الله تبارك وتعالى.. ولذلك نجد أن الله جل جلاله لا يخاطب الناس جميعا في التكليف.. وإنما يخاطب الذين آمنوا فقط فيقول: {يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون} (سورة البقرة 183). ويقول سبحانه: {يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين} (سورة البقرة 153). أي أن الله جل جلاله لا يكلف إلا المؤمن الذي يدخل في عقد إيماني مع الله. وسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم عندما نضعه في معيار العبادية يكون القمة.. فهو صلى الله عليه وسلم الذي حقق العبادية المرادة لله من

خلق الله كما يحبها الله... وهكذا نعرف المقامات العالية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند خالقه.

والله تبارك وتعالى قرن العبادة له وحده بالاستعانة به سبحانه.. فقال جل جلاله: {إياك نعبد وإياك نستعين} أي لا نعبد سواك ولا نستعين إلا بك. والاستعانة بالله سبحانه وتعالى تخرجك عن ذل الدنيا. فأنت حين تستعين بغير الله فإنك تستعين ببشر مهما بلغ نفوذه وقوته فكلها في حدود بشريته.. ولأننا نعيش في عالم أغيار.. فإن القوي يمكن أن يصبح ضعيفا.. وصاحب النفوذ يمكن أن يصبح في لحظة واحدة طريداً شريداً لا نفوذ له.. ولو لم يحدث هذا. فقد يموت ذلك الذي تستعين به فلا تجد أحدا يعينك. ويريد الله تبارك وتعالى أن يحرر المؤمن من ذل الدنيا.. فيطلب منه أن يستعين بالحي الذي لا يموت.. وبالقوي الذي لا يضعف، وبالقاهر الذي لا يخرج عن أمره أحد.. وإذا استعنت بالله سبحانه وتعالى كان الله جل جلاله بجانبك. وهو وحده الذي يستطيع أن يحول ضعفك

إلى قوة وذُلّكَ إلى عِزٍّ.. والمؤمن دائما يواجه قوى أكبر منه.. ذلك أن الذين يحاربون منهج الله يكونون من الأقوياء ذوي النفوذ الذي يحبون أن يستعبدوا غيرهم.. فالمؤمن سيدخل معهم في صراع.. ولذلك فإن الحق يحض عباده المؤمنين بأنه معهم في الصراع بين الحق والباطل..

وقوله تعالى: {وإياك نستعين} مثل: "إياك نعبد".. أي نستعين بك وحدك وهي دستور الحركة في الحياة.. لأن استعان معناها طلب المعونة، أي أن الإنسان استنفد أسبابه ولكنها خذلته.. حينئذ لابد أن يتذكر أن له ربا لا يعبد سواه. لن يتخلى عنه بل يستعين به.. وحين تتخلى الأسباب فهناك رب الأسباب وهو موجود دائما لا يغفل عن شيء ولا تفوته همسة في الكون.. ولذلك فإن المؤمن يتجه دائما إلى السماء.. والله سبحانه وتعالى يكون معه...

(حسين فضل الله - 1431هـ) : وهذه نقلةٌ بيانيّةٌ في أسلوب السورة الذي ينقل الجوّ من الغَيْبة في حديث الإنسان عن الله في حمده له وتعداده لصفاته، إلى الخطاب

الذي ينطلق فيه الإنسان المؤمن بالله، الحامد له... في ربوبيته للعالمين، ورحمته لهم، وسيطرته على مواقع الجزاء في مصيرهم، ليخاطب الله في موقف التزامٍ ودعاء، وذلك أنَّ هذا النوع من التطلّع الإيماني الفكري لله، في صفات عظمته ورحمته، يجسّد في وعي الإنسان الحضور الإلهي، كما لو كانت المسألة في دائرة الإحساس الطبيعي في عمق ذاته، تماماً كما هي الصدمة الفكرية التي تتحول إلى انطلاقةٍ شعوريةٍ بين يدي الله، ليعبّر له عن إخلاصه في العبودية، وعن توحيده في العبادة وفي الاستعانة، فلا يعبد غيره من موقع أنّه لا يعترف بالألوهية لغيره، ولا يقر بالعبودية لسواه، فهو وحده الإله الذي يستحق العبادة، وهو وحده القادر على الإعانة، على أساس أنه الذي يملك الأمر كلّه، فلا يملك غيره معه شيئاً، ما يجعل الخلق كلّه عاجزاً عن تقديم ما لا يريد الله أن يقدّمه من عونٍ لنفسه وللآخرين من حوله.

وهذا الأسلوب القرآني الرائع، يحدث نقلة من... التصوّر... [إلى] لإقرار الشعوري [و] الالتزام العقيدي. وهذا هو ما نريد أن نتمثّله في الخطّ التربويّ الذي يتحرّك في اتجاه تحويل الحالة الفكرية إلى حالةٍ شعورية، من أجل الوصول إلى مضمون الإيمان الذي هو الوجه الشعوري للمضمون الفكري. وقد نحتاج إلى الإطلالة على خصوصية التعبير عن الالتزام بعبادة الله، والاستعانة به، بطريقة تقديم المفعول به على الفعل والفاعل الذي ينفصل فيه الضمير، فيتحول من ضميرٍ متصلٍ في ما يتمثّل في كلمةٍ «نعبدك» «ونستعينك»، إلى ضميرٍ منفصلٍ يتقدّم على الفعل وذلك في جملة:

" إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينَ"... وذلك من أجل التعبير عن التوحيد العملي الذي هو التجسيد الواقعي للتوحيد الفكري العقيدي، فقد لا يكفي في الإسلام، كما في كلّ الرسالات التوحيدية، أن يعيش الإنسان العقيدة في دائرتها التصورية، بل لا بُدَّ له من أن يعيشها في دائرتها العملية، فيما هي

حركة العبادة في الذات، وفيما هي مسألة الارتباط بالله، المشدود إليه في أوضاع الحياة. بل ربما نجد أنَّ هناك نوعاً من الوحدة بين الجانب النظري والجانب العملي في دعوة الرسالات، بحيث يكون التوحيد في العبادة هو الواجهة للدعوة في ما تختزنه من التوحيد في العقيدة. وهذا ما حدّثنا عنه في دعوة نوح وهود وصالح (ع) التي اختصرتها الفقرة التالية في قوله تعالى: [اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ] [الأعراف: 59]. ولعلّ هذا هو التعبير الحركي الذي انطلقت فيه سورة الفاتحة من أجل تأكيد الدعوة إلى التوحيد في أسلوب الإقرار الذاتي الذي يندفع فيه الإنسان المؤمن، كحالةٍ شعورية ذاتيةٍ، بعيداً عن الجانب التقريري في هذه المسألة العقيدية المهمّة، ما يترك تأثيراً إيجابياً على حركة العقيدة أكثر مما يتركه من التأثير في الأسلوب الخطابي أو التقريري، في ما يمثّله من التعبير عن الصورة في وجودها الواقعي الذي يفرض التوحيد كحقيقةٍ متحركةٍ متجسدةٍ، لا كفكرةٍ ذهنيةٍ في مرحلة الدعوة...

(أبوبكر الجزائري - 1439هـ) : الهداية: من هداية هذه الآية...:

- آداب الدعاء حيث يقدم السائل بين يدي دعائه حمد الله والثناء عليه وتمجيده. وزادت السنة الصلاةَ على النبي [صلى الله عليه وسلم]، ثم يسأل حاجته، فإنه يستجاب له.

(الخليلي - ...هـ) : في المجيء بصيغة الجمع دون الإِفراد في قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} وفيه أقوال:...

ثالثها: أن صيغة الجمع أدعى إلى القبول والاستجابة من صيغة الإِفراد، لأن المخاطب يحشر نفسه في زمرة المخاطبين، ولا يعتد بخطابه بنفسه.

رابعها: أن الإِسلام دين وحدة واجتماع، وليس بدين تشتت وافتراق، ولأجل ذلك شرعت بعض العبادات تؤدى بطريقة جماعية لا على الانفراد، وفي المجيء بصيغة الجمع هنا في هذه السورة التي يجب على المسلم أن يكررها في كل

ركعة من ركعات الصلاة التي هي أهم عبادة في الإِسلام تذكير بواجب الترابط بين المسلمين وإيقاظ لمشاعر الأخوة والمودة بينهم.

و [في] تكرار {إِيَّاكَ}... آراء:

ثالثها: أن في التكرار تعليما للناس بأن يجددوا ذكر الله عند كل حاجة تَعِنُّ.

(الأمثل – ...هـ) : ... نحن محتاجون إلى عونه حتى في العبودية والطاعة، ولذلك ينبغي أن نستعين به في ذلك أيضاً، كي لا تتسرب إلى أنفسنا أوهام العجب والرياء وأمثالها من الانحرافات التي تجهض عبوديتنا.

و استعمال صيغ الجمع في تعبير الآيات كلمة «نَعْبُدُ» و«نَسْتَعِينُ» بصيغة الجمع تشير إلى أن العبادة خاصة الصلاة تقوم على أساس الجمع والجماعة. وعلى العبد أن يستشعر وجوده ضمن الجمع والجماعة، حتى حين يقف متضرّعاً بين يدي الله، فما بالك في المجالات الأُخرى! وهذا

الاتجاه في العبادة يعني رفض الإِسلام لكل ألوان الفردية والانعزال. الصلاة خاصة ابتداء من أذانها وإقامتها حتى تسليمها تدل على أن هذه العبادة هي في الأصل ذات جانب اجتماعي، أي أنها ينبغي أن تؤدّى بشكل جماعة. صحيح أن الصلاة فرادى صحيحة في الإسلام، لكن العبادة الفردية ذات طابع فرعي ثانوي.

الاستعانة به [سبحانه] في كل الأمور يواجه الإِنسان في مسيرته التكاملية قوى مضادة داخلية (في نفسه)، وخارجية (في مجتمعه)، ويحتاج في مقاومة هذه القوى المضادة إلى العون والمساعدة، ومن هنا يلزم على الإِنسان عندما ينهض صباحاً أن يكرر عبارة (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) ليعترف بعبوديته لله سبحانه، وليستمد العون منه في مسيرته الطويلة الشاقة. وعندما يجنّ عليه الليل لا يستسلم للرقاد إلاّ بعد تكرار هذه العبارة أيضاً. والإِنسان المستعين حقّاً، هو الذي تتضاءل أمام عينيه كلّ القوى المتجبّرة المتغطرسة. وكل الجواذب المادية الخادعة، وذلك ما لا يكون إلاّ حينما يرتفع

الإِنسان إلى مستوى القول: (إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمحْيَايَ وَممَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)...

(ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ) (الآية 6)

(مقاتل - 150هـ) : {اهدنا الصراط المستقيم} يعني دين الإسلام، لأن غير دين الإسلام ليس بمستقيم.

(الطبري - 310هـ) : معنى قوله:"اهْدِنا الصِّرَاطَ المسْتَقِيم" في هذا الموضع عندنا: وَفّقنا للثبات عليه، كما رُوي ذلك عن ابن عباس... قال: قال جبريل لمحمد: «قل يا محمد اهدنا الصراط المستقيم»، يقول: ألهمنا الطريق الهادي.

وإلهامه إياه ذلك هو توفيقه له كالذي قلنا في تأويله، ومعناه نظير معنى قوله: "إيّاكَ نَسْتَعِينُ "في أنه مسألة العبد ربه التوفيق للثبات على العمل بطاعته، وإصابة الحقّ والصواب فيما أمره به، ونهاه عنه فيما يستقبل من عمره دون ما قد مضى من أعماله، وتقضى فيما سلف من عمره، كما في قوله: "إيّاكَ نَسْتَعِينُ" مسألة منه ربَّه المعونةَ على أداء ما قد

كلفه من طاعته فيما بقي من عمره، فكان معنى الكلام: اللهم إياك نعبد وحدك لا شريك لك، مخلصين لك العبادة دون ما سواك من الآلهة والأوثان، فأعنا على عبادتك، ووفقنا لما وفقت له من أنعمت عليه من أنبيائك وأهل طاعتك من السبيل والمنهاج...

والعرب تقول: هديت فلانا الطريق، وهديته للطريق، وهديته إلى الطريق، إذا أرشدته إليه وسددته له. وبكل ذلك جاء القرآن؛ قال الله جل ثناؤه: "وقالُوا الحَمْدُ لِلّهِ الّذِي هَدَانَا لِهَذَا" وقال في موضع آخر: "اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إلى صِرَاطٍ مسْتَقِيمٍ" وقال: "اهْدِنا الصّرَاطَ المُسْتَقِيمَ"، وكل ذلك فاشٍ في منطقها موجود في كلامها...

"الصّرَاطَ المُسْتَقِيمَ":

أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعا على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه. وكذلك ذلك في لغة جميع العرب... ثم تستعير العرب الصراط،

فتستعمله في كل قول وعمل وصف باستقامة أو اعوجاج، فتصف المستقيم باستقامته، والمعوجّ باعوجاجه.

والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي، أعني: "اهْدِنا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ" أن يكون معنيا به: وَفِّقنا للثبات على ما ارتضيته ووفقتَ له من أنعمتَ عليه من عبادك من قول وعمل. وذلك هو الصراط المستقيم، لأن من وفق لما وفق له من أنعم الله عليه من النبيين والصديقين والشهداء، فقد وفق للإسلام، وتصديق الرسل، والتمسك بالكتاب، والعمل بما أمر الله به، والانزجار عما زجره عنه، واتباع منهج النبي صلى الله عليه وسلم، ومنهاج أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ، وكل عبد لله صالح. وكل ذلك من الصراط المستقيم.

وقد اختلفت تراجمة القرآن في المعنيّ بالصراط المستقيم. يشمل معاني جميعهم في ذلك ما اخترنا من التأويل فيه، ومما قالته في ذلك، ما رُوي عن عليّ بن أبي طالب رضي

الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال وذَكَرَ القُرآنَ فَقَال: «هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ».

[و] عن جابر بن عبد الله، "اهدنا الصراط المستقيم"، قال: الإسلام، قال: هو أوسع مما بين السماء والأرض.

[و] عن عبد الله بن عباس، قال: قال جبريل لمحمد: قل يا محمد: اهدنا الصراط المستقيم، يقول ألهمنا الطريق الهادي وهو دين الله الذي لا عوج له.

[و] عن عاصم، عن أبي العالية في قوله: "اهْدِنَا الصِّرَاطَ المسْتَقِيمَ" قال: هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه من بعده: أبو بكر وعمر. قال: فذكرت ذلك للحسن، فقال: صدق أبو العالية ونصح...

وإنما وصفه الله بالاستقامة، لأنه صواب لا خطأ فيه.

(الماتريدي - 333هـ) : قال ابن عباس رضي الله عنه:"اهدنا": أرشدنا، والإرشاد والهداية واحد. بل الهداية

في حق التوفيق أقرب إلى فهم الخلق من الإرشاد بما هي أعم في تعارفهم.

ثم القول بالهداية يخرج على وجوه ثلاثة: [...منها]:

التوفيق والعصمة عن زيغه، وذلك معنى قولهم: اللهم اهدنا في من هديت.

وقوله تعالى: "اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم "وصفهم إلى آخر السورة.

ثم تأويل طلب الهداية ممن قد هداه الله تعالى يتوجه وجهين:

أحدهما: طلب الثبات على ما هداه الله تعالى. وعلى هذا معنى زيادات الإيمان، وأنها بمعنى الثبات عليه...

والثاني: أنه في كل حال يخاف على المرء فَقْدُ الهدى... وعلى ذلك قوله تعالى: "يا أيها الذين آمَنوا آمِنوا بالله "[النساء: 136] ونحو ذلك من الآيات.

وقد يحتمل أيضا معنى الزيادة هذا النوع... وأما "الصراط" فهو الطريق والسبيل في جميع التأويل... وقوله تعالى: "المستقيم" قيل: هو القائم بمعنى الثابت بالبراهين والأدلة، لا يزيله شيء، ولا ينقض حججه كيد الكائدين ولا حيل المريبين. وقيل: "المستقيم" الذي يستقيم بمن تمسك به حتى ينجيه ويدخله الجنة.

وقيل: "المستقيم" بمعنى يستقام به كقوله: "والنهار مبصرا" [يونس: 67] أي يبصر به، يدل عليه قوله: "إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا" الآية، فالمستقيم هو المتبع له.

(ابن حزم – 456هـ) : الهدى الذي أعطاه الله تعالى جميع الناس، هو غير الهدى الذي أعطاه بعضهم ومنعه بعضهم فلم يعطهم إياه.

والهدى في اللغة العربية من الأسماء المشتركة التي يقع الاسم منها على مسمين مختلفين بنوعهما فصاعدا، فالهدى يكون بمعنى الدلالة: تقول: فلان هاد للطريق؛ أي هو دليل فيه،

فهذا هو الهدى الذي هدى الله تعالى ثمود وجميع الجن والملائكة، وجميع الإنس كافرهم ومؤمنهم، لأنه تعالى دلهم على الطاعات والمعاصي وعرفهم ما يسخط مما يرضي.

ويكون الهدى بمعنى التوفيق والعون على الخير، والتيسير له، وخلقه لقبول الخير في النفوس، فهذا هو الذي أعطاه الله عز وجل الملائكة كلهم، والمهتدين من الإنس والجن، ومنعه الكفار والفاسقين فيما فسقوا به...

إن الله تعالى قال لرسوله صلى الله عليه وسلم: {ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء}، وقال تعالى: {وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم}. فصح يقينا أن الهدى الواجب على النبي صلى الله عليه وسلم هو الدلالة وتعليم الدين، وهو غير الهدى الذي ليس هو عليه، وإنما هو لله تعالى وحده.

(أبو حامد الغزالي – 505هـ) : {اهدنا الصراط المستقيم}

أول دعاء علمه رب العالمين عباده المسلمين الذين اصطفاهم الله من بين خلقه هذا الدعاء قوله: {اهدنا الصراط المستقيم} أي ثبتنا عليه وأدمه لنا. [منهاج العابدين: 336].

{اهدنا الصراط المستقيم} سؤال ودعاء، وهو مخ العبادة... وهو تنبيه على حاجة الإنسان إلى التضرع والابتهال إلى الله تعالى. وهو روح العبودية، وتنبيه على أن أهم حاجة الهداية إلى الصراط المستقيم، إذ به السلوك إلى الله تعالى كما سبق ذكره. [جواهر القرآن ودرره: 54].

قال عليه السلام: (شيبتني هود وأخواتها) وأراد به قوله تعالى: {فاستقم كما أمرت}، فإن الامتداد على الصراط المستقيم في طلب الوسط بين هذه الأطراف شديد، وهو أدق من الشعر وأحد من السيف كما وصف من حال الصراط في الدار الآخرة، بل يكون في الآخرة مستقيما، إذ يموت المرء على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه، ولذلك يجب في كل ركعة من الصلاة سورة الفاتحة المشتملة

على قوله تعالى: {اهدنا الصراط المستقيم} فإنه أعز الأمور وأعصاها على الطالب، ولو كلف ذلك في خلق واحد لطال العناء فيه، فكيف وقد كلفنا ذلك في جميع الأخلاق مع خروجها عن الحصر... ولا مخلص من هذه المخاطرات إلا بتوفيق الله ورحمته. [معارج القدس: 88 وميزان العمل: 268].

الصراط المستقيم عبارة عن الوسط الحقيقي بين الأخلاق المتضادة، لذلك قد بين الله بهذا الدعاء في سورة الفاتحة، حيث قال: {اهدنا الصراط المستقيم}، مثال ذلك: السخاوة بين التبذير والبخل، والشجاعة بين التهور والجبن، والاقتصاد بين الإسراف والإقتار، والتواضع بين التكبر والدناءة، والعفة بين الشهوة والخمود. فهذه الأخلاق لها طرف إفراط وطرف تقصير، فهو على غاية البعد من كل طرف...

لأجل الاستقامة، وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى في كل يوم سبع عشرة مرة في قوله: {اهدنا الصراط المستقيم} إذ وجب قراءة الفاتحة في كل ركعة.

(الزمخشري – 538هـ) : معنى طلب الهداية وهم مهتدون، طلب زيادة الهدى بمنح الألطاف، كقوله تعالى: {والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى} [محمد: 17]، {والذين جاهدوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} [العنكبوت: 69]. وعن علي وأبيّ رضي الله عنهما: اهدنا ثبتنا.

«السراط»: الجادّة، من سرط الشيء إذا ابتلعه، لأنه يسترط السابلة إذا سلكوه... والمراد طريق الحق، وهو ملة الإسلام...

(ابن عطية – 542هـ) : قوله تعالى: {اهدنا} رغبة لأنها من المربوب إلى الرب، وهكذا صيغة الأمر كلها، فإذا كانت من الأعلى فهي أمر. والهداية في اللغة الإرشاد، لكنها تتصرف على وجوه يعبر عنها المفسرون بغير لفظ الإرشاد،

وكلها إذا تؤملت رجعت إلى الإرشاد... وقد جاء الهدى بمعنى الدعاء، من ذلك قوله تعالى: {ولكل قوم هاد} [الرعد: 7] أي داع، وقوله تعالى: {وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم} [الشورى: 52] وهذا أيضاً يبين فيه الإرشاد، لأنه ابتداء إرشاد، أجاب المدعو أو لم يجب. وقد جاء بمعنى الإلهام، من ذلك قوله تعالى: {أعطى كل شيء خلقه ثم هدى} [طه: 5].

قال المفسرون: معناه ألهم الحيوانات كلها إلى منافعها.

وهذا أيضاً بَيِّنٌ فيه معنى الإرشاد. وقد جاء الهدى بمعنى البيان، من ذلك قوله تعالى: {وأما ثمود فهديناهم} (71) [فصلت: 17].

قال المفسرون: معناه بينا لهم. قال أبو المعالي: معناه دعوناهم، ومن ذلك قوله تعالى: {إن علينا للهدى} [الليل: 12] أي علينا أن نبين، وفي هذا كله معنى الإرشاد...

واختلف المفسرون في المعنى الذي استعير له {الصراط} في هذا الموضع وما المراد به، فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « {الصراط المستقيم} هنا القرآن» وقال جابر: «هو الإسلام يعني الحنيفية... ويجتمع من هذه الأقوال كلها أن الدعوة إنما هي في أن يكون الداعي على سنن المنعم عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين في معتقداته، وفي التزامه لأحكام شرعه، وذلك هو مقتضى القرآن والإسلام، وهو حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه. وهذا الدعاء إنما أمر به المؤمنون وعندهم المعتقدات وعند كل واحد بعض الأعمال.

فمعنى قولهم {اهدنا} فيما هو حاصل عندهم طلب التثبيت والدوام، وفيما ليس بحاصل إما من جهة الجهل به أو التقصير في المحافظة عليه طلب الإرشاد إليه.

وأقول إن كل داع فإنما يريد {الصراط} بكماله في أقواله وأفعاله ومعتقداته، فيحسن على هذا أن يدعو في الصراط على الكمال من عنده بعضه...

و {المستقيم} الذي لا عوج فيه ولا انحراف، والمراد أنه استقام على الحق وإلى غاية الفلاح، ودخول الجنة.

(الفخر الرازي – 606هـ) : أما قوله جل جلاله: {اهدنا الصراط المستقيم} فاعلم أنه عبارة عن طلب الهداية.

ولتحصيل الهداية طريقان:

أحدهما طلب المعرفة بالدليل والحجة. والثاني: بتصفية الباطن والرياضة.

(البيضاوي – 685هـ) : وهداية الله تعالى تتنوع أنواعا لا يحصيها عد كما قال تعالى: {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها} ولكنها تنحصر في أجناس مترتبة:

الأول: إفاضة القوى التي بها يتمكن المرء من الاهتداء إلى مصالحه كالقوة العقلية والحواس الباطنة والمشاعر الظاهرة.

الثاني: نصب الدلائل الفارقة بين الحق والباطل والصلاح والفساد، وإليه أشار حيث قال {وهديناه النجدين} وقال: {وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى}.

الثالث: الهداية بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وإياها عنى بقوله: {وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا} وقوله {إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم}.

الرابع: أن يكشف على قلوبهم السرائر ويريهم الأشياء كما هي بالوحي، أو الإلهام والمنامات الصادقة، وهذا قسم يختص بنيله الأنبياء والأولياء، وإياه عنى بقوله {أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده} وقوله: {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا}. فالمطلوب إما زيادة ما منحوه من الهدى، أو الثبات عليه، أو حصول المراتب المرتبة عليه.

(البقاعي - 885هـ) : {اهدنا الصراط المستقيم} تلقيناً لأهل لطفه، وتنبيهاً على محل السلوك الذي لا وصول بدونه. والهدى؛ قال الحرالي: مرجع الضال إلى ما ضل عنه.

والصراط الطريق الخطر السلوك، والآية من كلام الله تعالى على لسان العلية من خلقه، وجاء مكملاً بكلمة "ال "لأنه الصراط الذي لا يضل بمهتديه لإحاطته ولشمول سريانه وفقاً لشمول معنى الحمد في الوجود كله، وهو الذي تشتتت الآراء وتفرقت الفرق بالميل إلى واحد من جانبيه، وهو الذي ينصب مثاله، وعلى حذو معناه بين ظهراني جهنم يوم الجزاء للعيان، وتحفه مثل تلك الآراء خطاطيف وكلاليب، تجري أحوال الناس معها في المعاد على حسب مجراهم مع حقائقها التي—ابتداء– في يوم العمل.

(القاسمي - 1332هـ) : ... قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في تحقيق هذه الآية: كل عبد مضطر دائما إلى مقصود هذا الدعاء وهو هداية الصراط المستقيم. فإنه لا نجاة من العذاب إلا بهذه الهداية، ولا وصول إلى السعادة إلا به، فمن فاته هذا الهدى فهو: إما من المغضوب عليهم، وإما من الضالين؛ وهذا الاهتداء لا يحصل إلا بهدي الله {من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليا

مرشدا}. فإن الصراط المستقيم: أن تفعل في كل وقت ما أمرت به في ذلك الوقت من علم وعمل، ولا تفعل ما نهيت عنه. وهذا يحتاج في كل وقت إلى أن تعلم: ما أَمَر به في ذلك الوقت، وما نَهَى عنه، وإلى أن يحصل لك إرادة جازمة لفعل المأمور؛ وكراهة لترك المحظور. والصراط المستقيم قد فسر بالقرآن والإسلام وطريق العبودية، وكل هذا حق، فهو موصوف بهذا وبغيره، فحاجته إلى هذه الهداية ضرورية في سعادته ونجاته؛ بخلاف الحاجة إلى الرزق والنصر، فإن الله يرزقه، وإن انقطع رزقه مات، والموت لابد منه، فإن كان من أهل الهداية، كان سعيدا بعد الموت، وكان الموت موصلا له إلى السعادة الدائمة الأبدية، فيكون رحمة في حقه. وكذلك النصر إذا قدّر أنه قُهر وغُلب حتى قتل فإذا كان من أهل الهداية إلى الاستقامة مات شهيدا، وكان القتل من تمام نعمة الله عليه. فتبين أن حاجة العباد إلى الهدى أعظم من حاجتهم إلى الرزق والنصر، بل لا نسبة بينهما، فلهذا كان هذا الدعاء مفروضا عليهم في الصلوات

فرضِها ونفلِها وأيضا فإن هذا الدعاء يتضمن الرزق والنصر: لأنه إذا هدي الصراط المستقيم كان من المتقين {ومن يتّق الله يجعل له مخرجا، ويرزقه من حيث لا يحتسب} وكان من المتوكلين {ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغ أمره}، وكان ممن ينصر الله ورسوله، ومن ينصر الله ينصره وكان من جند الله، وجند الله هم الغالبون. فالهدى التام يتضمن حصول أعظم ما يحصل به الرزق والنصر. فتبين أن هذا الدعاء هو الجامع لكل مطلوب تحصل به كل منفعة، وتندفع به كل مضرة...

(رشيد رضا - 1354هـ) : منح الله تعالى الإنسان أربع هدايات يتوصل بها إلى سعادته:

أولاها: هداية الوجدان الطبيعي والإلهام الفطري، وتكون للأطفال منذ ولادتهم، فإن الطفل بعد ما يولد يشعر بألم الحاجة إلى الغذاء، فيصرخ طالبا له بفطرته، وعندما يصل الثدي إلى فيه يلهم التقامه وامتصاصه.

الثانية: هداية الحواس والمشاعر، وهي متممة للهداية الأولى في الحياة الحيوانية، ويشارك الإنسان فيهما الحيوان الأعجم، بل هو فيهما أكمل من الإنسان، فإن حواس الحيوان وإلهامه يكملان له بعد ولادته بقليل، بخلاف الإنسان، فإن ذلك يكمل فيه بالتدريج في زمن غير قصير، ألا تراه عقب الولادة لا تظهر عليه علامات إدراك الأصوات والمرئيات، ثم بعد مدة يبصر ولكنه لقصر نظره يجهل تحديد المسافات، فيحسب البعيد قريبا فيمد يديه ليتناوله وإن كان قمر السماء، ولا يزال يغلط حسه حتى في طور الكمال.

الهداية الثالثة: العقل، خلق الله الإنسان ليعيش مجتمعا ولم يعط من الإلهام والوجدان ما يكفي مع الحس الظاهر لهذه الحياة الاجتماعية كما أعطى النحل والنمل، فإن الله قد منحها من الإلهام ما يكفيها لأن تعيش مجتمعة يؤدي كل واحد منها وظيفة العمل لجميعها، ويؤدي الجميع وظيفة العمل للواحد، وبذلك قامت حياة أنواعها كما هو مشاهد. أما الإنسان فلم يكن من خاصة نوعه أن يتوفر

له مثل ذلك الإلهام، فحباه الله هداية هي أعلى من هداية الحس والإلهام، وهي العقل الذي يصحح غلط الحواس والمشاعر ويبين أسبابه، وذلك أن البصر يرى الكبير على البعد صغيرا، ويرى العود المستقيم في الماء معوجا، والصفراوي يذوق الحلو مرا. والعقل هو الذي يحكم بفساد مثل هذا الإدراك.

الهداية الرابعة: الدين، يغلط العقل في إدراكه كما تغلط الحواس، وقد يهمل الإنسان استخدام حواسه وعقله فيما فيه سعادته الشخصية والنوعية ويسلك بهذه الهدايات مسالك الضلال، فيجعلها مسخرة لشهواته ولذاته حتى توردِه موارد الهلكة.

فإذا وقعت المشاعر في مزالق الزلل، واسترقت الحظوظ والأهواء العقل فصار يستنبط لها ضروب الحيل، فكيف يتسنى للإنسان مع ذلك أن يعيش سعيدا؟ وهذه الحظوظ والأهواء ليس لها حد يقف الإنسان عنده، وما هو بعائش وحده، وكثيرا ما تتطاول به إلى ما في يد غيره، فهي لهذا

تقتضي أن يعدو بعض أفراده على بعض، فيتنازعون ويتدافعون، ويتجادلون، ويتواثبون ويتناهبون حتى يفني بعضهم بعضا، ولا تغني عنهم تلك الهدايات شيئا؟ فاحتاجوا إلى هداية ترشدهم في ظلمات أهوائهم، إذا هي غلبت على عقولهم، وتبين لهم حدود أعمالهم ليقفوا عندها، ويكفوا أيديهم عما وراءها. ثم إن مما أودع في غرائز الإنسان الشعور بسلطة غيبية متسلطة على الأكوان ينسب إليها كل ما لا يعرف له سببا، لأنها هي الواهبة كل موجود ما به قوام وجوده، وبأن له حياة وراء هذه الحياة المحدودة، فهل يستطيع أن يصل بتلك الهدايات الثلاث إلى تحديد ما يجب عليه لصاحب تلك السلطة الذي خلقه وسواه، ووهبه هذه الهدايات وغيرها، وما فيه سعادته في تلك الحياة الثانية، كلا إنه في أشد الحاجة إلى هذه الهداية الرابعة – الدين – وقد منحه الله تعالى إياها. أشار القرآن إلى أنواع الهداية التي وهبها الله تعالى للإنسان في آيات كثيرة منها

قوله تعالى {وهديناه النجدين} أي طريقي السعادة والشقاوة والخير والشر.

قال الأستاذ الإمام: وهذه تشمل هداية الحواس الظاهرة والباطنة وهداية العقل وهداية الدين. ومنها قوله تعالى: {وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى} أي دللناهم على طريقي الخير والشر، فسلكوا سبل الشر المعبر عنه بالعمى. وذكر غير هاتين الآيتين مما في معناهما، ثم قال: بقي معنا هداية أخرى وهي المعبر عنها بقوله تعالى {أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده} فليس المراد من هذه الهداية ما سبق ذكره، فالهداية في الآيات السابقة بمعنى الدلالة، وهي بمنزلة إيقاف الإنسان على رأس الطريقين المهلك والمنجي، مع بيان ما يؤدى إليه كل منهما، وهي مما تفضل الله به على جميع أفراد البشر. وأما هذه الهداية فهي أخص من تلك والمراد بها إعانتهم وتوفيقهم للسير في طريق الخير والنجاة مع الدلالة، وهي لم تكن ممنوحة لكل أحد كالحواس والعقل وشرع الدين، ولما كان الإنسان عرضة

للخطأ والضلال في فهم الدين وفي استعمال الحواس والعقل على ما قدمنا، كان محتاجا إلى المعونة الخاصة فأمر الله بطلبها منه في قوله {اهدنا الصراط المستقيم} فمعنى {اهدنا الصراط المستقيم} دلنا دلالة تصحبها معونة غيبية من لدنك تحفظنا بها من الضلال والخطأ. وما كان هذا أول دعاء علمنا الله تعالى إياه، إلا لأن حاجتنا إليه أشد من حاجتنا إلى كل شيء سواه...

ثم بين معنى الصراط وهو الطريق...

ومعنى المستقيم وهو ضد المعوج، وقال: ليس المراد بمقابل المستقيم المعوج ذا التمعج والتعاريج، بل المراد كل ما فيه انحراف عن الغاية التي يجب أن ينتهي سالكه إليها. والمستقيم في عرف الهندسة أقرب موصل بين طرفين، وهذا المعنى لازم للمعنى اللغوي كما هو ظاهر بالبداهة. وإنما قلنا إن المراد بمقابل المستقيم كل ما فيه انحراف لأن كل من يميل وينحرف عن الجادة يكون أضل عن الغاية ممن يسير عليها في خط ذي تعاريج، لأن هذا الأخير قد يصل إلى الغاية

بعد زمن طويل. ولكن الأول لا يصل إليها أبدا. بل يزداد عنها بعدا كلما أوغل في السير وانهمك فيه. وقد قالوا إن المراد بالصراط المستقيم الدين أو الحق أو العدل أو الحدود. ونحن نقول إنه جملة ما يوصلنا إلى سعادة الدنيا والآخرة من عقائد وآداب وأحكام وتعاليم.

لم سمي الموصل إلى السعادة من ذلك صراطا وطريقا؟ خذ الحق مثلا وهو العلم الصحيح بالله وبالنبوة و بأحوال الكون والناس تر معنى الصراط فيه واضحا، لأن السبيل أو الصراط ما أسلكه وأسير فيه لبلوغ الغاية التي أقصدها كذلك الحق الذي يبين لي الواقع الثابت في العقيدة الصحيحة هو كالجادة بين السبل المتفرقة المضلة فالطريق الواضح للحس، يشبه الحق للعقل والنفس، سير حسي، وسير معنوي، كذلك إذا اعتبرت هذا المعنى في الحدود والأحكام تجده واضحا – قسمت أحكام الأعمال إلى واجب ومندوب ومباح ومحرم ومكروه فكان هذا مريحا لنا من تمييز الخير من الشر بأنفسنا واجتهادنا، فبيان الأحكام بالهداية الكبرى

وهي الدين كالطريق يسلك بالعمل. ومع هذا تجد الشهوات تتلاعب بالأحكام وترجعها إلى أهوائها كما يصرف السفهاء عقولهم وحواسهم فيما يرديهم. وهذا التلاعب بالدين إنما يصدر من علمائه... ولذلك كان الإنسان محتاجا أشد الاحتياج إلى العناية الإلهية الخاصة لأجل الاستقامة والسير في تلك الهدايات الأربع سيرا مستقيما يوصل إلى السعادة. لهذا نبهنا الله جل شأنه أن نلجأ إليه ونسأله الهداية ليكون عونا لنا ينصرنا على أهوائنا وشهواتنا، وأن تكون استعانتنا في ذلك به لا بسواه، بعد أن نبذل ما نستطيع من الفكر والجهاد في معرفة ما أنزل إلينا من الشريعة والأحكام وأخذ أنفسنا بما نعلم من ذلك. وهذا أفضل ما نطلب فيه المعونة منه جل شأنه لاشتماله على خيري الدنيا والآخرة. فهو بهذه الآية يعلمنا كيف نستعين بعد أن علمنا اختصاصه بالاستعانة في قوله {وإياك نستعين}...

(سيد قطب - 1387هـ) : وبعد تقرير تلك الكليات الأساسية في التصور الإسلامي؛ وتقرير الاتجاه إلى الله وحده بالعبادة والاستعانة.. يبدأ في التطبيق العملي لها بالتوجه إلى الله بالدعاء على صورة كلية تناسب جو السورة وطبيعتها: {اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين}.

(اهدنا الصراط المستقيم).. وفقنا إلى معرفة الطريق المستقيم الواصل؛ ووفقنا للاستقامة عليه بعد معرفته.. فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة لهداية الله ورعايته ورحمته. والتوجه إلى الله في هذا الأمر هو ثمرة الاعتقاد بأنه وحده المعين. وهذا الأمر هو أعظم وأول ما يطلب المؤمن من ربه العون فيه.

فالهداية إلى الطريق المستقيم هي ضمان السعادة في الدنيا والآخرة عن يقين.. وهي في حقيقتها هداية فطرة الإنسان إلى ناموس الله الذي ينسق بين حركة الإنسان وحركة الوجود كله في الاتجاه إلى الله رب العالمين...

(ابن عاشور - 1393هـ) : تهيأ لأصحاب هذه المناجاة أن يسعوا إلى طلب حظوظهم الشريفة من الهداية بعد أن حمدوا الله ووصفوه بصفات الجلالة ثم أتبعوا ذلك بقولهم: {إياك نعبد وإياك نستعين} الذي هو واسطة جامع بين تمجيد الله تعالى وبين إظهار العبودية وهي حظ العبد بأنه عابد ومستعين وأنه قاصر ذلك على الله تعالى، فكان ذلك واسطة بين الثناء وبين الطلب، حتى إذا ظنوا بربهم الإقبال عليهم ورجَوا من فضله، أفضوا إلى سُؤْل حظهم فقالوا: {اهدنا الصراط المستقيم} فهو حظ الطالبين خاصة لما ينفعهم في عاجلهم وآجلهم، فهذا هو التوجيه المناسب لكون الفاتحة بمنزلة الديباجة للكتاب الذي أُنزل هدى للناس ورحمة فتتنزل هاته الجملة مما قبلها منزلة المقصد من الديباجة، أو الموضوع من الخطبة، أو التخلص من القصيدة، ولاختلاف الجمل المتقدمة معها بالخبرية والإنشائية فصلت هذه عنهن...

والأظهر عندي أن المراد بالصراط المستقيم المعارف الصالحات كلها من اعتقاد وعمل بأن يوفقهم إلى الحق والتمييز بينه وبين الضلال على مقادير استعداد النفوس وسعة مجال العقول النيرة والأفعال الصالحة بحيث لا يعتريهم زيغ وشبهات في دينهم، وهذا أولى ليكون الدعاء طلب تحصيل ما ليس بحاصل وقت الطلب، وإنَّ المرء بحاجة إلى هذه الهداية في جميع شؤونه كلها حتى في الدوام على ما هو متلبس به من الخير للوقاية من التقصير فيه أو الزيغ عنه.

والهداية إلى الإسلام لا تُقْصَر على ابتداء اتباعه وتقلده بل هي مستمرة باستمرار تشريعاته وأحكامه بالنص أو الاستنباط. وبه يظهر موقع قوله: {غير المغضوب عليهم ولا الضالين} مصادفاً المحز.

(الشعراوي - 1419هـ) : بعد أن آمنت بالله سبحانه وتعالى إلها وربا.. واستحضرت عطاء الألوهية ونعم الربوبية وفيوضات رحمة الله على خلقه. وأعلنت أنه لا إله إلا الله.

وقولك:"إياك نعبد" أي أن العبادة لله تبارك وتعالى لا نشرك به شيئا ولا نعبد إلا إياه.. وأعلنت أنك ستستعين بالله وحده بقولك: "إياك نستعين". فإنك قد أصبحت من عباد الله. ويعلمك الله سبحانه وتعالى الدعاء الذي يتمناه كل مؤمن.. وما دمت من عباد الله، فإن الله جل جلاله سيستجيب لك.. مصداقا لقوله سبحانه: {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان فليستجيبوا بي و ليومنوا بي لعلهم يرشدون "186 "} (سورة البقرة).

ومن رحمة الله تبارك وتعالى أنه علمنا ما نطلب.. وهذا يستوجب الحمد لله.. وأول ما يطلب المؤمن هو الهداية والصراط المستقيم: {إهدنا الصراط المستقيم}.

والهداية نوعان: هداية دلالة وهداية معونة. هداية الدلالة هي للناس جميعا.. وهداية المعونة هي للمؤمنين فقط المتبعين لمنهج الله. والله سبحانه وتعالى هدى كل عباده هداية دلالة أي دلهم على طريق الخير وبينه لهم.. فمن أراد

أن يتبع طريق الخير اتبعه.. ومن أراد ألا يتبعه تركه الله لما أراد.. هذه الهداية العامة هي أساس البلاغ عن الله. فقد بين لنا الله تبارك وتعالى في منهجه بافعل ولا تفعل ما يرضيه وما يغضبه.. وأوضح لنا الطريق الذي نتبعه لنهتدي. والطريق الذي لو سلكناه حق علينا غضب الله وسخطه.. ولكن هل كل من بين له الله سبحانه وتعالى طريق الهداية اهتدى؟.. نقول لا.. واقرأ قوله جل جلاله: {وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون "17" } (سورة فصلت)... فلو أن الله سبحانه وتعالى أرادنا جميعا مهديين.. ما استطاع واحد من خلقه أن يخرج على مشيئته. ولكنه جل جلاله خلقنا مختارين لنأتيه عن حب ورغبة بدلا من أن يقهرنا على الطاعة..

ما الذي يحدث للذين اتبعوا طريق الهداية والذين لم يتبعوه وخالفوا مراد الله الشرعي في كونه؟ {والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم} (سورة محمد 17). أي أن كل من

يتخذ طريق الهداية يعينه الله عليه.. ويزيده تقوى وحبا في الدين.. أما الذين إذا جاءهم الهدى ابتعدوا عن منهج الله وخالفوه.. فإن الله تبارك وتعالى يتخلى عنهم ويتركهم في ضلالهم. واقرأ قوله تعالى: {ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين} (سورة الزخرف36). والله سبحانه وتعالى قد بين لنا المحرومين من هداية المعونة على الإيمان وهم ثلاثة كما بينهم لنا في القرآن الكريم: {ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين} (سورة النحل 107). {ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدي القوم الفاسقين} (سورة المائدة 108). {ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين} (سورة البقرة258). إذن فالمطرودون من هداية

الله في المعونة على الإيمان.. هم الكافرون والفاسقون والظالمون..

الحق سبحانه وتعالى يقول: {اهدنا الصراط المستقيم} ما هو الصراط؟.. إنه الطريق الموصلة إلى الغاية. ولماذا نص على أنه الصراط المستقيم. لأن الله سبحانه وتعالى وضع لنا في منهجه الطريق المستقيم.. وهو أقصر الطرق إلى تحقيق الغاية.. فأقصر طريق بين نقطتين هو الطريق المستقيم...ولا تحسب أن البعد عن الطريق المستقيم يبدأ باعوجاج كبير. بل باعوجاج صغير جدا ولكنه ينتهي إلى بعد كبير.. ويكفي أن تراقب قضبان السكة الحديد.. عندما يبدأ القطار في اتخاذ طريق غير الذي كان يسلكه فهو لا ينحرف في أول الأمر إلا بضعة ملليمترات.. أي أن أول التحويلة ضيق جدا وكلما مشيت اتسع الفرق وازداد اتساعا. بحيث عند النهاية تجد أن الطريق الذي مشيت فيه.. يبعد عن الطريق الأول عشرات الكيلومترات وربما مئات الكيلومترات.. إذن فأي انحراف مهما كان بسيطا

يبعدك عن الطريق المستقيم بعدا كبيرا.. ولذلك فإن الدعاء:"اهدنا الصراط المستقيم "أي الطريق الذي ليس فيه اعوجاج ولو بضعة ملليمترات.. الطريق الذي ليس فيه مخالفة تبعدنا عن طريق الله المستقيم. لذلك فإن الإنسان المؤمن يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يهديه إلى أقصر الطرق للوصول إلي الغاية.. وما هي الغاية؟ إنها الجنة والنعيم في الآخرة... ولقد قال الله سبحانه وتعالى في حديث قدسي. إنه إذا قال العبد:"اهدنا الصراط المستقيم "يقول جل جلاله: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل...

(الخليلي – ...هـ) : ... عن النوّاس بن سمعان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتّحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعا ولا تَفَرّقوا، وداع يدعو من فوق الصراط فإذا أراد الإِنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب، قال ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه،

فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق واعظ الله تعالى في قلب كل مسلم" قال ابن كثير: -بعدما أورد بعض أسانيد الحديث- وهو إسناد حسن صحيح.

(صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ) (الآية 7)

(مقاتل - 150هـ) : يعني: دلنا على طريق الذين أنعمت عليهم، يعني النبيين الذين أنعم الله عليهم بالنبوة، كقوله سبحانه: {أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين} (مريم: 58).

{غير المغضوب عليهم}، يعني دلنا على دين غير اليهود الذين غضب الله عليهم، فجعل منهم القردة والخنازير. {ولا الضالين} يقول: ولا دين المشركين، يعني النصارى.

(الطبري – 310هـ) : قوله:"صِرَاطَ الذينَ أنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ": إبانة عن الصراط المستقيم، أيّ الصراط هو؟ إذ كان كل طريق من طرق الحقّ صراطا مستقيما، فقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد: اهدنا يا ربنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك من ملائكتك وأنبيائك والصديقين والشهداء والصالحين. وذلك نظير ما قال ربنا جل ثناؤه في تنزيله: "وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرّسُولَ فأولئك مَعَ الذّينَ أنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النّبِيّينَ وَالصّدّيقِينَ والشهَدَاءِ وَالصالِحِينَ وحسن أولئك رفيقا".

فالذي أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأمته أن يسألوه ربهم من الهداية للطريق المستقيم، هي الهداية للطريق الذي وصف الله جل ثناؤه صفته. وذلك الطريق هو طريق الذين وصفهم الله بما وصفهم به في تنزيله، ووعد من سَلَكه فاستقام فيه طائعا لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم أن يورده مواردهم، والله لا يخلف الميعاد.

وفي هذه الآية دليل واضح على أن طاعة الله جل ثناؤه لا ينالها المطيعون إلا بإنعام الله بها عليهم وتوفيقه إياهم لها، أوَ لا يسمعونه يقول: "صِرَاطَ الّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ "فأضاف كل ما كان منهم من اهتداء وطاعة وعبادة إلى أنه إنعام منه عليهم؟

"غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ"...

فإن قال لنا قائل: فمن هؤلاء المغضوب عليهم الذين أمرنا الله جل ثناؤه بمسألته أن لا يجعلنا منهم؟ قيل: هم الذين وصفهم الله جل ثناؤه في تنزيله فقال: {قُلْ هَلْ أُنَبّئُكُمْ بِشَرّ مِنْ ذلك مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعنَهُ اللّهُ وغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ القِرَدَةَ والخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرّ مَكانا وأضَلّ عَنْ سَوَاءِ السّبِيلِ} فأعلمنا جل ذكره بمنه ما أحلّ بهم من عقوبته بمعصيتهم إياه، ثم علمنا، مِنّةً منه علينا وجه السبيل إلى النجاة من أن يحل بنا مثل الذي حلّ بهم من المَثُلات، ورأفة منه بنا.

فإن قيل: وما الدليل على أنهم أولاء الذين وصفهم الله وذكر نبأهم في تنزيله على ما وصفت؟ قيل: حدثني أحمد بن الوليد الرملي، قال: حدثنا عبد الله بن جعفر الرقي، قال: حدثنا سفيان بن عيينة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، عن عديّ بن حاتم، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المِغْضُوبُ عَلَيْهِمْ: اليَهُودُ»...

واختلف في صفة الغضب من الله جل ذكره؛ فقال بعضهم: غضب الله على من غضب عليه من خلقه إحلالُ عقوبته بمن غضب عليه، إما في دنياه، وإما في آخرته، كما وصف به نفسه جل ذكره في كتابه فقال: {فَلَمّا آسَفُونا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأغْرَقْنَاهُمْ أجمَعينَ}، وكما قال: {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بشَرّ من ذلكَ مَثُوبَةً عنْدَ اللهِ مَن لَعَنَهُ اللّهُ وغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ منهُمُ القِرَدَةَ والخَنازِير}.

وقال بعضهم: غضب الله على من غضب عليه من عباده، ذمّ منه لهم ولأفعالهم، وشتم منه لهم بالقول...

وقال بعضهم: الغضب منه معنى مفهوم، كالذي يعرف من معاني الغضب. غير أنه وإن كان كذلك من جهة الإثبات، فمخالف معناه منه معنى ما يكون من غضب الآدميين الذين يزعجهم ويحركهم ويشقّ عليهم ويؤذيهم، لأن الله جل ثناؤه لا تحل ذاته الآفات، ولكنه له صفة كما العلم له صفة.

."وَلا الضّالِينَ": فإن قال لنا قائل: ومن هؤلاء الضالون الذين أمرنا الله بالاستعاذة بالله أن يسلك بنا سبيلهم، أو نضل ضلالهم؟ قيل: هم الذين وصفهم الله في تنزيله، فقال: {يا أهْلَ الكِتابِ لا تَغْلُوا في دِينِكُمْ غيرَ الحَقّ ولا تَتّبِعُوا أهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلّوا من قَبْلُ وأضَلّوا كَثيرا وضَلّوا عَن سَوَاءِ السّبِيلِ} فإن قال: وما برهانك على أنهم أولاء؟ قيل: حدثنا أحمد بن الوليد الرملي، قال: حدثنا عبد الله بن جعفر، قال: حدثنا سفيان بن عيينة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، عن عديّ بن حاتم، قال: قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم: "ولا الضّالّينَ "قال: «النّصارى»...

وكل حائد عن قصد السبيل وسالك غير المنهج القويم فضالّ عند العرب لإضلاله وجه الطريق، فلذلك سَمّى الله جل ذكره النصارى ضُلاّلاً لخطئهم في الحق منهج السبيل، وأخذهم من الدين في غير الطريق المستقيم.

فإن قال قائل: أو ليس ذلك أيضا من صفة اليهود؟ قيل: بلى. فإن قال: كيف خصّ النصارى بهذه الصفة، وخص اليهود بما وصفهم به من أنهم مغضوب عليهم؟ قيل: إن كلا الفريقين ضُلاّل مغضوب عليهم، غير أن الله جل ثناؤه وَسَم كل فريق منهم من صفته لعباده بما يعرفونه به إذا ذكره لهم، أو أخبرهم عنه، ولم يَسِمْ واحدا من الفريقين إلا بما هو له صفة على حقيقته، وإن كان له من صفات الذم زيادات عليه...

(أبو حامد الغزالي – 505هـ) : {صراط الذين أنعمت عليهم} إلى آخر السورة، فهو تذكير بنعمته على أوليائه، ونقمته وغضبه على أعدائه، لتستثير الرغبة والرهبة من صميم الفؤاد...

(الزمخشري – 538هـ) : {صِرَاطَ الذين أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} بدل من الصراط المستقيم، وهو في حكم تكرير العامل، كأنه قيل: اهدنا الصراط المستقيم، اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم... [و] فائدته التوكيد لما فيه من التثنية والتكرير، والإشعار بأنّ الطريق المستقيم بيانه وتفسيره: صراط المسلمين، ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه وآكده...

والذين أنعمت عليهم: هم المؤمنون، وأطلق الإنعام ليشمل كل إنعام؛ لأنّ من أُنعم عليه بنعمة الإسلام لم تبق نعمة إلا أصابته واشتملت عليه...

{غَيْرِ المغضوب عَلَيْهِمْ} بدل من الذين أنعمت عليهم، على معنى أنّ المنعم عليهم هم الذين سلموا من غضب الله والضلال، أو صفة على معنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة، وهي نعمة الإيمان، وبين السلامة من غضب الله والضلال...

[و] غضب الله...: هو إرادة الانتقام من العصاة، وإنزال العقوبة بهم، وأن يفعل بهم ما يفعله الملك إذا غضب على من تحت يده. نعوذ بالله من غضبه، ونسأله رضاه ورحمته...

[و] دخلت «لا» في {وَلاَ الضالين}...: لما في "غير" من معنى النفي، كأنه قيل: لا المغضوب عليهم ولا الضالين.

(ابن الجوزي – 597هـ) : قال ابن قتيبة: والضلال: الحيرة والعدول عن الحق.

(ابن جزي - 741هـ) : ... إسناد نعمة عليهم إلى الله، والغضب لما لم يسم فاعله على وجه التأدب، كقوله: {وإذا مرضت فهو يشفين} [الشعراء:80]...

(أبو حيان - 745هـ) : {المغضوب عليهم} الغضب: تغير الطبع لمكروه، وقد يطلق على الإعراض لأنه من ثمرته...

{ولا الضالين}: والضلال: الهلاك والخفاء، وقيل أصله الغيبوبة، في كتاب الله: {لا يضل ربي}. وضللت الشيء: جهلت المكان الذي وضعته فيه. وأضللت الشيء ضيعته، {وأضل أعمالهم}. وضل: غفل ونسي...

والضلال: سلوك غير القصد، ضل عن الطريق: سلك غير جادتها. والضلال: الحيرة والتردد...

وجعل الإنعام في صلة "الذين"، والغضب في صلة "أل"، لأن صلة "الذين "تكون فعلاً فيتعين زمانه، وصلة "أل" تكون اسماً فينبهم زمانه، والمقصود طلب الهداية إلى صراط

من ثبت إنعام الله عليه وتحقق ذلك. وكذلك أتى بالفعل ماضياً، وأتى بالاسم في صلة "أل" ليشمل سائر الأزمان، وبناه للمفعول، لأن من طلب منه الهداية ونسب الإنعام إليه لا يناسب نسبة الغضب إليه، لأنه مقام تلطف وترفق وتذلل لطلب الإحسان، فلا يناسب مواجهته بوصف الانتقام...

(البقاعي - 885هـ) : ثم أكد سبحانه وتعالى الإخبار بأن ذلك -[الهداية إلى الصراط المستقيم]- لن يكون إلا بإنعامه، منبهاً بهذا التأكيد الذي أفاده الإبدال على عظمة هذا الطريق فقال: {صراط الذين أنعمت عليهم} فأشار إلى أن الاعتصام به في اتباع رسله...

{غير المغضوب عليهم} أي الذين تعاملهم معاملة الغضبان لمن وقع عليه غضبه، وتعرفت "غير "لتكون صفة للذين بإضافتها إلى الضد...

{ولا الضالين}. فعلم مقدار النعمة على القسم الأول [المنعم عليهم]، وأنه لا نجاة إلا باتباعهم، وأن من حاد عن سبيلهم عامداً أو مخطئاً شقي، ليشمّر أولو الجد عن ساق العزم وساعد الجهد في اقتفاء آثارهم للفوز بحسن جوارهم في سيرهم وقرارهم. قال الحرالي: {المغضوب عليهم} الذين ظهر منهم المراغمة وتعمد المخالفة، فيوجب ذلك الغضب من الأعلى، والبغض من الأدنى. {الضالين} الذين وجهوا وجهة هدى فزاغوا عنها من غير تعمد لذلك.

(القاسمي - 1332هـ) : قال الأصفهاني: وإنما ذكر تعالى هذه الجملة لأن الكفار قد شاركوا المؤمنين في إنعام كثير عليهم، فبين بالوصف أن المراد بالدعاء ليس هو النعم العامة، بل ذلك نعمة خاصة.

ثم إن المراد بالمغضوب عليهم والضالين: كل من حاد عن جادة الإسلام من أي فرقة ونحلة. وتعيين بعض المفسرين فرقة منهم من باب تمثيل العام بأوضح أفراده وأشهرها، وهذا هو المراد بقول ابن أبي حاتم: لا أعلم بين المفسرين

اختلافا في أن المغضوب عليهم اليهود، والضالين النصارى...

(رشيد رضا - 1354هـ) : قال الأستاذ: الصراط المستقيم هو الطريق الموصل إلى الحق، ولكنه تعالى ما بينه بذلك كما بينه في نحو سورة العصر، وإنما بينه بإضافته إلى من سلك هذا الصراط، كما قال في سورة الأنعام {فبهداهم اقتده}...

وأخبار القرآن كلها تنطوي في إجمال هذه الآية...

وأما وصفه تعالى الذين أنعم عليهم بأنهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فالمختار فيه أن المغضوب عليهم هم الذين خرجوا عن الحق بعد علمهم به، والذين بلغهم شرع الله تعالى ودينه، فرفضوه ولم يتقبلوه، انصرافا عن الدليل، ورضا بما ورثوه من القيل، ووقوفا عند التقليد، وعكوفا على هوى غير رشيد.

وغضب الله يفسرونه بلازمه وهو العقاب، ووافقهم الأستاذ الإمام، والذي ينطق على مذهب السلف أن يقال إنه شأن من شؤونه تعالى يترتب عليه عقوبته وانتقامه.

وأن الضالين هم الذين لم يعرفوا الحق البتة، أو لم يعرفوه على الوجه الصحيح الذي يقرن به العمل...

وقرن المعطوف في قوله {ولا الضالين} بـ"لا" لِمَا في "غير" من معنى النفي أي: وغير الضالين، ففيه تأكيد للنفي.

وهو يدل على أن الطوائف ثلاث: المنعم عليهم، والمغضوب عليهم، والضالون. ولا شك أن المغضوب عليهم ضالون أيضا، لأنهم بنبذهم الحق وراء ظهورهم، قد استدبروا الغاية واستقبلوا غير وجهتها، فلا يصلون منها إلى مطلوب، ولا يهتدون فيها إلى مرغوب، ولكن فرق بين من عرف الحق، فأعرض عنه على علم، وبين من لم يظهر له الحق، فهو تائه بين الطرق لا يهتدي إلى الجادة الموصلة منها، وهم من لم تبلغهم الرسالة، أو بلغتهم على وجه لم يتبين لهم فيه الحق،

فهؤلاء هم أحق باسم الضالين، فإن الضال حقيقة هو التائه الواقع في عماية لا يهتدي معها إلى المطلوب. والعماية في الدين هي الشبهات التي تلبس الحق بالباطل وتشبه الصواب بالخطأ.

(ابن عاشور - 1393هـ) : ... وإنما جاء نظم الآية بأسلوب الإبدال أو البيان... لفائدتين:

الأولى: أن المقصود من الطلب ابتداءً هو كون المهدى إليه وسيلة للنجاة واضحة سمحة سهلة، وأما كونها سبيل الذين أنعم الله عليهم فأمر زائد لبيان فضله...

ثم إن في اختيار وصف الصراط المستقيم بأنه صراط الذين أنعمتَ عليهم دون بقية أوصافه تمهيداً لبساط الإجابة...كما... في قوله صلى الله عليه وسلم «كما صليتَ على إبراهيم»، فيقول السائلون: اهدنا الصراط المستقيم، الصراط الذي هديت إليه عبيد نعمك، مع ما في ذلك من التعريض بطلب أن يكونوا لاحقين في مرتبة الهدى

بأولئك المنعم عليهم، وتهمماً بالاقتداء بهم في الأخذ بالأسباب التي ارتقوا بها إلى تلك الدرجات، قال تعالى: {لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة} [الممتحنة: 6]، وتوطئةً لما سيأتي بعد من التبري من أحوال المغضوب عليهم والضالين، فتضمن ذلك تفاؤلاً وتعوذاً.

والنعمة بالكسر وبالفتح مشتقة من النعيم وهو راحة العيش ومُلائم الإنسان والترفه... والنعمة: الحالة الحسنة، لأن بناء الفعلة بالكسر للهيئات، ومتعلق النعمة اللذاتُ الحسية، ثم استعملت في اللذات المعنوية العائدة بالنفع ولو لم يحس بها صاحبها...

ومن غرض وصف {الذين أنعمتَ عليهم} بأنهم {غير المغضوب عليهم ولا الضالين} التعوذُ مما عرض لأمم أنعم الله عليهم بالهداية إلى صراط الخير بحسب زمانهم بدعوة الرسل إلى الحق فتقلدوها، ثم طرأ عليهم سوء الفهم فيها فغيروها وما رعَوْها حق رعايتها، والتبرُّؤ من أن يكونُوا مثلهم في بَطَر النعمة وسوء الامتثال وفساد التأويل وتغليب

الشهوات الدنيوية على إقامة الدين، حتى حق عليهم غضب الله تعالى، وكذا التبرؤ من حال الذين هُدوا إلى صراط مستقيم فما صرفوا عنايتهم للحفاظ على السير فيه باستقامة، فأصبحوا من الضالين بعد الهداية إذْ أساءوا صفة العلم بالنعمة فانقلبت هدايتهم ضلالاً...

والضلال: سلوك غير الطريق المراد عن خطأ، سواء علم بذلك، فهو يتطلب الطريق أم لم يعلم... وهو مقابل الهُدى. وإطلاقُ الضال على المخطئ في الدين أو العلم استعارة كما هنا. والضلال في لسان الشرع مقابل الاهتداء. والاهتداء هو الإيمان الكامل، والضلال ما دون ذلك، قالوا: وله عَرض عريض، أدناه ترك السنن وأقصاه الكفر. وقد فسرنا الهداية فيما تقدم أنها الدلالة بلطف، فالضلال عدم ذلك، ويطلق على أقصى أنواعه الختمُ والطبعُ والأَكِنَّةُ...

والمراد من المغضوب عليهم والضالين جنسًا فِرَق الكفر، فالمغضوب عليهم جنس للفِرق التي تعمدت ذلك

واستخفت بالديانة عن عمد وعن تأويل بعيد جداً تَحمِل عليه غلبة الهوى، فهؤلاء سلكوا من الصراط الذي خط لهم مسالك غير مستقيمة فاستحقوا الغضب لأنهم أخطأوا عن غير معذرة إذ ما حملهم على الخطأ إلا إيثار حظوظ الدنيا.

والضالون جنس للفِرق الذين حرفوا الديانات الحق عن عمد وعن سوء فهم.

وكلا الفريقين مذموم معاقب، لأن الخلق مأمورون باتباع سبيل الحق وبذل الجهد إلى إصابته والحذر من مخالفة مقاصده...

(الشعراوي - 1419هـ) : ...أنت حين تقرأ الآية الكريمة، فأنت تطلب من الله تبارك وتعالى أن تكون مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.. أي أنك تطلب من الله جل جلاله.. أن يجعلك تسلك نفس الطريق الذي سلكه هؤلاء لتكون معهم في الآخرة.. فكأنك تطلب الدرجة

العالية في الجنة.. لأن كل من ذكرناهم لهم مقام عال في جنة النعيم...

وعندما [تعرف] أن الله سبحانه وتعالى قال: (هذا لعبدي ولعبدي ما سأل).. تعرف أن الاستجابة تعطيك الحياة العالية في الآخرة وتمتعك بنعيم الله. ليس بقدرات البشر كما يحدث في الدنيا.. ولكن بقدرة الله تبارك وتعالى.. وإذا كانت نعم الدنيا لا تعد ولا تحصى.. فكيف بنعم الآخرة؟ لقد قال الله سبحانه وتعالى عنها: {لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد} (سورة ق 35). أي أنه ليس كل ما تطلبه فقط ستجده أمامك بمجرد وروده على خاطرك ولكن مهما طلبت من النعم ومهما تمنيت فالله جل جلاله عنده مزيد.. ولذلك فإنه يعطيك كل ما تشاء ويزيد عليه بما لم تطلب ولا تعرف من النعم.. وهذا تشبيه فقط ليقرب الله تبارك وتعالى صورة النعيم إلى أذهاننا، ولكن الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر...

[ف] لا توجد ألفاظ في لغة البشر تعبر عن النعيم الذي سيعيشه أهل الجنة لأنه لم تره عين ولم تسمع به أذن ولا خطر على القلب.. ولذلك فإن كل ما نقرأه في القرآن الكريم يقرب لنا الصورة فقط.

وقوله تعالى: {غير المغضوب عليهم}.. أي غير الذين غضبت عليهم يا رب من الذين عصوا. ومنعت عنهم هداية الإعانة.. الذين عرفوا المنهج فخالفوه وارتكبوا كل ما حرمه الله فاستحقوا غضبه. ومعنى غير "المغضوب عليهم "أي يا رب لا تيسر لنا الطريق الذي نستحق به غضبك، كما استحقه أولئك الذين غيروا وبدلوا في منهج الله ليأخذوا سلطة زمنية في الحياة الدنيا وليأكلوا أموال الناس بالباطل.. وقد وردت كلمة "المغضوب عليهم" في القرآن الكريم في قوله تعالى: {قل هل أنبئكم بشرٍ من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل} (سورة المائدة 60). وهذه الآيات نزلت في بني إسرائيل.

وقول الله تعالى: {ولا الضالين} هناك الضال والمضل.. الضال هو الذي ضل الطريق فاتخذ منهجا غير منهج الله.. ومشى في الضلالة بعيدا عن الهدى وعن دين الله.. ويقال ضل الطريق أي مشى فيه وهو لا يعرف السبيل إلى ما يريد أن يصل إليه، أي أنه تاه في الدنيا فأصبح وليا للشيطان وابتعد عن طريق الله المستقيم.. هذا هو الضال.. ولكن المضل هو من لم يكتف بأنه ابتعد عن منهج الله وسار في الحياة على غير هدى.. بل يحاول أن يأخذ غيره إلى الضلالة.. يغري الناس بالكفر وعدم اتباع المنهج والبعد عن طريق الله.. وكل واحد من العاصين يأتي يوم القيامة يحمل ذنوبه.. إلا المضل فإنه يحمل ذنوبه وذنوب من أضلهم. مصداقا لقوله سبحانه: {ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون} (سورة النحل25). أي أنك وأنت تقرأ الفاتحة تستعيذ بالله أن تكون من الذين ضلوا.. ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يأت هنا بالمضلين. نقول إنك لكي تكون

مضلا لابد أن تكون ضالا أولا.. فالاستعاذة من الضلال هنا تشمل الاثنين. لأنك ما دمت قد استعذت من أن تكون ضالا فلن تكون مضلا أبدا...

(ابن عثيمين - 1421هـ) : 1-من فوائد الآيتين: ذكر التفصيل بعد الإجمال؛ لقوله تعالى: {اهدنا الصراط المستقيم}: وهذا مجمل؛ (صراط الذين أنعمت عليهم): وهذا مفصل؛ لأن الإجمال ثم التفصيل فيه فائدة؛ فإن النفس إذا جاء المجمل تترقب وتتشوف للتفصيل والبيان؛ فإذا جاء التفصيل ورد على نفس مستعدة لقبوله متشوفة إليه؛ ثم فيه فائدة ثانية هنا: وهو بيان أن الذين أنعم الله عليهم على الصراط المستقيم...

2 -ومنها: إسناد النعمة إلى الله تعالى وحده في هداية الذين أنعم عليهم؛ لأنها فضل محض من الله...

3 –ومنها: انقسام الناس إلى ثلاثة أقسام: قسم أنعم الله عليهم؛ وقسم مغضوب عليهم؛ وقسم ضالون؛ وقد سبق بيان هذه الأقسام..

وأسباب الخروج عن الصراط المستقيم: إما الجهل أو العناد؛ والذين سببُ خروجهم العناد هم المغضوب عليهم. وعلى رأسهم اليهود؛ والآخرون الذين سبب خروجهم الجهل كل من لا يعلم الحق. وعلى رأسهم النصارى؛ وهذا بالنسبة لحالهم قبل البعثة. أعني النصارى؛ أما بعد البعثة فقد علموا الحق، وخالفوه؛ فصاروا هم واليهود سواءً، كلهم مغضوب عليهم...

4 –ومن فوائد الآيتين: بلاغة القرآن، حيث جاء التعبير عن المغضوب عليهم باسم المفعول الدال على أن الغضب عليهم حاصل من الله تعالى، ومن أوليائه...

5 –ومنها: أنه يقدم الأشد، فالأشد؛ لأنه تعالى قدم المغضوب عليهم على الضالين؛ لأنهم أشد مخالفة للحق من

الضالين؛ فإن المخالف عن علم يصعب رجوعه. بخلاف المخالف عن جهل..

(حسين فضل الله - 1431هـ) : [صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ، غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّآلِّينَ] هذا هو التحديد الواقعي لهذا الصراط في النماذج التي تتحرّك فيه وتلتزمه، في ما يتمثّل فيه من النعمة الإلهية التي يفيضها الله على عباده، وأيّ نعمة أعظم من نعمة الهداية إلى الحقّ الذي يؤدي بهم إلى رضوان الله، وإلى نعيمه في جنته الخالدة!... ممن رفع الله درجتهم في خطّ الإسلام والإيمان بالله والسير في مواقع رضاه.

المغضوب عليهم والضّالون: وفي مقابل هؤلاء، هناك فريق «المغضوب عليهم» الذين اختاروا الكفر على الإيمان، والشرك على التوحيد، والمعصية على الطاعة، والانحراف على الاستقامة، مع وضوح الحجّة على الإيمان في إشراقة العقل، وعلى التوحيد في حركة الفكر، وظهور الخير في حركة الطاعة في خطّ الاستقامة على درب الله، فلم يبتعدوا

عن الصراط المستقيم انطلاقاً من شبهةٍ، بل ابتعدوا من موقع العناد والإصرار على التمرّد والتحدّي لله في مواقع ألوهيّته، فاستحقوا غضب الله عليهم لأنهم لا يملكون أساساً عقليّاً لموقفهم المعاند المتمرّد، بل هناك الأساس المضادّ للإنسانية العقلانية التي تفرض الخضوع للحقّ الثابت بالحجّة الواضحة، والالتزام بكلّ النتائج المترتبة عليه...

وهناك فريق الضالّين الحائرين بين الكفر والإيمان، لأنهم عاشوا الغفلة عن مسألة الفكر العقيدية في مجالات التوحيد، والرسالة واليوم الآخر، واستسلموا للأفكار الموروثة التي عاشوا قداستها من خلال قداسة العلاقة بالآباء والأجداد، أو من خلال استغراقهم في المألوف من أفكار البيئة التي عاشوا فيها، في عملية انجذاب لكلّ الأوضاع المتحرّكة في داخلها أو المحيطة بها، وتأثروا بكلّ المشاعر المتنوّعة في مؤثراتها النفسية وبكلّ الإيحاءات المختلفة في أبعادها الذاتية، الأمر الذي يجعلهم مشدودين إلى كلّ

ذلك، كما لو كان هو الحقيقة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

ثُمَّ تتطور المسألة إلى ما يشبه التعصب الذي يرفض الرأي المضاد كما يرفض التفكير فيه، لأنه لا يريد أن يبتعد عن المألوف من الفكر الذي تربّى عليه، أو لا يريد أن يتعب نفسه بالتفكير في ذلك، بل يواجه المسألة بطريقة اللاّمبالاة على أساس الاسترخاء الفكري والعاطفي. وهؤلاء الضالّون لا يملكون الحجّة على ضلالتهم، لأنَّ الله خلق لهم عقولاً، وأراد لهم أن يحرّكوها في عملية إنتاج الفكر الذي يهدي إلى الحقّ، وخلق لهم أسماعاً وأبصاراً وألسنةً، يستطيعون من خلالها أن يملكوا الوسائل التي توصلهم إلى معرفة المفردات الكونية والإنسانية، والتي ينطلقون من خلالها إلى الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر، كما أرسل إليهم رسلاً يبلِّغونهم رسالات الله في الدائرة التي يمكن للعقل أن ينحرف فيها عن الصواب، أو التي لا يملك خلالها الوسائل الطبيعية لمعرفته بشكلٍ مباشرٍ، وأودع في كيانهم قلق المعرفة الذي

يدفعهم للبحث والتأمّل عند إثارة الشك أو الاحتمال في داخلهم، بحيث يشعرون بالتقصير عندما يتجمّدون أمامه، ولا يتحرّكون للتعرّف على طبيعة المضمون الذي يثيره في آفاق النفس إزاء الواقع...

(الأمثل - ...ه) : خطّان منحرفان! هذه الآية تفسير واضح للصراط المستقيم المذكور في الآية السابقة، إنّه صراط المشمولين بأنواع النعم؛ مثل نعمة الهداية، ونعمة التوفيق، ونعمة القيادة الصالحة، ونعمة العلم والعمل والجهاد والشهادة، لا المشمولين بالغضب الإلهي بسبب سوء فعالهم وزيغ قلوبهم، ولا الضائعين التائهين عن جادة الحق والهدى...

بحثان:

1 من هم (الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ)؟ الذين أنعم الله عليهم،... على أربع مجاميع: الأنبياء، والصديقون، والشهداء، والصالحون...

2 من هم (الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ)، ومن هم (الضَّالِّينَ)؟ يتضح من الآية الكريمة أن (الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) و (الضّالِّينَ) مجموعتان لا مجموعة واحدة،

وأما الفرق بينهما ففيه ثلاثة أقوال:

1 -يستفاد من استعمال التعبيرين في القرآن أنّ «المغضوب عليهم» أسوأ وأحطّ من «الضّالّين»، أي إنّ الضّالين هم التائهون العاديّون، والمغضوب عليهم هم المنحرفون المعاندون، أو المنافقون، ولذلك استحقوا لعن الله وغضبه. قال تعالى: {وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ}. وقال سبحانه: {وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَوْءِ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ}. {الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ} إذن يسلكون إضافة إلى كفرهم طريق اللجاج والعناد ومعاداة الحق، ولا يألون جهداً في توجيه ألوان التنكيل والتعذيب لقادة الدعوة الإلهية. يقول سبحانه: {وَبَآءُوا بِغَضَبِ مِنَ اللهِ... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا

يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}.

2 -ذهب جمع من المفسرين إلى أن المقصود من (الضّالّين) المنحرفون من النصارى، و (الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) المنحرفون من اليهود. هذا الفهم ينطلق من مواقف هذين الفريقين تجاه الدعوة الإِسلامية. فالقرآن يصرّح مراراً أنّ المنحرفين من اليهود كانوا يكنون عداء شديداً وحقداً دفيناً للإِسلام. مع أن علماء اليهود كانوا من مبشّري ظهور الإِسلام، لكنهم تحوّلوا إلى أعداء ألدّاء للإِسلام لدى انتشار الدعوة لأسباب عديدة لا مجال لذكرها، منها تعرّض مصالحهم المادية للخطر. (تماماً مثل موقف الصهاينة اليوم من الإِسلام والمسلمين).

[ف] تعبير (الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) ينطبق تماماً على هؤلاء اليهود، لكن هذا لا يعني حصر مفهوم المغضوب عليهم بهذه المجموعة من اليهود، بل هو من قبيل تطبيق الكلي على الفرد. أما منحرفو النصارى فلم يكن موقفهم تجاه

الإِسلام يبلغ هذا التعنت بل كانوا ضالين في معرفة الحق. والتعبير عنهم بالضالين هو أيضاً من قبيل تطبيق الكلي على الفرد.

3 من المحتمل أن (الضَّالِّينَ) إشارة إلى التائهين الذين لا يصرّون على تضليل الآخرين، بينما (الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) هم الضالّون والمضلّون الذين يسعون إلى جرّ الآخرين نحو هاوية الانحراف. الشاهد على ذلك حديث القرآن عن المغضوب عليهم بوصفهم: (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) (هود، 19) إذ يقول: {وَالذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} (الشورى، 16)...

خاتمة السورة

(ابن عبد البر - 463هـ) : عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا قال الإمام: {غير المغضوب عليهم ولا الضالين}، فقولوا: آمين، فإنه من وافق قوله قول

الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه) 285. (ت: 15/22).

(الزمخشري – 538هـ) : آمين: صوت سمي به الفعل الذي هو: استجب، كما أنّ «رويد، وحيهل، وهلم » أصوات سميت بها الأفعال التي هي «أمهل، وأسرع، وأقبل » ...

(ابن عطية – 542هـ) : القول في آمين: روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إذا قال الإمام: {ولا الضالين} [الفاتحة: 7] فقولوا آمين. فإن الملائكة في السماء تقول آمين، فمن وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه...

واختلف الناس في معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة» فقيل في الإجابة، وقيل في خلوص النية، وقيل: في الوقت، والذي يترجح أن المعنى فمن وافق في الوقت مع خلوص النية، والإقبال على الرغبة

إلى الله تعالى بقلب سليم، والإجابة تتبع حينئذ، لأنّ من هذه حاله فهو على الصراطِ المستقيم...

(ابن العربي - 543هـ) : ثَبَتَ عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا قَالَ الْإِمَامُ: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} فَقُولُوا: آمِينَ؛ فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ الْمَلَائِكَةِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ». وَثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا أَمَّنَ الْإِمَامُ فَأَمِّنُوا، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

فَتَرْتِيبُ الْمَغْفِرَةِ لِلذَّنْبِ عَلَى أَرْبَعِ مُقَدِّمَاتٍ ذَكَرَ مِنْهَا ثَلَاثًا، وَأَمْسَكَ عَنْ وَاحِدَةٍ؛ لِأَنَّ مَا بَعْدَهَا يَدُلُّ عَلَيْهَا:

الْمُقَدِّمَةُ الْأُولَى: تَأْمِينُ الْإِمَامِ.

الثَّانِيَةُ: تَأْمِينُ مَنْ خَلْفَهُ.

الثَّالِثَةُ: تَأْمِينُ الْمَلَائِكَةِ.

الرَّابِعَةُ: مُوَافَقَةُ التَّأْمِينِ. فَعَلَى هَذِهِ الْمُقَدِّمَاتِ الْأَرْبَعِ تَتَرَتَّبُ الْمَغْفِرَةُ. وَإِنَّمَا أَمْسَكَ عَنْ الثَّالِثَةِ اخْتِصَارًا لِاقْتِضَاءِ الرَّابِعَةِ لَهَا فَصَاحَةً؛ وَذَلِكَ يَكُونُ فِي الْبَيَانِ لِلِاسْتِرْشَادِ وَالْإِرْشَادِ، وَلَا يَصِحُّ ذَلِكَ مَعَ جَدَلِ أَهْلِ الْعِنَادِ.

[آمين]... هَذِهِ كَلِمَةٌ لَمْ تَكُنْ لِمَنْ قَبْلَنَا، خَصَّنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهَا، فِي الْأَثَرِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ قَالَ: مَا حَسَدَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ عَلَى شَيْءٍ كَمَا حَسَدُوكُمْ عَلَى قَوْلِكُمْ: «آمِينَ».

[و] لَيْسَ فِي أُمِّ الْقُرْآنِ حَدِيثٌ يَدُلُّ عَلَى فَضْلِهَا إِلَّا حَدِيثَانِ: أَحَدُهُمَا حَدِيثُ: قُسِّمَت الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ... الثَّانِي حَدِيثُ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: لَأُعَلِّمَنَّك سُورَةً مَا أُنْزِلَ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا. وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ حَدِيثٌ صَحِيحٌ فِي فَضْلِ سُورَةٍ إِلَّا قَلِيلٌ...

(ابن جزي – 741هـ) : ... هذه السورة جمعت معاني القرآن العظيم كله، فكأنها نسخة مختصرة منه فتأملها تعلم

ذلك في الألوهية حاصلا في قوله: {الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم}.

والدار الآخرة: في قوله: {مالك يوم الدين}.

العبادات كلها من الاعتقادات والأحكام التي تقتضيها الأوامر والنواهي: في قوله: {إياك نعبد}.

والشريعة كلها في قوله: {الصراط المستقيم}. والأنبياء وغيرهم في قوله: {الذين أنعمت عليهم}. وذكر طوائف الكفار في قوله: {غير المغضوب عليهم ولا الضالين}.

(ابن كثير - 774هـ) : اشتملت هذه السورة الكريمة وهي سبع آيات، على حمد الله وتمجيده والثناء عليه، بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاده عبيده إلى سؤاله والتضرع إليه، والتبرؤ من حولهم وقوتهم، وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية تبارك وتعالى، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو

الدين القويم، وتثبيتهم عليه حتى يُفضي بهم ذلك إلى جواز الصراط الحسي يوم القيامة، المفضي بهم إلى جنات النعيم في جوار النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة، ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل؛ لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون.

(القاسمي - 1332هـ) : قال العلامة الشيخ محمد عبده في (تفسيره): الفاتحة مشتملة على مجمل ما في القرآن. وكل ما فيه تفصيل للأصول التي وضعت فيها...

قال: وبيان ما أريد: أن ما نزل القرآن لأجله أمور:

أحدها التوحيد: لأن الناس كانوا كلهم وثنيين وإن كان بعضهم يدّعي التوحيد.

ثانيها وعد من أخذ به، وتبشيره بحسن المثوبة، ووعيد من لم يأخذ به، وإنذاره بسوء العقوبة. والوعد يشمل ما للأمة

وما للأفراد، فيعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتهما. والوعيد كذلك يشمل نقمهما وشقاءهما. فقد وعد الله المؤمنين: بالاستخلاف في الأرض، والعزّة، والسلطان، والسيادة. وأوعد المخالفين: بالخزي والشقاء في الدنيا. كما وعد في الآخرة بالجنة والنعيم وأوعد بنار الجحيم.

ثالثها: العبادة التي تحيي التوحيد في القلوب وتثبته في النفوس.

رابعها: بيان سبيل السعادة وكيفية السير فيه الموصل إلى نعم الدنيا والآخرة.

خامسها قصص من وقف عند حدود الله تعالى وأخذ بأحكام دينه، وأخبار الذين تعدوا حدوده ونبذوا أحكام دينه ظهريا لأجل الاعتبار، واختيار طريق المحسنين.

هذه هي الأمور التي احتوى عليها القرآن، وفيها حياة الناس وسعادتهم الدنيوية والأخروية. والفاتحة مشتملة عليها إجمالا بغير ما شك ولا ريب.

والفاتحة بجملتها تنفخ روح العبادة في المتدبر لها. وروح العبادة هي إشراب القلوب خشية الله وهيبته، والرجاء لفضله، لا الأعمال المعروفة من فعل وكفٍّ وحركات اللسان والأعضاء. فقد ذكرت العبادة في الفاتحة قبل ذكر الصلاة وأحكامها، والصيام وأيامه؛ وكانت هذه الروح في المسلمين قبل أن يكلفوا بهذه الأعمال البدنية، وقبل نزول أحكامها التي فصلت في القرآن تفصيلا ما؛ وإنما الحركات والأعمال مما يتوسل به إلى حقيقة العبادة. ومخ العبادة الفكر والعبرة.

(سيد قطب - 1387هـ) : وبعد فهذه هي السورة المختارة للتكرار في كل صلاة، والتي لا تصح بدونها صلاة. وفيها على قصرها تلك الكليات الأساسية في التصور الإسلامي؛ وتلك التوجهات الشعورية المنبثقة من ذلك التصور...

(دروزة - 1404هـ) : خطورة شأن الفاتحة

ولقد أكثر المفسرون القول في صددها ومداها وبركاتها... ورأوا فيها من أجل ذلك كله براعة استهلال رائعة للقرآن وعنواناً لمواضيعه. ولمحوا من هذا حكمة جعلها في ترتيب المصحف فاتحة القرآن وفي الصلاة مفتتح التلاوة وتكرارها في كل ركعة.

ولعل في كل هذا تدعيم لأولية نزولها كسورة تامة ولاسيما أنها لا تحتوي إشارة ما إلى وقائع السيرة التي وقعت بعد أن سار النبي صلى الله عليه وسلم شوطا في الدعوة، وأن ما فيها هو تعليم وتلقين عامان مما يصح أن يكون طابع الآيات والسور الأولى.

وأسلوب السورة يلهم أنها بسبيل تعليم المسلمين ما يجب عليهم من حمد الله وعبادته وطلب الهداية منه. وفيها تلقينات جليلة: فالإله الذي يؤمن به المسلمون هو رب جميع العالمين ورحمته شاملة عامة، وهو ملك يوم الآخرة. وعليهم أن يفرغوا أنفسهم وقلوبهم من غيره فلا يخضعوها لأحد ولا يبالوا في الحق أحداً؛ لأنه هو النافع والضار

والخالق والرازق والشامل برحمته جميع الخلق. وهم مدينون له في حياتهم ومماتهم وهدايتهم ورزقهم وكيانهم وفي هذا ما فيه من إنقاذ المسلم وروحه من تأثير غيره فيه، وبثّ القوة والاعتماد والكرامة فيه.

والصراط المستقيم يصح أن يكون الطريق القويم في أمور الدين والدنيا معاً. فالإيمان بالله وبما جاء به رسوله هو طريق قويم. والقيام بالواجبات التعبدية هو طريق قويم. والتزام الصدق والوفاء وسائر مكارم الأخلاق هو طريق قويم، وكل ما يغاير هذا هو طريق أعوج لا يسير فيه إلاّ الضالون والمستحقون لغضب الله...

(الشعراوي - 1419هـ) : "آمين" تقولها مرة وأنت القارئ، وتقولها مرة وأنت السامع. فساعة تقرأ الفاتحة تقول آمين.. أي أنا دعوت يا رب، فاستجب دعائي.. لأنك لشدة تعلقك بما دعوت من الهداية فإنك لا تكتفي بقول "اهدنا" ولكن تطلب من الله الاستجابة. وإذا كنت تصلي في جماعة فأنت تسمع الإمام وهو يقرأ الفاتحة، ثم تقول

آمين. لأن المأموم أحد الداعين.. الذي دعا هو الإمام، وعندما قلت آمين فأنت شريك في الدعاء.

(الشاهد البوشيخي - نظرات في الهدى المنهاجي - ...هـ)

: هذه السورة القصيرة العظيمة التي تعلمون الأحاديث الصحيحة التي وردت فيها، نحاول اليوم أن نلتمس ما يسر الله من الهدى المنهاجي فيها مما تحتمله هذه الحصة. وأول ذلك:

الهدى الأول: رأس الأدب مع الله البدء باسم الله:

وتحت هذه النقطة ثلاث نقط:

أولا: لا مسَّ لشيء في ملك الله إلا باسم الله: أي باستئذان الله.

وثانيا: لا شروع في أي قول أو فعل إلا باسم الله، أي باستئذان الله، وحوْلِ الله.

وثالثا: لا دخول إلى محراب القرآن وعالم القرآن إلا باسم الله، أي بإذن الله وحول الله.

فرأسُ الأدب مع الله إذَنْ البدْءُ باسم الله.

تعلمون ما هو معروف من الخلاف: هل \(\ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ\)\ آية من الفاتحة أم لا؟

خلاف بين أئمة المذاهب معلوم مشهور.

ولكن مراعاةً للخلاف الذي هو أصل من أصول المذهب. نتعامل معها على أنها آية من هذه السورة العظيمة ونعتبرها مدخل المدخل.

فإذا كانت الفاتحة هي المدخل لكتاب الله عز وجل وهي المقدمة، فهذه الآية مقدّمة المقدّمة.

وإذن ف "رأْسُ الأدَبِ مع الله: البدء باسم الله"؛ لأن أول ما يقرأ القارئ من كتاب الله عز وجل بعد "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم": \(\ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ\)\.

وذلك يعني أن الأدب الواجب مع الله عز وجل، ومع كل ما يتصل بالله عز وجل، هو أن لا يُقْرَب شيء من ذلك إلا باسم الله عز وجل.

فملك الله تعالى على ما هو عليه لا ينبغي أن يُمَسَّ شيءٌ منه إلا باسم الله، أي باستئذان الله جل وعلا، وهو أدب عظيم جدا جداً. الملك كله لله جل وعلا؛ فأي تصرف فيه، وأي مَسٍّ لشيء فيه، لا يمكن أن يكون إلا بعد استئذان مالكه.

وهذا الاستئذان يصل في بعض الأحيان -إذا ربطنا الكلام ببقية القرآن- إلى حدّ أن يصير الشيء حراما إذا لم يُذْكَر عليه اسم الله \(\وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ\)\ [الأنعام: 122]؛ لأن نزع حياة بغير استئذان واهِب الحياة هو شيء عظيم عند الله تعالى، ولكن إذا أُخذ منه الإذن فإنه يصير جائزا، ويصير حلالا. وفي ذلك إشارة إلى أن هذا الاستئذان أمرٌ أساسي في الأمر كله، في الملك كله

على عظمته، على كِبَرِه، على تنوع ما فيه، لا ينبغي أن يُقرب إلا بإذن الله.

ومما يقتضيه هذا الإذن: المشروعية؛ لأنه لا يحل لامرئ مسلم أن يُقْدم على أمر حتى يعلم حُكم الله فيه، فلا يجوز أن يقول باسم الله ويشرب الخمر، أو يفعل منكراً ويقول: باسم الله.

هذا لا يمكن؛ لأنه مخالف للمقصود من هذا الأدب الواجب، فأن نشعر هذا الشعور شيءٌ مهم جدا، نحن أمام مُلك له مالكه، وله صاحبه، ونحن بعضُ ملكه، فأي مس لأي جزئية في هذا الكون ينبغي أن تكون باسم الله، أي باستئذان الله عز وجل، أي داخل دائرة ما أذن فيه، وأمر به.

هذه الأولى.

والثانية: لا شروع في أي قول أو فعل إلا باسم الله أيضا:

يعني كما أن أي تصرف في الكون لا يجوز إلا بعد الاستئذان باسم الله، فكذلك لا ينبغي أن يُشرع في شيء إلا باسم الله: فكأنك تقول: إني أُمَارسه مستئذنًا الله عز وجل، وأمارسه بحول الله عز وجل لا بحولي، إذ لا حول ولا قوة لأحد إلا بالله، فكون الأمر مشروعا لا يعني أنه يُقْدَر عليه بغير حول الله. لا يمكن. ولذلك على الإنسان أن يستشعر وهو يشرع في أمر ما أنه يَشْرع فيه بإذن الله أولا، وبحول الله وقوته ثانيا.

وسبق الكلام في \(\اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ\)\ أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لم يكن قارئاً، فقيل له: اقرأ \(\\(\اقْرَأْ بِاسْمِ\)\، أي كُن قارئا بإذنٍ من الله عز وجل، وحول من الله عز وجل، وإن لم تكن قارئا فإنك ستصير قارئا بإذن الله تعالى وحوله، فهو الذي جعل القارئ قارئا، وهو الذي أقْرَأ بالقلم وبغير القلم، وهو وهو..

هذه النقطة أيضا لابد من الشعور بها في البدء. وهي أيضا مهمة في أي ممارسة؛ لأن عددا من الأعمال قد تظهر

للإنسان شاقة صعبة، ولكن هي مما أمر الله به أو كلفنا به، فينبغي أن يُقْدَم عليها باسم الله؛ لأنها إذا أقدم عليها العبد باسم الله فإنه يستطيعها بإذن الله، ولكن إذا نظر إلى حوله ولا حول له فإنه لا يقدر.

وهذه شبهةٌ قد تعرض لكثير من الناس، فقد يظن ظان أنه لا يستطيع أن يفعل شيئا ما، لكن إذا أدخل هذه النقطة في الحساب فإنه يُرْزق قوةً خاصةً، ما دام مُقدما على أمر مشروع، أي على شيء أذن الله فيه إمَّا في صورة الوجوب، أو في صورة الندب، أي في صورة الجواز.

والثالثة: لا دخول إلى محراب القرآن وعالم القرآن بصفة عامة إلا باسم الله أيضا، أي إلا بإذن الله وحوله:

معناه: أن هذا العالم الذي هو عالم القرآن وما فيه من أسرار، ومن خيرات وبركات ومواهب ربانية، هذا العالَمُ القرآنيُّ لا يمكن الدخول إليه، ولن تفتح كنوزه وأبوابه، ولن

يُعطى العبد أسرارَه إلا إذا دخله أيضا بهذا المعنى، دَخَلَه باسم الله مستئذنا له ومتوكلا عليه.

ذلك بأن هذا القرآن –كما سنرى بعد قليل– رحمة مهداة، ومن ثم فلا استفادة من هذه الرحمة، ولا دخول لهذه الرحمة، ولا تمتُّع بما في هذه الرحمة إلا إذا دخل العبد مستشعراً هذا المعنى في "باسم الله".

الهدى الثاني: رأس الرحمة من الله: القرآن الكريمُ كتابُ الله:

نزولا، وقراءة، وإنصاتاً، وعملا، وتعلما، وتعليما، وغير ذلك، فهو في كل الأحوال رأس الرحمة من الله التي نزلت للعباد.

نحن نعلم جميعا أن الله عز وجل قسم رحمته مائة قسمة، وأنزل منها قسمة واحدة إلى الحياة الدنيا، وادّخر تسعا وتسعين قسمة إلى الآخرة ليتمتع بها المؤمنون، جعلنا الله وإياكم من الصادقين ومع الصادقين.

تلك القسمة الواحدة بها يتراحم جميع الخلائق، وتلك القسمة حظها الأكبر مركز في هدى الله تعالى، وهدى الله مركزٌ في القرآن الكريم.

وها هنا ثلاث نقط فرعية تابعة لهذه الحقيقة الضخمة:

- برحمة القرآن الكريم صار محمد –صلى الله عليه وسلم– رحمةً للعالمين.

- وبرحمة القرآن صار أصحابه رحماء بينهم.

- وبرحمة القرآن تصير الأمة في تراحمها أيضا، متى تراحمت، كالجسد الواحد.

وقد أخبرنا الله عز وجل عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بقوله جل وعلا: \(\وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ\)\ [الأنبياء: 106].

فرسول الله –صلى الله عليه وسلم– قبل نزول القرآن كان هو محمد بن عبد الله، وبعد نزول القرآن صار نبي الله

ورسول الله، أي تحوّل إلى الخيرية والرحمة ببدء نزول هذه الرحمة.

وكُلّ خير أكرم الله به هذه الأمة منذ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فأصحابه من بعده، فالتابعين، فالراسخين في العلم عبر التاريخ حتى اليوم، فالذين سيأتون بعدنا من أهل العلم والفضل، كُل أولئك وما وفقت إليه الأمة قديما وما تُوفَّق إليه الآن، وما ستوفق إليه غداً، كلُّ ذلك داخلٌ ضمن الرحمة التي جاءت من رحمة القرآن الكريم.

لأن القرآن رحمة من رحمة الله، ولأن الصفة العظمى من صفات الله جل وعلا هي صفة الرحمة، ولذلك سمى نفسه تعالى في آيات متعددة بـ"الرحمان "فقط، فلم يقل: (الله الرحمان)، بل قال: \(\الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا\)\ [الفرقان: 59]، وقال: \(\الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ\)\ [الرحمن: 1]، وقال: \(\وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ\)\ [الفرقان: 60] "الرحمان" هكذا.

فالرحمة هي الصفة العظمى التي تدخل ضمنها تقريبا جميع الصفات الأخرى.

وللإشارة فقط اقرأوا سورة الكهف، وبالضبط قصة موسى والعبد الصالح: ففيها كل فعل من الأفعال التي قام بها ذلك العبد الصالح، والتي تظهر في ظاهرها أنها شيء فظيع، وذلك ما جعل سيدنا موسى عليه السلام يستنكرها، تلك الأعمال كلّها في النهاية ختمت بقوله تعالى: \(\رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي\)\ [الكهف: 81].

قتل الغلام: رحمة من ربك.

خرق السفينة: رحمة من ربك.

إقامة الجدار: رحمة من ربك.

لذلك ينبغي أن نفهم أن الأسماء والصفات الأخرى تندرج تحت هذه الصفة، ولذلك كان افتتاح القرآن بعد اسم الله الأعظم بصفة الرحمة؛ لأن القرآن نفسه صدر عن هذه الرحمة، لأنه هو مَحْضُ رحمة، وإذا حل في عبد صار ذلك

العبد رحْمَةً على قَدْرِ حلول رحمة القرآن فيه، أي على قدر صيرورة القرآن خُلُقًا له.

فحين صار رسول الله –صلى الله عليه وسلم– خلقه القرآن، صار يساوي القرآن، وأصْبَح محْض رحمة مهداة \(\وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ\)\ [الأنبياء: 106].

ثم الناس بعد ذلك على حسب درجاتهم في التخلُّق بالقرآن يصيرون كذلك درجاتٍ في رحمانِيَّتهم.

فبهذا القرآن الذي هو رأس الرحمة من الله عز وجل صار محمد –صلى الله عليه وسلم– رحمة للعالمين لا بسواه، وبه صار أصحابه أيضا على قدر حلول القرآن فيهم رحماء بينهم، وشهد الله لهم بذلك، وبه تصير الأمة في تراحمها كالجسد الواحد كما جاء في الحديث الصحيح المشهور المعروف: "مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحُمهم وتعاطفهم مثلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى".

فالأمة إذا أقبلت على كتاب الله عز وجل وأخذته بقوة كما طلب الله عز وجل من يحي عليه السلام: \(\يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ\)\ [مريم: 11]، وكما طلب من بني إسرائيل \(\خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ\)\ [البقرة: 62]، هذا الأخذ للكتاب بقوة يسهِّل الأمر كله ويؤدِّي إلى حلول صفة الرحمة في العبد على قدر تمثله للقرآن، وتخلّقه بالقرآن، فليس بين الأمة وبين أن تصير أمة مؤسسة على التراحم إلا أن تعود إلى كتاب ربّها، وأن تعود إلى هذه الرحمة المهداة من الله جل وعلا.

الهدى الثالث: رأس الثناء على الله: الحمد لله في كل الأحوال.

وهنا ثلاث نقط أيضا:

- لأنه تعالى يرُبُّ كُلّ الكائنات في الدنيا إيجاداً وإمداداً.

- ولأنه يقيم العدل الحقَّ في الآخرة حسابا وثوابا.

- ولأن رِبَابَتَهُ في الدنيا وعدله في الآخرة يقومان على الرحمة عموما وخصوصاً.

وهذا مستفاد من الجملة الاسمية التي هي ثلاث آيات:

\(\الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (3) مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4)\)\.

رأسُ الثناء على الله الحمد لله في كل الأحوال.

فالله عز وجل أهْلٌ للحمد بحكم ما هو عليه سبحانه في ذاته وأسمائه.

وأهل للحمد بسبب النعم التي لا نستطيع حتى إحصاءها \(\وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا\)\ [إبراهيم: 36].

فهو أهل للحمد وأهل للشكر، قال العلماء: إن كل شكر حمد، وليس كُلُّ حمد شكراً، هذا الحمد ينبغي أن يكون لله عز وجل في كل الأحوال، في السراء وفي الضراء، في جميع الأحوال، لأن الله عز وجل -كما سبقت الإشارة في قصة

موسى والعبد الصالح- كل ما يفعله بعبده الصالح ليس إلا خيراً "عجبًا لأمر المؤمن. إن أمره كُلَّه خَير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سرَّاء شَكَر فكان خيراً له، وإن أصابتْه ضراءُ صَبَرَ فكان خيرا له".

لِمَ الله جل جلاله له الحمد في كل الأحوال؟

أولا: لأن الله جل جلاله يرُبّ كُلّ الكائنات مطلقا في الدنيا، وهي التي يشير إليها \(\رَبِّ الْعَالَمِينَ\)\.

لماذا نحمد الله؟

لأنه رَبُّ العالمين، ولأنه الرحمان الرحيم، ولأنه ملك يوم الدين.

فرب العالمين تتجه لهذه الكائنات الموجودة في الحياة الدنيا، لكل العوالم بصفة عامة، في أي زمان، في أي ظرف، ما قبلنا، ما بعدنا، قبل ظهور آدم، بعد خلق آدم، كُلّ الكائنات مطلقا ربُّها الله.

والربوبيةُ كلمةٌ كبيرة ضخمة. تختصرها صفتان كبيرتان: صفة الإيجاد وصفة الإمداد. صفةُ الخَلق وصفة الرزق، فالله هو الخالق والرازق، هو الموجد وهو المِمِد بكل ما تحتاجه هذه الموجودات، فهذا المعنى العظيم يعني وجودنا أصلا، خروجنا للحياة، ثم ما رزقنا الله، وما يرزقنا وغيرنا من هذه الكائنات، وما أعد لنا في هذا الملك العظيم، هذا الإعداد الكوني لِمَجِيء آدم وبنيه، هو في حد ذاته قضية لا يستطيع الإنسان تصوُّرَها، لا يستطيع الإنسان أن يتحمل تصورها، هذا الإعداد الضخم للفضاء الكوني، إعدادٌ للملك جملة ليستقبل آدم وبنيه، ويكون خادما لهم \(\أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً\)\ [لقمان: 19].

هذا الإعداد للأرض كيف بارك فيها، وقدر فيها أقواتها، وكيف أعَدّ لها هذه الشمس، وأعد لها هذا القمر، فكم من نعمة نحن غارقون فيها، وعليها تتوقف حياتنا ولكن لا نشعر بها، ولا نلتفت إليها، مثلا نعمة الهواء، نحن لا نلتفت

إلى هذه النعمة مع أننا لا نستطيع الاستغناء عنها ولو لمدة وجيزة، وقِسْ على ذلك نعَمًا أُخْرى ضخمة وعديدة.

فهذه الربوبية المطلقة والشاملة للعالمين إذا تفكر فيها الإنسان وجد نفسه أنه مهما حمد وأكثر الحمد ما وفّى حق المنعم بها، ولا يسعه إلا أن يقول مثل ما قال الرسول – صلى الله عليه وسلم– "سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورِضى نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته" فهو سبحانه أعلم بذلك.

ثانيا: لأنه يقيم العدل الحَقّ في الآخرة حسابا وثوابا.

فله الربوبيةُ هنا في الدنيا وله أيضا إقامة العدل الحق في الآخرة، وإلى ذلك العدل تشير \(\مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ\)\ يوم الخضوع، ويوم الحساب.

وفي الحقيقة لفظة {الدين} مدارُها في العربية على الخضوع في جميع استعمالاتها سواء كانت من دان به، أو دان له، أو دانه، وفي أي شكل من أشكالها هو يوم الخضوع الكامل

\(\لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (38) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ\)\ [النبأ: 38- 39] هذا هو الوضع الذي يكون عليه الناس في يوم الدين.

الناس اليوم يتكلمون ويتجرؤون على الله ويقولون العجائب، والله يسمع ويبصر ويمهل، ولكن لا يهمل، أما هناك فلا مجال نهائيا لهذا المستوى من الحرية، لا مجال له، ولذلك يقال: \(\وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ\)\ [الأعراف: 7] حسابا وثوابا \(\فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)\)\ [سورة الزلزلة].

هذا اليوم الآخِرُ هو مظهر كبير لرحمة الله جل وعلا على ما فيه من عذاب أليم لمن يستحقون ذلك \(\كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ\)\ [الأنعام: 13].

كم من المظلومين في الحياة الدنيا ماتوا ولم يُنصَفوا، فمتى يُنْصَفون؟!

في ذلك اليوم يُنصفون.

وكم من الظلمة يذهبون ولم يلقوا جزاء، فمتى يعاقبون ومتى يحاسبون؟!

في ذلك اليوم يعاقبون.

إذا لم يكن اليوم الآخر فستكون مشكلة عُظْمى، لابدَّ من هذا اليوم، ليعتدل النظامُ بكامله.

ولأن الله جل جلاله يقيم هذا اليوم، ويقيم العدل فيه إقامة كاملة مطلقة، فهذه أيضا من موجبات حمده.

ثالثا: لأن ربابته في الدنيا وعدله في الآخرة يقومان على الرحمة عموما وخصوصا:

وهذا ما تشير إليه آية: \(\الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ\)\الموجودة بين الرِّبابَة في الدنيا والعدل في الآخرة؛ لأن الرِّبابة هي مصدر [ربَّ يرُب ربّاً وربابة]، يقول علقمة الفحْل الشاعر الجاهلي المشهور:

وكُنْتَ امرءاً أفْضتْ إليْك رِبَابتي***وقبْلك رَبّتْني فضِعت رُبُوبُ

عدَدٌ من الناس سَبَق أن كانوا سادة له، وكانوا يُربّونه، ولكن ما أحْسَنوا مثل هذا الأخير، فقد أضاعوه في تلك الرِّبَابة حيث لم يحسنوا تربيبه، والربوب جمع رب.

فربابة الله في الدنيا وعدلُه في الآخرة المشار إليهما في النقطتين السابقتين يقومان على الرحمة العامة في الدنيا والرحمة الخاصة في الآخرة. وما أروع هذا البناء للرحمان الرحيم في توسطها بين الصفتين بين الدنيا والآخرة، فالرحمان اتجهت إلى جهة الدنيا؛ لأن الرحمان يفيد السعة، سعة الرحمة وشمولها \(\وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ\)\ [الأعراف: 156] والرحيم يُفيد الكثرة، كثرة الرحمة. الرحيم تتجه إلى تِسْعٍ وتسعين قِسْمة، والرحمان تتجه إلى القسمة الواحدة التي نزلت في الدنيا، فالرحمن في الدنيا، والرحيم في الآخرة.

\﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (3) مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ\﴾\

الرحمان في الدنيا يستفيد من رحمته الكفار، والفجار، والفساق، والمجرمون، وكل شيء. يستفيدون من رحمة الهواء، ورحمة الماء، ورحمة النور، ورحمة الضياء، ومما لا يُحْصى من النعم. ولكن في الآخرة لا يستفيد من رحمة الله إلا المؤمنون \﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ\﴾\ [النساء: 47] \﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ...\﴾\ [الأعراف: 156].

الهدى الرابع: رأس التقرب إلى الله تعالى: عبادة الله والاستعانة بالله،

وتحتها أيضا ثلاث نقط:

- فلا طاعة، بغاية الذلة والمحبة، إلا لله.

- ولا حول ولا قوة، في ذلك وعلى ذلك، إلا بالله.

- ولا تقرُّب بعمل صحيح إلى الله، إلا بعد القُرْب بعلْم صحيح لله من الله.

أولا: لا طاعة بغاية الذلة والمحبة إلا لله:

ماذا أقصد بهذا الكلام؟ ومداره على الآية: \(\إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ\)\.

رأس التقرب إلى الله عبادته، والاستعانةُ به سبحانه على تلك العبادة أيضا؛ لأنه ليس لنا شغل آخر، إلا أن نعبد الله \(\وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ\)\ [الذاريات: 56].

ولذلك كانت العبادةُ بمفهومها القرآني العام تشمل كُلّ فعل من أفعال العباد، لا يخرج منها فعل، فجميع أعمالنا هو عبادة، إما للرحمان وإمّا للشيطان، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من عباده المخلِصين المخلَصِين.

ذلك بأن الإنسان حين خُلق خُلق عابداً، خُلق مجهَّزا، معداً وميسّراً ليعبد الله تعالى، ولكن جاءت الشياطين فاجتالت

العباد فأضلتهم "خلقتُ عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم..."، (خلقت عبادي حنفاء) يعني عابدين لي بإخلاص، متجهين لي، لأن الحَنَفَ نوعٌ من الميل، فالله عندما خلقهم خلقهم متجهين إلى جهته سبحانه وتعالى، لا إلى جهة الشيطان، لكن الشيطان قَعَدَ لهم في الصراط المستقيم، ففتن عددا منهم، نعوذ بالله منه.

فإذن رأس التقرب إلى الله هو عبادة الله تعالى، والاستعانة به.

ماذا يقصد بالعبادة؟!

أفضل ما فُسرت به العبادة هي الطاعة بغاية الذلة، وغاية الخضوع، وغاية المحبة. وهي ببساطة، أن تجعل من نفسك عبداً لله تعالى باختيارك، لأن من مادة عبد: العبدية، فالله ربٌّ والعبد عبدٌ.

لكن هذه العبدية نوعان: عبدية بالاضطرار، وهذه هي حالة الكفار، وحالة بقية الكائنات، وهي أقلُّ مراتب العبدية، وهناك عبديّة أفضلُ وهي العبدية بالاختيار، وهذه حال العبّاد لله حقا وصدقا عن محبَّةٍ واختيار.

كُلُّنا عبيد لله بالاضطرار، لكن بعضنا فقط هم العبيد بالاختيار.

ذلك بأن الله جعل فينا أقساما أساسية كلها تشتغل بالاضطرار، وليس لنا اختيار في تشغيلها أو تعطيلها: مثل الجهاز الهضمي، والعصبي، والقلب... وغير ذلك كثير.

هذه الأشياء الأساسية المهمة هي التي تكفِّل الله بها، وجعلها تشتغل بشكل طبيعي لا دخل لنا فيه.

العبْدِية الاضطرارية التي نحن وسوانا فيها سواء، لا تترتب عليها مسؤولية.

لكن المسؤولية تبتدئ عند الاختيار، عندما يقْبَلُ العبدُ أن يكون عبداً لله بمحض إرادته واختياره، في جميع أعماله

وأقواله وأحواله ونواياه، طاعة منه لربه، عند ذلك يكون متدرجا في الانتقال من هذه العبدية بالاضطرار إلى العبدية بالاختيار، وإذَّاكَ يكونُ في وضْع العابد، خاصةً إذا وصل إلى حدّ أن أصبح قسم العبدية الاختيارية فيه مساويا، أو مشابها ومعادلا لقسم العبدية الاضطرارية، وصار في وضعه الاختياري يسير وفْق أمر الله، كما هو يسير في وضعه الاضطراري وفق سنن الله، فإنّه يُصْبح عبداً لله حقا وصدقا. وتلك أعلى درجات العبدية، وبذلك ينال العبدُ أعلى وسام، وهو وسام العبدية الاختيارية، وهو وسام لا يناله إلا المصطفَوْن الأخيار من عباد الله الصالحين رسلا وأنبياء، وورثة للرسل والأنبياء. قال تعالى: \(\سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ\)\ [الإسراء:1].

فالعابد هو صفة لذلك الذي يشتغل في عبادة الله عز وجل بَيْن مرحلة العبديّة الاضطرارية والعبدية الاختيارية، فإذا وصل درجةَ الكمال صار عبداً لله عز وجل بغير المعنى الأول للعَبْد.

هذا عبدٌ آخر، عبدٌ اختار أن يكون عبدا، فيكون في درجة عليا جداً، وهي القمة.

هذه الطاعة التي تكون بغاية الذل والخضوع هي قمة العبديّة.

لابد أن نستحضر هذا المعنى للعبد، نستحضره بين يدي الله عز وجل، نستحضر أننا لا نَمْلِك من أمر أنفسنا شيئاً، وأنه يملكنا مِلْكية تامّة، وينبغي أن نكون رهن الإشارة في كل شيء، وينبغي أن نفعل كُلّ ما يُطلبُ منا بالذلة الكاملة، والمحبة الكاملة، والشوق الكامل كذلك، ليصير فعلنا عبادة له تعالى.

هذه الطاعة من هذا النوع لا تكون إلا لله تعالى.

فمن صرفها لغير الله، أو أشرك فيها مع الله غيره، بشكل من أشكال الصرف والإشراك، سواء كان شجراً أو حجراً أو شيخاً أو إنساناً... فقد هلك.

لأن الذي طُلِب منا هو الاخلاص في العبادة \(\وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ\)\ [البيّنة: 5] أي لا شائبة فيه، مخلصين له الدين، مخلصين له الخضوع \(\إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ\)\ [البقرة: 130] سرعة في الطاعة، وسرعة في الاستجابة والامتثال الاختياري.

ثانيا: لا حول ولا قوة في ذلك وعلى ذلك إلا بالله: أي على العبادة.

بمعنى أنه قد يحصل للعبد غرور، والشيطان قد يلبِّسُ عليه فيحس كأنه قد فعل شيئا حين عبد، وحين صلى، وحين صام، مع العلم أن كل ذلك ما أقْدَره عليه إلا الله، فينبغي أن لا يمارسه إلا مستعينا بالله لا بسواه، متبرئاً من الحوْل والطوْل، مستعيناً بالله على كل فعل.

ثالثا: لا تقرُّب بعمل صحيح إلى الله، إلا بعد القُرْب بعلم صحيح لله من الله.

لنتأمل متى جاء هذا القِسْم \(\ إِيَّاكَ نَعْبُدُ\)\؟

لم يجىء إلا بعد الآيات الأربع السابقة، وكلها تعرف بالله جل وعلا، كلها تجعل العبد يذكر الله عز وجل في قلبه، ويستحضر الله سبحانه وتعالى كما عَرَّف اللّهُ نفسه بنفسه؛ لأنه لا أحد يعرف الله إلا اللّهُ، فالذي يُعرّفنا بالله هو الله جل جلاله. وما من ملك مقرّب، أو نبي مرسل، يعرف شيئا عن الله إلا ما أطلعه الله عليه سبحانه وتعالى.

فإذن أصل العلم كله من الله تعالى، وعلى هذا العلم يُبْنيُ كلّ تقرب؛ لأن هذا التقرب لا يكون تقربا صحيحا إلا بعد علم بالله صحيح، ذلك العلمُ هو من الله، هو علم بالله أخذَه من الله جل وعلا، إذَّاك يكون ذلك التقرُّب في مكانه.

أما إذا كانت الصورة فاسدةً، وكان العلم غير صحيح عن الله تعالى، فإن ذلك التقرب نفسَه يفسد، ولذلك جاءت \(\ إِيَّاكَ نَعْبُدُ\)\ بعد (الله رب العالمين/ الرحمان الرحيم/

ملك يوم الدين) وهي محطات إذا تأملها الإنسان وجدها محطاتٍ كبرى جداً في العلم بالله وصفاته (وهو علم من الله)، فالتقرب بالعمل الصحيح يكون بعد العلم الصحيح بالله من الله تعالى.

الهدى الخامس: رأس السؤال من الله سؤال الهداية إلى الصراط المستقيم صراط الله.

وتحتها ثلاث نقط:

- المهتدون وحدهم المنعم عليهم حقا؛ من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين.

- والمحرومون من عرفوا الحق ورفضوا اتباعه، فهم المغضوب عليهم وعلى رأسهم اليهود.

- ومن لم يعرفوا الحق أصلا هم الضالون وعلى رأسهم النصارى.

أين المسألة التي تعنينا هاهنا؟

ما هو أهم سؤال نسأله من الله؟

ما هو رأس الطلبات كلها؟

إن أهم سؤال يمكن أن يُطْلب من الله جل وعلا، هو الطلب الذي يدْخُل فيه ويندرج تحته كُلُّ طلب، وهو: سؤال الهداية إلى الصراط المستقيم، أي صراط الله.

هذا هو السؤال الأعظم الذي إذا أكرم الله العبد بالاستجابة له فيه بلغ كل مأرب، وتحقق له كلُّ طلب؛ لأن جميع الأمور الأخرى تدخل ضمن ذلك.

هذا السؤال هو سؤال المنهج، كأن الشخص فيه يطلب معرفة الطريقة التي بها يصل إلى مقصده بسلام، فإذا هُدِي لتلك الطريقة هداية توفيق فقد هدي حقا، وصار مهتديا.

ف"اهدنا" معناه اجعلنا نتوفَّق فعلاً، أي وفِّقْنا للسَّير على الصراط المستقيم فعلا، هذا هو المقصود، وليس أرشِدْنَا فقط؛ لأن الإرشاد موجود حتى للكفار {هُدًى للنَّاس} فالهداية المتحدثُ عنها هنا معناها هداية التوفيق، بدليل ما

جاء بعدها مفسرا لها \(\ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ\)\.

إن الفاتحة لو تأملتها لما وجدت فيها أكثر من أربع جمل:

جملة اسمية في الأول تتعلق بالله جل وعلا، فهي مجردة عن الزمان والمكان نظراً للموضوع \(\الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (3) مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4)\)\.

وجملة فعلية في الأخير هي طلب الهداية اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ (5) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ (65) غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ (7).

وجملتان في الوسط \(\ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ\)\.

وكل ما سبق الجملة الرابعة يمهد لمسألة الهداية، وسؤال الهداية.

هذا هو السؤال المركزي الأساسي الذي يُطْلب في كل حين، والذي هو طلبُ الطلبات. إنه سؤال الهداية.

هذه النقطة ينبغي أن ترسَخ في قلب العبد، وينبغي أن تكون وُكْدَهُ في حياته، فينبغي له أن يطلب الهداية في كل آن وحين؛ لأن هداية التوفيق، فيها الهداية التوفيقية العامة، وفيها الهداية اللحظية في كل جزئية من الجزئيات؛ ولذلك كان هذا الطلب واجباً في كل صلاة؛ لأن جميع ما نمارس نحتاج فيه إلى أن نكون مهتدين، ولا يخرج جميع ما نمارس من ذلك؛ لا سياسة، ولا اقتصاد، ولا تربية، ولا تدريس، ولا تجارة، ولا فلاحة،... ولا أي شيء، إذ في أي شيء ينبغي أن نكون مهديين راشدين؛ فلذلك كان هذا هو رأس السؤال من الله تعالى، سؤال الهداية إلى الصراط المستقيم.

خلاصة هدى السورة

السورة خلاصتها في ثلاث كلمات. ولكن هذه الكلمات، نظرا لطبيعة هذه السورة وخطورتها، ليست كالكلمات الماضيات في السور الأخرى، هذه الكلمات هي:

أولا: الفاتحة أم الكتاب.

ثانيا: الفاتحة أم الأدب.

ثالثا: الفاتحة أم الدعاء والطلب.

أولا: الفاتحة أم الكتاب:

لأن تدبُّرَها والتحقق من مضامينها تدبُّرٌ لكليات الدين، وتحقُّقٌ من رؤوس مسائل الكتاب؛ إذ مدارها على رؤوس وكليات ثلاث:

الكلية الأولى: كلية الإيمان بالله جل جلاله واليوم الآخر.

الكلية الثانية: كلية العبادة لله جل جلاله والاستعانة به.

الكلية الثالثة: كلية اتباع منهاج الله جل جلاله، فمَن اتبعه فاز، ومن أعرض عنه هلك مغضوبا عليه أو ضالا.

هذه الكليات الثلاث: كلية الإيمان وكلية العبادة وكلية المنهاج، القرآن كله يدور عليها، ومن هاهنا كانت هذه الفاتحة في مضمونها هي أُمّ الكتاب، كأن الكتاب منها توالد، ومن بطْنِها خرج \(\وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي

وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ\)\ [الحجر: 87] جُعِلَتِ السبعُ المثاني مستقلةً عن القرآن مع أنها جزء من هذا القرآن العظيم، ولكن لعظمتها أفردت ووُضعت بجانب القرآن العظيم؛ لأنها في حقيقتها تتضمن ما يتضمنه القرآن كله.

ذلك بأن القرآن إما أنه يتضمن حقائق الإيمان، وإما يتضمن حقائق العبادة، وإما يتضمن اتباع هذا المنهاج ممثلا في الأنواع الثلاثة: في المهديين الذين أنعم الله عليهم، وفي المغضوب عليهم، وفي الضالين.

والقرآن يختصر الكلامَ أحيانا عن الإيمان، في الإيمان بالله جل جلاله وحده، وأحيانا في الإيمان بالله واليوم الآخر، كما قال في سورة البقرة \(\وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ\)\ [البقرة: 7]، لأنه ضمن أركان الإيمان بالغيب. والغيبُ المؤثر في قلب العبد وفي توجيهه هو الله جل جلاله أولا، ثم اليوم الآخر، هذان هما الركنان الأساسيان.

فالرسل جاءوا بخبر، والكتب تضمنت الأخبار والأوامر والنواهي، والملائكة نقلت ذلك إلى الرسل، وتقوم بوظائف في هذا الكون، والقدر يجري بما قُدِر، لكن الذي يراقب ويحاسب، والذي يرى العبد ماذا يصنع هو الله. ويوم الحساب هو يوم العقاب ويوم الثواب. هذان الأمران مؤثران في قلب العبد جدا؛ فلذلك ذكرا هنا معاً، وبالخصوص الله جل جلاله.

وكلية المنهاج بالأخص نقطة مهمة؛ لأن الفوز والخسران منوطان به، فمن اتبعه فاز، ومن أعرض عنه هلك، مغضوبا عليه أو ضالا.

من هاهنا كانت الفاتحة أم الكتاب فعلا، وكان القصص القرآني يأخذ حظا كبيراً من القرآن الكريم سواء قصص النبيئين، أو قصص الظلمة، أو غير ذلك. وهذا الحظ الكبير كله شارح للمنهاج في صورة أمثلة.

ثانيا: الفاتحة أم الأدب:

لأن تدبُّرَها والتخلُّق بها تخلُّقٌ بأمهات الآداب، إذ مدارها على آداب ثلاثة:

1- أدب البدء والشروع: \(\بِسْمِ اللَّهِ\)\، وهو مفتاح الدخول إلى الملك، وإذْن التصرف فيه، وَزِرّ الاستفادة من الطاقة لتسخيره وتعميره.

2- أدب الانتهاء والختم: \(\الْحَمْدُ لِلَّهِ\)\، وهو ربط للنعم كلها بالمنعم، وأداء لحق التمتع بالنعم، وضامن استمرار النعم وصرف النقم.

3- أدب ما بين ذلك: ذكر الله؛ بالثناء عليه، والانطراح عبيدا بالاختيار بين يديه، وطلب التوفيق الدائم منه.

ولننظر إليها من هذه الزوايا الثلاث:

1- أدب البدء والشروع "باسم الله": فمفتاح الدخول إلى الملك باسم الله، فإذا أردت أن تدخل إلى الملك، فادْخُلْ إليه باسم مالكه وهو الله جل جلاله، وخذْ منه إذْنَ

التصرف فيه، واضغط على زِرّ الاستفادة من الطاقة لتسخيره وتعميره.

ومن ها هنا يمكن القول: إن الأمة حين أعرضت عن كتاب ربِّها، وحين أعرضت عن ذكر ربها، ما كان يمكنها أن تُهْدى إلى شيء حتى في أمور الدنيا، الأمورُ التي إذا طلبها الكفار أُعطيت لهم، لكن إذا طلَبَها مَن كان ينبغي أن يكونوا مؤمنين حقا لا تُعْطَى لَهُم بل يعاقبون ويُحْرمون؛ لأن الطريقة التي هُدُوا إليْها ليطلُبُوا بها ذلك رفضُوها، وهي وحدها الطريق للتمكين والاستخلاف.

الأمة الإسلامية هي المكلفة بعد محمد –صلى الله عليه وسلم– بإقامة القسط بين الناس في الأرض \(\لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ\)\ [الحديد: 24] أقام محمد –صلى الله عليه وسلم– القسط بين الناس قبل أن يلتحق بربه وقال: "فليبلْغ الشاهد الغائب"، أي انحوا على هذا النحو، وكان ينبغي أن يستمر ذلك، لكن الحقيقة الصارخة حسب مقاييس

القرآن الكريم أن جميع أشكال الخلل الموجودة اليوم في الكرة الأرضية، نحن المسؤولون عنها أولا وليس اليهود ولا النصارى؛ لأن المفروض في اليهود والنصارى أن يكونوا تبعا لنا وتحت ولايتنا، إما أن يكونوا قد أسلموا من زمان، أو يكونوا داخلين -أهل ذمّة- تحت الولاية العامة.

أما هذا الوضع المتردي فهو بسبب حالنا نحن، وهذا الفساد العظيم الواقع في الكرة الأرضية هو بسبب تخلّينا عن وظيفتنا؛ لأننا نحن لم نقم بواجبنا في التكليف الرسمي الذي كُلّفت به هذه الأمة، وهو الشهادة على الناس.

هذا هو الإشكال العظيم. ولذلك أقول: زِرُّ الاستفادة من الطاقة بالنسبة لهذه الأمة تسخيراً وتعميراً لا يكون إلا باسم الله، فأدب البدء والشروع هو \(\بِسْمِ اللَّهِ\)\، ويجب أن نذوقها ذوقا خاصّاً عميقا.

2- أدب الانتهاء والختم الحمد لله: "إن الله لَيَرْضَى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها".

\(\فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ\)\ [الأنعام: 46] دائما عندما تنتهي الأمور تنتهي بالحمد لله، وإذا ذُكِرَت الحمد لله في البداية تُذْكر على أنّ العبد ينبغي له أن يُقِرَّ، وأن يصرّح بهذا الحمد، ويشعر بهذا الحمد، ويمارس هذا الحمد؛ لأن الله عز وجل في ذاته وصفاته أهلٌ لذلك، ولأن النعم التي هو غارق فيها هو وغيره هي من الله جل وعلا، فعمليا يقولها، أولا يُقر بأن الله تعالى أهلٌ للحمد، ويقولها في الأخير ليختم بها ما سبق، يختم بها شيئا موجوداً فهي أساسا للختم، هكذا الحال كذلك في آخر سورة الزمر \(\وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ\)\ [الزمر: 72] الكل يقولها.

بصفة عامة \(\الْحَمْدُ لِلَّهِ\)\، هي أدب الانتهاء والختم من أي عمل، وتكون للشروع أيضا تصديقا على ما مضى فلا إشكال، ولكن حين نقابلُها بأدب البدء، يكون أدب البدء هو "باسم الله" وأدب الختم هو "الحمد لله" وهي ربط للنعم كلها بالمنعم.

لهذا وجب النظر في تدريس العلوم، وفي النظرة الإنسانية إلى الكون، فتدريس العلوم بصفة عامة، والنظر إلى الأشياء من حولنا كالنظر إلى النباتات وإلى الحيوانات وإلى الإنسان وإلى الجبال وإلى البحار وإلى الأنهار، وإلى أي شيء يجب أن يكون نظراً مرْبُوطاً بخالق ذلك الشيء الذي ينظر إليه، ننظر إلى الله من خلال خلق الله \(\إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ\)\ [آل عمران: 190- 191].

هذا التفكر في الخلق هو النقطة المركزية؛ لأن فيه ربطاً للخلق بالخالق، ومن ثمَّ لا يُقْبل النظر للخلق معزولاً عن الخالق، ولذلك كان هذا التدريس الذي يقع الآن في المؤسسات التعليمية لدى الغرب أو عندنا هو تدريسٌ ليس باسم الله، هو تدريسٌ معزول عن اسم الله، هو تدريس للأشياء معزولةٌ عن خالقها، وهذا فساد عظيم.

لذلك قلت: الحمد لله ربْط للنعم كلها بالمنعم، وأداءٌ لحق التمتع بالنعم، وضمان لاستمرار النعم، وصَرْف النقم \(\لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ\)\ [إبراهيم:9].

فإذا كان هذا الحمد حقيقة، وإذا فعل العبد ما ينبغي ثم حمد الله على ذلك، يكون قد أدى حق المنعم عليه، وضمن استمرار النعم عليه، وهذا شيءٌ عظيم.

3- أدب ما بَيْن ذلك، وهو: ذكرُ الله بالثناء عليه، والانطراح عبيداً بالاختيار بين يديه وطلبُ التوفيق الدائم منه.

هذا موجود في الفاتحة، وهذا جسم الفاتحة.

هذا أدب ما بين البدء والختام: أن نذكر الله جل وعلا باستمرار؛ بالثناء عليه، والانطراح عبيدا بالاختيار بين يديه سبحانه، طالبين التوفيق الدائم، الطلب الدائم منه.

ثالثا: الفاتحة أمُّ الدعاء والطلب:

لأن تدبُّرَها والتمعُّن في أسلوبها ارتقاءٌ بالدعاء إلى أعلى الآفاق.

يجب أن نُحِسّ أن الفاتحة بكاملها عبارةٌ عن سؤال و طلب.

الفاتحة بكاملها دعاءٌ، لكن هذا الدعاء لهُ أدبٌ، كيف يقدم هذا الأدب؟ ها هي الطريقة موضوعة في شكل آفاق:

1- أفُق الاستحضار هو الأفُقُ الأول: استحضارُ عظمة المولى جل وعلا في القلب جمالا وجلالاً، ربوبيةً ورحمة ودينونةً للعالمين، دنيا وأخرى، كل هذا في القسم الأول من {بسم الله الرحمان الرحيم... إلى ملك يوم الدين} واضحٌ

وضُوح الشمس، أفُق الاستحضار، استحضار عظمة المولى.

فالأدب الأول في الدعاء هو الثناءُ على الله عز وجل أولا، ثم الصلاة على رسول الله – صلى الله عليه وسلم- ثانيا، ثم بعد ذلك تقول ما تريد، وتطلب ما تشاء.

لِم الثناء على الله عز وجل؟ لأن بذلك الكلام الذي تنطق به ثناءِ تستحضر الله جل جلاله في قلْبِك، وتستحضر عظمته سبحانه وتعالى، فيحضر الله عز وجل في قلبك، فتقَرب، وتُصْبح مهيّئاً لأن تنطق نطقا خالصا، لتقدم حاجتك وأنت في غاية التهيؤ.

هذه الأولى أفق الاستحضار، بمعنى أن العبد إذا جاء يطلب ويدعو وهو غافل عمّا يقول، والله جل جلاله مازال لم يحضر في قلبه، فإنه يكون بعيداً عن الإجابة.

ينبغي إذن أن يثني على الله عز وجل بكلام حتى يُحِس أنه صار بين يدي الله عز وجل، وأنه أصبح قريبًا منه. هذا المعنى لابد أن يُذاق، وهذا الأفق لابد أن يُرْتَقى.

يجب أن تذوق معنى \(\رَبِّ الْعَالَمِينَ\)\، ويجب أن تذوق \(\الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ\)\، ويجب أن تذوق \(\مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ\)\، يجب أن تذوقها تذوقا صحيحا وبذلك التَّتَابع، ليحصل لك هذا الذكر الخاص الذي يهيئ قلبك عمليا لأن يَطْلُب من ربه. إنه استحضار عظمة المولى في القلب جمالا وجلالا.

2- أفق الإقرار: إقرار العبيد كفاحا (أي مواجهة) بذلتهم طائعين بين يدي العظيم، وبضعفهم عاجزين بين يدي القدير، ذلك العظيم القدير الذي استحضروه قبل، في الأفق الأول. ويتجلى هذا الأفق في \(\إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ\)\. لماذا جاء هذا الخطاب الآن، لماذا جاءت إياك؟ لماذا وقع هذا الالتفات من الغيبة إلى الحضور؟ ذلك لأن العبد ما بقي في غفلة، وما بقي في المرحلة التي يتحدث

فيها عن شيء غائب، بل أصبح الآن في مواجهة ربّه، قلبه أصبح الآن في مواجهة ربه، ويمكنه مباشرة أن يتكلم معه {إياك}.

هذا المقطع يعني واقعًا أن الأمر يتطور: أفق الاستحضار هو ا لأفق الأول وهو أطول، والأفق الثاني: أفق الإقرار وهو أقصر من الأول، ولكن فيه التفاتٌ واضح إلى أنه الآن أصبح في البؤرة.

إذن ماذا بعد الآن، فليقدِّمْ طلبَهُ، وهو الأفق الثالث.

3- أفق الاهتداء إلى منهاج المنعم عليهم من المصطفين الأخيار، وذلك هو الفوز المبين طريقا ورفيقا، حالا ومآلا، وذلك يعني أنه لم يبق إلا تقديم الطلب الخاص: طلب الاهتداء إلى المنهاج، منهاج المنعم عليهم من الصفوة، \(\وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا\)\ [النساء: 68] منهاج المنعم عليهم من

المِصْطفين الأخيار، وذلك هو الفوز المبين طريقا ورفيقا \(\وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا\)\، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم حالا في الدنيا، ومآلا في الآخرة، بالاهتداء إلى الصراط المستقيم الموصل إلى كل نعمة. والحمد لله رب العالمين.